هذا الحب وشخصيات

العبقرية العسكرية في غزوات الرسول

بقلم
عقيد / محمد فرج

قدم له
أنور السادات

عرف به
محمد أبو زهرة

مذاهب وشخصيات

العبقرية العسكرية
فى
غزوات الرسول

بقلم

عقيد محمد فرج

قدم له :

أنور السادات

عرف به :

محمد أبو زهرة

إهـــداء

لجأتُ إلى الله الكريم وأسلمتُ له
واستقرأتُ كتابه القويم، واهتديتُ به
واستخرجتُ كتابي هذا من وحيه
ورفعتُه إلى الله قربى، فعساه يتقبل
وقدّمتُه لنبيّه نجوى، فلعلّه يشفع ويستغفر
وأهديتُه إلى المسلمين المجاهدين ذكرى.
وحملتُه إلى الأجيال القادمة أمانةً وعقبى
والعاقبةُ للمتقين

تقديم الكتاب

بقلم

أنور السادات

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، وبعد ، فقد كتب كثير من الكتاب والمؤرخين عن غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتتبعوا دوافعها وأساليبها ونتائجها وآثارها بالدراسة والبحث ، ولكنها لسمو شأنها ، وعظيم تأثيرها ، فى تاريخ العالم الإسلامى ، بل فى تاريخ العالم بأجمعه ، مازالت تتطلب الكثير من الجهود ، وتفتح صدرها للعقول الباحثة الدراسة لتنقب عن المزيد من آثارها فى حياة الجماعات الإسلامية ولتجمع هذه الأحكام الخالدة السامية التى فرضها الرسول ، عليه صلوات الله وسلامه على نفسه وعلى المجاهدين من المسلمين فى أثناء الغزو ، فتوافقت هذه الأحكام مع أحدث قوانين الحرب الحديثة .

نعم ، مازالت غزوات الرسول وحروبه وستظل على مدى التاريخ ميداناً واسعاً فسيحاً للبحث والاجتهاد ، وحقلا خصيباً للدراسة الواعية .

لذلك رحبت بكتاب « العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول » ، ورأيت فيه متابعة طيبة لدراسة هذه الغزوات من جميع نواحيها ، ولم يغب عن تفكيرى أن المتوفر على هذه الدراسة رجل درس فن الحرب ، فهو حين يعالج هذه الغزوات ، فإنما يعالجها بروحه وطبيعته العسكرية ، التى لاشك فى انها تجلو بعض مايستغلق على فهم سواه من غير العسكريين .

وقد استرعى نظرى فى كتاب المؤلف هذه المقارنة البارعة بين غزوات الرسول عليه أفضل الصلاه والسلام وبين الحروب الحديثة ، فتناول كلا منها

بالدراسة والتحليل ، منتهياً إلى المبادىء القويمة والمثل العليا التى حققتها الغزوات المحمدية ، والتى أخذت منها كثير من قوانين الحرب عند الأمم المتحضرة .

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب إلى قراءة العربية ، أرجو أن يجدوا فيه ما يعينهم على تفهم سيرة الرسول من الناحية الحربية والعسكرية ، وما وضعه صلوت الله وسلامه عليه ، من مبادىء إنسانية خالدة ستظل دستوراً للأمم جماعات وأفراداً يهديها إلى سواء السبيل . والله ولى التوفيق ؟

أ نور السادات

تعريف بالكتاب
بقلم الأستاذ الشيخ

محمد أبو زهرة

— ١ —

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فما له من هاد ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى بعث رحمة للعالمين ، وأرسله الله تعالى بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ليحمل به على الجادة من لا يقنعه دليل ، ولا يدرك حقا بل يفسد ولا يصلح .

— ٢ —

أما بعد ، فإن الحرب حقيقة واقعة فى هذا الوجود ، لأن الله سبحانه وتعالى منذ أخرج إبليس من رحمته ، وهبط بآدم إلى هذه الأرض كانت العداوة مستحكمة بين قوى الشر يبثها إبليس فى هذا العالم الإنسانى ، وقوى الخير تدعو ليها الرسل ولذا قال تعالى « اهبطوا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو » .

وإنه منذ قتل قابيل أخاه هابيل إذ نفس عليه أن الله قبل قربانه ، ولم يقبل قربان أخيه ، والدماء بين بنى آدم لا تجف ولا يذهب نجيعها ، ومن أجل ذلك كان القصاص لمنع الشر فى داخل الأمة ، كما قال تعالى « ولكم فى القصاص حياة » وكان القتال للدفاع عن الحوزة ولدفع الفساد ومنع الشر من أن يستشرى ويكثر ويسود فى العالم ، ولذا قال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

— ٣ —

وإذا كانت الأديان السماوية تدعو إلى الخير، وينشره الرسل فى هذا الوجود ويقاومون به الشر، فإنه لابد من أن تشرع الحرب فى الشرائع السماوية، وإلا كان الغلب للاشرار، وتهدمت بيوت العبادة، واستحكم الفساد، ولذا قال تعالت كلماته «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز»

ولذلك دعا موسى بنى إسرائيل إلى القتال فجبنوا عن اللقاء، وخاروا أمام الأعداء، لما فى طبيعتهم من خور، ولأنهم لايعتمدون إلا على قوى مادية من غيرهم، لامن ذات أنفسهم ولأنهم كان ـــ ،ينقصهم الإيمان بالله تعالى حق الايمان.

وكذلك كانت الحرب من بعد موسى، فقاد الجيوش إلى مواطن الظفر نبى الله داود عليه السلام ثم قادهم إلى مواطن السيادة والشرف من بعده سليمان عليه السلام الذى قال سبحانه فى وصف كمال سلطانه «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً، وقليل من عبادى الشكور».

— ٤ —

كانت الحرب إذن بين النبيين، والذين يرومون إيذاءهم ومنع تبليغهم رسالات ربهم، وكان لا بد لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يقاتل أعداء الحق وأعداء الله، ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر المجرمين، وقد قاد محمد صلى الله عليه وسلم الجيوش، وقاتل المشركين وكان قتاله تتمثل فيه تلك الحقيقة الخالدة التى قررها عليه السلام إذ يقول أنا نبى المرحمة، وأنا نبى الملحمة.

فبهذه الروح القوية التى لا تتقاعس عن الالتحام والقتال عندما توجد دواعيهما ، ويقتضى الحق القيام بهما ، ويتعين أنه لا سبيل إلى رفع شأنه وخفض الباطل إلا بهما ، كانت الرسالة المحمدية ، وبهذه الروح السمحة الرقيقة كانت المعاملة فى القتال وبعد القتال ، وفى الحق أن الرحمة التى جاءت بها الرسالة المحمدية كما قال الله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » هى التى دفعت إلى القتال ، فليست رحمة الإسلام هى الشفقة المجردة ، إنما رحمة الإسلام هى الرحمة التى تعم ولا تخص ، ومن الرحمة بالمجموع الأخذ على يد الظالم ، ومن الرحمة بالعالمين دفع شر المعتدين ، فكان الدافع إلى القتال هو الرحمة ، وكان القتل فى أضيق صورة ، فكانت الرحمة تظل القتال أيضاً .

— ٥ —

ولقد قاتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وقاتل معه ربيون كثيرون من صحابته واتجهوا إلى فنون القتال مع ضروب الشجاعة التى اختصوا بها ، ومع تسربلهم بسربال اليقين الذى امتازوا به ومع تزودهم بالتقوى التى يدعون إليها ويدافعون عنها ، فما خانوا وما غلوا ، وما تتبعوا عورة ولا انتهكوا حرمة ، مع قيادة النبى صلى الله عليه وسلم لهم فى مهارة واضحة ، وسياسة فى القتال حكيمة ، فكانوا مع النبى بحق أسوداً فى النهار وعباداً فى الليل .

وكان لابد من تسجيل هذا وتوضيحه وبيانه . ولقد استفاضت كتب السيرة المباركة بأخبار هذا فى رواية صادقة محكمة وعبارات موضحة مصورة .

ولكننا فى العصر الذى تقدمت فيه الحروب ، وتعددت أساليبها وتنوعت أدواتها ، حتى صارت فتكا للبشرية ، نحتاج إلى كاتب حربى ينبه إلى ما فى حروب النبى صلى الله عليه وسلم من عبر ، وما فيها من شجاعة وتقى ، وما فيها من عدالة وإيمان بالحق ، وما فيها من مهارة فى سياسة الحروب مع تصون كريم عما يخل باحترام الإنسانية حتى فى ميدان القتال ومع حقن دماء من لا يحملون سيفاً ، ولا رأى لهم فى قتال .

— ٦ —

ولقد سخر الله تعالى لهذا البحث الشاب التقى العقيد محمد فرج ، وهو من الذين تمرسوا بالحرب ، وخبروها ، وعركتهم وعركوها ، فإن تكلم فى حروب النبي صلى الله عليه وسلم فعن خبرة يتكلم ، وإن حكم عليها من حيث الفن الحربى فبمقاييس مضبوطة وبموازين محكمة ، وهو فوق ذلك الذى افتدى الحق بنفسه ، فعرف قيمة الفداء فى الحروب واشترك فى حرب فاجرة من الأعداء فعرف مقدار السماحة فى حرب النبي صلى الله عليه وسلم .

— ٧ —

ولقد عالج المؤلف التقى حروب النبي من الجهة العسكرية الفنية ، فبين أنه عليه السلام أدخل فى الحرب فنوناً لم تكن معروفة عند العرب ، ونظم جيوشه تنظيما حكيما يقوم على أسس محكمة من الخطط العسكرية التى لم تكن معروفة فى عصره .

ويتتبع غزواته عليه السلام غزوة غزوة ، مبيناً ما أدخله فى كل واحدة منها من تنظيم عسكرى ، لم يكن معروفا من قبل ، ويبين مبارزة المؤمنين لصناديد المشركين كمبارزة فارس الإسلام على بن أبى طالب لعمرو بن عبدود العامرى ، ومبارزته لمرحب قائد يهود خيبر وفارسهم ، وكيف كان علىٌّ يقاتل بالقوى وللحق ، وخصمه يقاتل للشهرة ولمجرد الفروسية ، وكيف كانت مبارزة ذلك الربانى التقى عزة لجيش الإسلام وإبقاء للرعب فى قلوب الأعداء .

ولقد بين بعد كل غزوة ما يستفاد منها ، وما تشتمل عليه من معان إنسانية سمحة ، وقد أوفى ذلك وقارب فيه الغاية ، وكان مسدداً موفقاً .

— ٨ —

ولقد كنا نود من الكاتب أن يوازن بين المعانى الإنسانية فى حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، والحروب الحاضرة الفاتكة الغاشمة التى تصيب البرىء أكثر مما تصيب الآثمين ، كما كنا نود أن يوازن لنا بين سماحة محمد عندما قال

لمن قاتلوه غاشمين « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وما فعله قواد الحروب الفاجرة فى عصرنا مع القواد المنهزمين الذين سموهم مجرمى الحرب ، كنا نود أن يوازن بين قتال النبي وأنه كان لا يمس إلا المقاتلين ، وحروب أهل العصر التى تنزل بالآمنين قبل المقاتلين ، وكنا نود أن يبين رفق النبي بالأسرى ويبين معاملة المعاصرين للأسرى ، وأن الحرب الحاضرة التى انتهت منذ أكثر من إحدى عشرة سنة ما زال أسراها يعانون الضيم وعذاب الهون ويسامون الخسف والبلاء ، وأن حالهم أشـــد من حال الرقيق وإن كانوا يتنادون بإلغاء الرق .

كنا نود بيان هذا وغيره ، ولـكن هذا لا ينقص من قدر الـكتاب فهو دراسة عميقة فاحصة ، ولا يخلو عمل البشر من نقص ، والـكمال لله وحده ؟.

محمد أبو زهرة

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله القوى القاهر ، وأصلى وأسلم على نبيه المنصور الظافر ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره ، ومن دعا بدعوته ، وجاهد على سنته وصبر على شريعته سلاماً مباركا طيباً إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد كتب لى فى عام ١٩٥٥ أن أزور الأراضى الحجازية حاجاً إلى بيت الله الكريم ، وزائراً قبر رسوله العظيم ، وفى رحاب الكعبة الشريفة التقيت بفئة من الباحثين فى شئون الدين ، وتحدث كل منا من زاويته الخاصة ، وكان حديثى من الزاوية العسكرية ، وطلب منى الكثيرون أن أعد كتاباً عسكرياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم — فقد كتب عن رسول الله كثير ولم يتناول أغلب الكتاب هذه الناحية من حياة الرسول بالبحث والتمحيص — ورسخت فى ذهنى فكرة الكتاب فتوجهت إلى الله القدير أسأله أن يغدق على من القوة والبركة ما يجعلنى أهلا لما تصديت له وعزمت عليه من عمل يحبه وجهد يرضاه ، وأخلصت فيما انتويت ، وأصفيت له عقلى واتخذته عبادة خالصة نقية لله تعالى يكفر بها عن سيئاتى ويمحو خطيئاتى .

وبدأت أقرأ كل كتاب من كتب الدين وأبحث كل كتاب من كتب السيرة وشهدت حجرة مكتبى خلال عامين سهراً طويلا متصلا بين المراجع والمصادر ، وصبراً نادراً بين الكتب والورق والقلم ، ومازلت أذكر زوجتى وقد وقفت بجانبى تخفف من حدة الجهد وتيسر سبل سهر الليالى وتدفعنى كما عودتنى إلى تحقيق الأمل بتجشم الصعاب .

وقبل أن ينتهى شهر رمضان من عام ١٣٧٦ (١٩٥٧) كنت قد انتهيت من إعداد (البروفات) الأولى ، وهأنذا اليوم أقدم كتابى بعد أن تم عمله واكتمل نموه ولبس ثوبه الأخير إلى قراء الأمم الإسلامية راجياً أن يكون قد حقق لنفسى ما أطمح إليه من غاية هى رضاء الله تعالى ورضاء رسوله الكريم ، آملا أن أكون قد وفقت فى إبراز ناحية خاصة من حياة الرسول الكريم ، أغفلها الكتاب والمؤرخون فى كتاباتهم أو مروا عليها مروراً عابراً فلم يقفوا عليها أو يشيروا إليها إلا بما تقتضيه الضرورة .

ولقد أحاطنى السيد أنور السادات ــ الذى ألقيت إليه مقاليد النهوض بالفكر الإسلامى فى عصرنا هذا المجيد ــ برعاية أحسد عليها ، وتفضل مشكوراً بعد أن اطلع على الكتاب ، بكتابة مقدمة أجدنى سعيداً بأن أتوج بها الكتاب كما تفضل أستاذى الجليل محمد أبو زهرة بتعريف القارىء بالكتاب ولقد أخذ علينا بعض المآخذ ، وأنا أطمئن فضيلته إلى أن مآخذه هذه هى موضوع كتاب جديد أرجو أن أوفق فيه بما يرضى فضيلته إن شاء الله .

والكتاب الآن بين يدى القراء . .

وأنا أرجو أن يكون فى صورة يرضى عنها المسلمون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وبما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم ، والذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، والذين يؤمنون بأن الكمال غاية الكمال لله وحده والله ولى التوفيق ؟

محمد فرج

الباب الأول

دراسة تمهيدية للحرب

- الحرب من وجهة نظر قريش
- لم يكن الرسول معتديًا
- الحرب فى القرآن
- عوامل القتال
- الحرب فى الأديان الأخرى
- أسلحة الحرب عند المسلمين
- توحيد جبهة المسلمين

الحرب من وجهة نظر قريش

خرج الرسول من مكة إلى المدينة ، بعد أن قضى بمكة ثلاث عشرة سنة . هاجر الرسول من موطنه عندما اشتدت قريش فى تعذيبه وتعذيب من اتبعه من المسلمين ، وما كانت قريش لتخفف من تعذيبها إلا إذا ترك هؤلاء جميعاً رسالة محمد وعادوا إلى دياناتهم الأولى ، فيعبدون الأوثان ويظلون على ما كانوا عليه من الفوضى والفسق والفجور .

ثلاث عشرة سنة حاربت فيها قريش محمداً حرباً لا هوادة فيها ، فقد رأت فى دينه الجديد خطراً عليها وعلى دينها . . وحاربت قريش هذه السنين الطويلة للقضاء على الدعوة الجديدة التى يحمل لواءها محمد بن عبد الله .. هددته وهددت أهله وأعمامه . . تهكمت به وبدعوته ، وسخرت منه وممن اتبعه . . أرسلت شعراءها تهجوه . . نالته بالأذى ونالت من اتبعه بالسوء والعذاب . . عرضت عليه الرشوة . . وعرضت عليه الملك . . وعرضت عليه كل ما يطمع فيه بشر . ولما رفضت عروضها ، شردت أنصاره عن أوطانهم وأصابتهم فى أموالهم وتجاراتهم وأرزاقهم ، وحاصرتهم لتقضى عليهم جوعاً . . وأخيراً قررت أن تقتل محمداً ، رأس الدعوة فتقتل بذلك الدعوة كلها .. وأوحى إلى محمد بالهجرة بعد أن ظل هذه السنين الطويلة متحملا أذى قريش صابراً على إساءاتها ، ثابتاً على مبدئه ورسالته ، مصمماً على أن يستمر فيها حتى يظهرها الله أو يهلك فيها .

ولقد صور وليم موير William Muir مدى ما تحمله محمد صلى الله عليه وسلم وقومه من تصرفات قريش فى قوله « احتمل المؤمنون العذاب بروح الصبر والسماح فمائة رجل وامرأة آثروا نبذ الوطن وراءهم ظهرياً ، وسعوا إلى معزل فى الحبشة ، فراراً من أن يفتنوا فى دينهم العزيز عليهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فإما أن يعفى الزمان على العاصفة فيخمدها ، وإما أن

يستنفذ معينها فتبيد ، وهاهم أولاء الآن فى عدد أكبر بكثير وفيهم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يخرجون من مدينتهم الوالهين بها ، المتفانين فى تقدير هيكلها المقدس ، أقدس ما على الأرض فى عرفهم ، فراراً بدينهم إلى المدينة . . »

ترى ما الدوافع التى دفعت بقريش فى طريق الرسول فهاجمته وعارضته وحاولت تقويض دعوته وهدم رسالته ؟ ولماذا وقفت منه هذا الموقف . . ؟؟ يحصر المؤرخون هذه الدوافع فى الآتى :

١ – أنزل القرآن ليكون هادياً ومرشداً للعرب ، وهؤلاء كانوا قد ظلوا فترة طويلة غارقين فى الشرك ، منغمسين فى عبادة الأوثان والأصنام ، عاكفين على شرب الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من العادات القبيحة ، فلما أعلن الرسول (ص) منذ البداية ، أن رسالته تتجه إلى هداية النـاس نحو الطريق القويم والصراط المستقيم ، وتطهيرهم من العادات الذميمة ، وعلاجهم من سوءاتهم وإنقاذ نفوسهم من الضغينة والحقد والحسد ، هبت البلاد كلها فى وجهه ووقف أعداؤه يقاومونه كل المقاومة ، إذ لم يكن ما جاء القرآن سهل القبول لدى أولئك القوم الذين عرفوا بالعناد وشدة المراس .

٢ – دعا الإسلام – دين محمد الجديد – إلى المساواة فلا فرق بين الناس.. لافرق بين هذا وذاك . . . لافرق بين عبد وسيد . . . الـكل سواسية كأسنان المشط لا يفرق بينهم إلا الصلاح .. صلاح النفس وتقواها ومدى تقربها من الله وتنفيذها لتعاليمه واتباعها لرسالة رسوله . لقد كان المبدأ الجديد الذى ينادى به الدين الجديد هو « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] . . وهذا مبدأ خطير فى الجزيرة العربية وفى الوسط العربى الذى لمعت فيه أسياد قريش ورؤساء القبائل وكان فيه عبيد ، وكان فيه رق ، أى كان هناك سادة وكان هناك عبيد ، والدين الجديد يلغى هاتين الطبقتين ويدمجهما معاً ويجعلهما طبقة واحدة ، بل وأكثر من ذلك فهو يعطى الفرصة لأى من العبيد ليسود إذا كان صالحاً

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

حليماً كريماً تقياً ورعاً . يعبد الله ويؤدى الأمانات إلى أهلها ويؤمن بالقرآن دستور الإسلام ، ويعمل على تنفيذ تعاليمه بدقة .

وكيف يرضى أبو سفيان وأبو جهل وغيرهما من سادة قريش أن يتنازلوا عن مكانتهم وعن مركزهم لبعض عبيدهم ؟ وكيف يسمحان لأنفسهما ولغيرهما أن يجمعهما وعبيدهم مكان واحد ؟

إذن فالحرص على النظام القديم جعل سادة قريش يقررون أن يبقوا على دينهم ودين آبائهم .

٣ — تحدث كثيرون عن نبي جديد يظهر بين العرب ويقوم فيهم ، وطمع كثيرون فى النبوة حتى أن بعض العرب عندما علموا أن النبي المنتظر اسمه محمد، أطلقوا هذا الاسم على أبناء لهم ، أملا فى أن يكون كل منهم النبي المنتظر ، فهاهو ذا أمية بن أبى الصلت كان يريد لنفسه أن يكون النبي الجديد ، وحينما لم ينزل عليه الوحى أكلت الغيرة قلبه ، ولم يرض أن يتابع الرسول فى دعوته ظناً منه أن الرسول منافسه برغم كونه شاعراً ، تغلب الحكمة على شعره ، حتى إن الرسول الكريم عندما استمع إلى شعره قال « أمية آمن شعره وكفر قلبه » .

وها هو ذا رجل آخر هو الوليد بن المغيرة يقول : « أينزَّلُ على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ؟ » ، وفى هـــذا يقول الله تعالى :

« وقالوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا القُرآن عَلَى رَجلٍ مِنَ القَرْيَتيْنِ عَظيمٍ أَهُمْ يَقْسِمونَ رَحْمَةَ ربِّكَ نحْنُ قَسَمْنا بَيْنهمْ مَعيشَتَهمْ فِى الحَياةِ الدُّنيا[1] »

وذهب الأخنس إلى أبى جهل فى بيته وسأله :

— يا أبا الحكم ، مارأيك فيما سمعنا من محمد ؟

---

(١) سورة الزخرف ٣١ .

فكان جواب أبي جهل :

ــ ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا ، منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

إذن فالغيرة والحسد والتنافس كانت من أول العوامل التي دعت إلى رفض دعوة محمد ومحاربتها ومحاولة القضاء عليها ، ومما لا سبيل إلى إنكاره أن هذه الصفات المذمومة كانت تجد لها رعياً طيباً فى بلاد العرب وقت الجاهلية ، وكان التخلص منها يحتاج إلى تهذيب طويل الأجل يصقل الأفئدة ، ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ، ويسمو بالعاطفة والروح إلى مكانة تجعل المرء يرى الحقيقة على لسان خصمه وعدوه كما يراها على لسان صديقه ووليه .

٤ ــ وعامل رابع هام فإن العرب فى جاهليتهم كانوا قوماً مكبين على اللهو مسرفين فيه ، اتخذوا من الربا وسيلة للثراء ، وانعدمت عندهم القيم الأخلاقية ويقظة الضمير ، فهم لا يترددون فى الإتيان بأسوأ الأعمال وأحط التصرفات ، كأن يقتل أحدهم وينهب ويسرق ويرتكب الفحشاء ويأتى بالموبقات ، وكان مما يدفعهم إلى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن زيارة إلى أصنامهم وضرب القداح عندها من شأنه أن يكفر عن سيئاتهم وذنوبهم ، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم يعلن عليهم فى آياته ما تنخلع من هوله قلوبهم وتضطرب أفئدتهم . . لقد أعلن عليهم أن الله بالمرصاد وأنه تعالى يمهل الظالم ولا يهمله ، وأن أعمال الناس هى الشفيع لهم يوم يبعثون . . إذن فهم قد عرفوا أن هناك حساباً فى دين محمد . . حساباً عسيراً وليس أمامهم من سبيل إزاء هذا الحساب إلا أن يتنازلوا عن عاداتهم القبيحة وأعمالهم الهمجية ، وأن يتركوا أمر الجاهلية وأن يبدءوا عهداً جديداً . . وهذا أمر مستغرب بالنسبة لهم ، إذ كيف يتنازلون عن عاداتهم وما نشئوا عليه ، لقد فزعت قلوبهم وهم يستمعون إلى الرسول الكريم يردد عليهم يوم الحساب ويقدم لهم صورة لما سيحدث فى هذا اليوم الجليل الخطير ..

« فإذا جاءت الصَّاخَّةُ . يومَ يفرُّ المرءُ مِنْ أخيهِ . وأمِّهِ وأَبيهِ . وصاحِبتهِ وبنيهِ . لِكلِّ امرِئٍ مِنهمْ يومَئذٍ شأنٌ يُغنيهِ . وجُوهٌ يومَئذٍ مُسفِرةٌ . ضاحِكةٌ مُستبشرَةٌ . وَوجوهٌ يومَئذٍ عليها غبرَةٌ تَرْهَقُها قترَةٌ . أُولئكَ هُمُ الكفرةُ الفَجَرة »[١] .. « يومَ تكونُ السماءُ كالمُهْلِ وتكونُ الجبالُ كالعِهنِ ، وَلا يَسْأَلُ حَميمٌ حَميما . يُبَصَّرُونَهمْ يودُّ المجْرِمُ لَو يَفتَدِي مِنْ عَذابِ يومَئذٍ بِبنيهِ . وَصاحِبتهِ وَأَخيهِ وَفصيلَتهِ الَّتِي تُؤْويهِ . ومَنْ فِي الأرْضِ جَميعاً ثُمَّ يُنجِيهِ . كلَّا إنَّها لَظَى . نَزَّاعةً لِلشَّوى . تدعُو منْ أدبرَ وَتولَّى . وَجمعَ فأَوعَى[٢] » ...« وأَما منْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فيقولُ ياليتنِي لمْ أُوتَ كِتابِيهْ وَلَمْ أدرِ ما حِسابِيهْ ياليَتْها كانتِ القاضِيه . مَا أَغْنَى عَنِّي مالِيهْ . هلَكَ عَنِّي سُلطانِيهْ خذُوهُ فغلُّوه ثُمَّ الجحيمَ صلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلسلَةٍ ذَرعُها سَبعُونَ ذِراعاً فَاسْلكُوهُ إنَّهُ كانَ لَا يؤْمِنُ باللهِ العَظيمِ . ولَا يَحضُّ عَلَى طَعامِ المِسكينِ . فليْسَ له اليومَ هاهُنا حَميمٌ وَلَا طَعامٌ إلَّا منْ غِسلينٍ . لَا يأْكلهُ إلَّا الخاطِئونَ »[٣] .. « وأما منْ خفتْ مَوازِينُه فأُمُّهُ هاوِيةٌ . وَما أدْراكَ مَاهِيهْ . نارٌ حامِيةٌ »[٤] .

---

(١) سورة عبس ٣٣/٤٢
(٢) سورة المعارج ٨/١٨
(٣) سورة الحاقة ٢٥/٣٧
(٤) سورة القارعة ٨/١١

هذه الآيات[1] وغيرها دفعت بالذعر إلى نفوسهم ، فخافوا وأدى خوفهم إلى زيادة حماستهم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ومناوأته والتأليب عليه . . . فهم لا يعرفون البعث ، ولا يؤمنون به ، وهم لا يعرفون أن عملهم فى الحياة محسوب عليهم بعد وفاتهم ، ولم يَدُر فى خواطرهم البعث والنشور يوم ينفخ فى الصور ، ولم يقفز إلى أذهانهم الجزاء بعد الموت ، ولم يدركوا شيئا عن الجنة التى أعدت للمتقين وجهنم التى أعدت للكافرين – أى لهم – والتى صورت لهم فى قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ[2] » .

لم يكن الرسول معتديا

هذه هى بعض الأسباب التى دفعت بقريش إلى أن تحارب محمداً صلى الله عليه وسلم وأن تعمل على هدم دعوته ، ومن هنا بدأت قريش الهجوم . . هجوماً مختلفة أساليبه ووسائله ، وصبر محمد ثلاث عشرة سنة ، وكان صبره وسيلة من وسائل نشر دعوته ، وسبيلا طيباً لتحقيق رسالته ، إلا أن الأمر تطور تطوراً سريعا ، فقد رأت قريش فى بقاء محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة بعد هجرته إليها خطراً كبيراً عليها . . . هناك يزيد أعوانه وتقوى شوكته ويدعم دينه ، لهذا قررت أن تتخذ وسيلة أكثر عنفاً وأشد قسوة علها تستطيع بها أن تقضى عليه ، ولم تكن هذه الوسيلة سوى الحرب ، ووجد محمد صلى الله عليه وسلم نفسه أمام أعدائه وجهاً لوجه ، ولم يجد مفراً من أن يسير فى ذات الطريق الذى أوجده أعداؤه فيه ، وكم كان عازفاً عن أن يسلك طريق الحرب ، وكم كان راغباً كل الرغبة فى أن يبتعد عن الحرب كوسيلة لنشر دعوته ، فدينه دين سلام ودعوته دعوة إلى السلام ، ولهذا كانت حروب النبى كلها حروب دفاع ولم

---

(١) وصف جنسون Gohnsun القرآن بقوله « هو صيحة نبوية تسمو إلى شغاف القلب ، له من المعانى ما يناسب الجميع ويصلح لكل زمان حتى أنست إليه وتعالت به جميع الأصوات فى مختلف العصور وكان له صداه فى القلوب المختارة فدفعها إلى الغلبة والنصر فى الدنيا » .

(٢) سورة ق ٣٠ .

تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروب الرسول صلى الله عليه وسلم مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم .

وبرغم أن الرسول كان يجتنب العدوان فإنه كان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وهو لم يتجنب الهجوم لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده . ولكنه اجتنبه لأنه كان يرى فى الحرب ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها وكان يتجنبها كلما تيسرت له الحيلة الناجحة .

وثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن النبي لم يكن معتديا ، وواقع الأمر أن الإذن بالقتال نزل على النبي بعد أن أعلنت عليه الحرب بالفعل ويوضح القرآن ذلك : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[1] » .

وحتى بعد أن جاء الإذن بالقتال أنبىء النبي بأن قتاله هو للدفاع فقط « وَلَا تَعْتَدُوا[2] » .

إذن فالحرب فرضت على النبي وهو نافر منها ، ولهذا بذل أقصى ما فى وسعه من جهد للحد من فظائعها ولحصرها فى أضيق نطاق مستطاع ، وأعطيت الأوامر المشددة الصارمة بأنه لا يجوز بأية حال قتل غير المحاربين فى الميدان ، حتى أنه لما وصل إلى مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم وعلمه أن امرأة وجدت بين القتلى فى إحدى المعارك أمر بل حرم قتل النساء والأطفال وقال : « لم تكن محاربة[3] » .

ولقد اتفق أكثر المؤرخين على أن سيدنا محمداً لم يكن له غرض للحرب أو رغبة فى القتال ، بل كانت أمنيته أن يؤدى رسالته كما أمره الله تعالى فى يسر

---

(١) الحج ٣٩ .
(٢) البقرة ١٩٠ .
(٣) راجع البخارى .

وهدوء ، واتفق أيضاً أكثر المؤرخين على أنه لم يكن يفكر في ملك أو مال أو تجارة ، وإنما كان همه الأكبر وقاية نفسه ورجاله وتوفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم . . كان يرى أن يبقى كل على دينه وأن تكفل للجميع حرية الرأى وحرية الدعوة إلى هذا الدين ، وهذه الحرية كما كان يرى صلوات الله عليه هى الكفيلة بانتصار الحق ، وبتقدم العالم نحو الكمال فى وحدته العليا ، وهذه الفكرة الجليلة هى التى جعلته عليه الصلاة والسلام يجنح للسلم ، راغباً عن القتال ، عازفاً عنه ، غير لاجىء إليه فى جميع الأدوار التى مرت بها دعوته إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية دفاعاً عن الدين وعن العقيدة ، والدليل على ذلك أنه رفض ما عرضه عليه أهل يثرب فى قولهم « والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا » .

ولكن ماحيلة محمد (ص) وقد دفعته قريش دفعاً إلى الحرب . . . لقد قبل أن يتخذ الحرب كوسيلة لحماية نفسه ودينه ودعوته ، على أن تراعى فيها الحرمات الإنسانية ، وفى هذا كله تهذيب لفكرة الحرب[1] فقد كانت الحرب التى خاضها النبي قهراً رحمة فى بدايتها لأن خوضها كان ضرورياً للدفاع عن النفس ، وكان لا مفر من إنقاذ قومه من معتد أثيم لا هم له إلا القضاء

---

(١) لو أننا تابعنا أسباب الحروب التى قامت بعد الإسلام حتى يومنا هذا لأخجلتنا أسباب تلك الحروب والدوافع التى دعت إلى اشتعال نارها مما يؤكد الفرق الشاسع الكبير بين أغراض الحروب التى خاضها النبي وأغراض الحروب التى أثيرت بعد عهده عليه الصلاة والسلام . . . ان الجنرال جرانت Grant أحد قادة الولايات المتحدة يوضح أسباب الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك (١٨٤٥/١٨٤٨) فى وصفه لهذه الحرب بأنها احدى الحروب غير العادلة التى تثيرها دولة قوية ضد أخرى ضعيفة أى أن دولة وجدت فى نفسها القوة والقدرة على هضم حقوق الدول الصغيرة لجرتها الى حرب شعواء اصطلى الجميع بنارها وشرورها . . . وكذلك كان الحال بالنسبة لروسيا فإن أطماعها ومحاولاتها التوسع والاستعمار كانت الأساس أيضاً فى قيام حرب القرم ١٨٥٤ـ١٨٥٦ كما كانت الأساس أيضاً فى قيام الحرب الروسية التركية ١٨٧٧/١٨٧٨ والحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ وبرغم اختلاف الكتاب فى تحديد مسئولية الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ فإن أسباب إثارتها ترجع قبل كل شىء إلى رغبة الجنس الالمانى فى التوسع ولقد قال أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية إن هذه الحرب قد تسببت عن امتلاك انجلترا لبقاع من الكرة الأرضية وحاجة ألمانيا لهذه البقاع والممتلكات .

عليهم ، كما كانت رحمة فى نهايتها إذ أنها كانت لا مفر لها من التوقف عندما التمس المعتدون الصلح إذ كان الهدف الأساسى هو سلامة المعتدى عليهم لا استئصال المعتدى .

وكانت الحرب رحمة كذلك لغير المحاربين الذين هم فى الحروب الحديثة أكبر فريسة لمآسى الحرب وويلاتها من دون المقاتلين[1] « لا تصيبوا غير أولى الضرر من أصحاب الخلوة البيتية ، وأبقوا على النساء الضعيفات ولا تؤذوا رضيعا ولا الذين ألزمهم المرض الفراش ، كفوا عن تخريب مساكن الذين لا يبدون مقاومة ولا تتلفوا مرافق معايشهم ولا تقضوا على مالهم من أشجار الفاكهة ولا تقربوا النخيل بأذى »[2] .

الحرب فى القرآن

والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

---

(١) لذا الرسول كان يصدر فى خلال الحرب أوامره الصريحة إلى جنده وقادته بعدم التعرض لغير المحاربين من الأعداء رغبة منه فى الارتقاء بفكرة الحرب والابتعاد قدر الاستطاعة عن شرورها وآثامها ولهذا منع التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان وحرم إتلاف الأموال والإحراق بالنار والتمثيل بالقتلى . . . وهذه صورة رائعة كاملة جليلة للحرب عند الرسول . . . ونحن لذا اتجهنا بنظرنا إلى الحروب التى قامت بعد الإسلام نجد هذه المبادىء الخالدة قد اختفت وضاعت وسط المعارك . . . فإن ضرب المدنيين البعيدين عن مواطن الضرب وميادين الحرب هو أول مايهدف إليه العدو ويعلل ذلك بأنه يرمى إلى إضعاف القوى الشعبية التى تقف وراء الجيش . . . ولقد سمعنا خلال الحروب الكثيرة التى زخر بها تاريخ العالم فى العصور الأخيرة عن ضرب المستشفيات ودور النقاهة وضرب المدن والتعدى على المدنيين الأبرياء الذين لا ذنب لهم ولا يحملون سلاحا ولا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا ونحن لا نستطيع ، ولا يستطيع معنا التاريخ أن ننسى ضرب الخونة الانجليز والفرنسيين للآمنين الوادعين المكافحين الصابرين فى بور سعيد خلال اعتدائهم الوحشى الغادر على أراضينا فى نوفمبر ١٩٥٦ .

(٢) روح الإسلام للأستاذ أمير على .

الإسلام حياة جامعة لا تقاس بزمان ولا تحد بمكان .

والإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها جميعاً .

والإسلام دين الحق والحرية والقوة والنظام .

وطبيعة القتال والنزعة الحربية فى فطرة الناس ومن غرائزهم ، والحرب من أسباب قيام الحضارات وتركيزها والمحافظة عليها « ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهمْ ببعضٍ لفسدتِ الأرض » . فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق حدودها وأسلم طرائقها وتحديد أهدافها وتوضيحها هى غاية ما تتحمل الفطرة البشرية ، وقد نظم الإسلام هذه النزعة أسمى تنظيم ووجهها أسلم وجهة وأنزلها فى المنزلة التى خلقت من أجلها .

والإسلام دستوره القرآن .

والقرآن تناول فى كثير من آياته القتال من جميع نواحيه . . عرض للأسباب الباعثة عليه وللغاية التى ينتهى عندها وعرض لما يجب على المسلمين من الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ووضح الكثير من قواعده وأحكامه .

أخذ القرآن على عاتقه تحريك العواطف عند المسلمين جميعاً ناحية القتال فأوضح لهم أنه قتال فى سبيل الله الذى يضاعف ثواب العاملين وأجر المجاهدين وأظهر لهم أنه قتال فى سبيل إنقاذ الضعفاء والبر بالإنسان ومقاومة الطغيان ودحض عوامل الشر والفساد :

« فليُقاتِلْ فِى سَبيلِ اللهِ الذينَ يَشرُونَ الحياةَ الدُّنْيا بِالآخِرةِ وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سبيلِ اللهِ فيُقتَلْ أو يَغلِبْ فسوفَ نُؤْتِيهِ أجراً عَظِيماً . وما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سبيلِ اللهِ وَالمُستَضعَفينَ مِنْ الرجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الذينَ يقولُونَ رَبَّنا أخرجنا مِنْ هذهِ القَريةِ الظَّالِمِ أهلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجعَلْ لَنّا مِنْ لَدُنْكَ نَصيراً [1] » .

---

(١) سورة النساء ٧٤/٧٥

ولقد أوضح القرآن أجر المقاتلين فى سبيل الله بالنفس والمال ، وذكر أنه لا يقف عند حد ولا يدركه إلا عالم الغيب والشهادة :

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم »[1] . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »[2] .

ولقد أمر القرآن بالجهاد وطلب من المسلمين التضحية فى سبيل الله بكل عزيز ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا التجارة ولا المساكن يصح أن تحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد :

« قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها

---

(١) سورة التوبة ١٩/٢٢

(٢) سورة التوبة ١١١

أَحَبَّ إِلَيكُم مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وجِهَادٍ فى سبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لا يَهْدي القَومَ الفَاسِقِين »[1] .

إن القرآن وهو دستور الإسلام يؤيد القتال دفاعاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة ، ولكنه مع هذا ينكر حرب الاعتداء :

« وقَاتِلُوا فِى سبيلِ اللهِ الذينَ يُقَاتِلُونَكُم ولا تعتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ . واقْتلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم وَأَخرِجُوهُم مِنْ حَيثُ أخرجُوكم والفِتنَةُ أَشَدُّ مِنْ القَتلِ »[2] .

ولقد أقام المسلمون فى مكة أعواما يسامون سوء العذاب ويصادرون فى حريتهم الدينية ويضطهدون فى عقيدتهم ويفتنون فى أموالهم وأنفسهم حتى أكرهوا على الهجرة ، وكم تجاوبت فى نفوسهم فكرة رد الظلم ودفع العدوان والانتقام من المعتدين ، إلا أن الرسول كان يدعوهم إلى الصبر بحجة أنه لم يتلق أمراً بالقتال وكان يدعوهم إلى الصبر وكان يقول « أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

واستمر حالهم هكذا حتى نزل قوله تعالى :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِموا وإِن اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ . الذينَ أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إلَّا أنْ يَقُولوا رَبُّنا اللهُ »[3] .

« فَقَاتِلْ فى سبيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إلَّا نَفسَكَ وحَرِّض المؤمِنِينَ

(١) سورة التوبة ٢٤
(٢) سورة البقرة ١٩٠/١٩١
(٣) سورة الحج ٣٩

عَسَى اللهُ أنْ يَكُفَّ بَأسَ الَّذِينَ كَفَروا واللهُ أشَدُّ بَأساً وأشَدُّ تَنكِيلا »(١)

ولقد كان وقع فتنة المؤمنين عن دينهم أكبر عند الله ، وكانت الغاية الأولى التى شرع القرآن من أجلها القتال ، والحجة على ذلك ما نزل من الآيات الكريمة فى سرية عبد الله بن جحش الأسدى حينما اثارت قريش القبائل ضد قوة محمد هذه بحجة أنها استحلت الشهر الحرام وسفكت فيه الدماء :

« يَسألونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وصَدٌّ عَنْ سبيلِ اللهِ وكُفْرٌ بِهِ والمسجِدِ الحَرَامِ وإخْرَاجُ أهلِهِ مِنهُ أكْبَرُ عندَ اللهِ والفِتنَةُ أكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ولا يَزالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إنِ استَطَاعُوا »(٢) .

ومعنى هذا أن الدفاع فى سبيل الله والصد عن الكفر به أكبر من القتال فى الشهر الحرام والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، والقتل فيه وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل فى الشهر الحرام .

وحق طبيعى بل واجب إلزامى على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو صده عن سبيل الله أن يقاتل فى سبيل الله حتى لا يفتن وحتى ينصر دين الله .

والقرآن يبعث فى نفوس المجاهدين القوة والشجاعة ويحثهم على الإقدام والثبات ويصور لهم مساعدة الله لهم وعدم تخليه عنهم :

« إذْ تقول لِلمُؤمِنِينَ ألَنْ يَكفِيَكُمْ أنْ يُمِدَّكم ربُّكم

(١) سورة النساء ٨٤
(٢) سورة النساء ٢١٧

بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم[1] » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[2] .

ولقد أثار كثير من الكتاب كما أثار خصوم الإسلام فى كل عصر موضوع الحرب إثارة خاطئة لا عدل فيها ولا إنصاف ، لقد تجنوا على الرسول واتهموه ظلماً أنه دفع الناس إلى دينه تحت وسائل التهديد ، أى أنه أكره الناس بالسيف لينضموا إلى دعوته ، وما يثيره الكتاب فى هذا الخصوص هو اتهام باطل لا أساس له ، فالنبي كما أوضحنا لم يكن معتدياً ولم يكره الناس على الإيمان بالسيف ، ولم يضعه على رقابهم ليشهدوا بشهادته أو يدينوا بعقيدته ودستور الإسلام ينص فى صراحة :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[3] « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥/١٢٦ .
(٢) سورة آل عمران ١٣٩/١٤٢ .
(٣) سورة البقرة ٢٥٦ .

أحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وإنْ يَسْتَغيثوا يُغاثُوا بماءٍ كالمُهلِ يَشْوِي الوُجوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مرْتفقاً . »[1]

« وإنْ أَحدٌ منَ المُشرِكينَ استَجارَكَ فأجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ثُمَّ أبلِغهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمونَ »[2]

وهذا الاتهام من جانب الكتاب والخصوم باطل من وجوه ثلاثة :

١ – باطل بشهادة التاريخ الذى يحدثنا بأن النبي مكث فى مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى دينه وكان مضطهداً خلال تلك الفترة أشد الاضطهاد ، حتى من أهله وعشيرته وأقرب الناس إليه ، ومع ذلك احتمل وصابر وصبر وكان يمر على رجاله وأصحابه وهم يعذبون فلا يزيد عن أن يقول لهم « اصبروا آل ياسر إن موعدكم الجنة . . ومع هذا آمن بالإسلام السابقون الأولون كما آمن الأنصار وهم أهل المدينة ، حينما حدثهم الرسول بشأن دعوته خلال ترددهم على مكة فى كل عام . . وثابت من التاريخ أن الأمر بالقتال والإذن به لم يصدرا إلا فى السنة الثانية من الهجرة .

٢ – باطل بشهادة القرآن وهو دستور الإسلام وقد ذكرنا فى مستهل حديثنا عن هذا الاتهام الآيات الكريمة التى وردت فى القرآن تقرر حرية العقيدة وتلزم المؤمنين إن استجار بهم أحد المشركين أن يبلغوه الدعوة وأن يوضحوا له مقاصد الإسلام ثم يحرسوه حتى يصل إلى مأمنه ويتركوه ليسلم عن رغبة واقتناع لا عن خوف أو رهبة أو إكراه .

٣ – باطل بشهادة الإسلام نفسه فأساس التصديق بالإسلام العقل والفكر والنظر والاطمئنان القلبي والحرية كما جاء فى سورة الحجرات الآية ١٤ « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان

(١) سورة الكهف ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ٦ .

فى قلوبكم ، وهذه الأسس لا يمكن أن تتجاوب مع الإكراه والخوف والاستجابة لدعوة يرهبها السيف .

وفى قصة إسلام عمر خير دليل على أن الرسول لم يدفع الناس إلى دينه تحت وسائل التهديد ... فهاهو ذا عمر قد خرج متوشحاً بسيفه يريد رسول الله وقابله نعيم بن عبد الله وسأله أين هو ذاهب فقال له « أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله » . . . عمر هذا يذهب إلى بيت أخته ويأخذ المصحف ويتلو فيه سورة طه ثم يقول « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » ثم يخرج باحثا عن محمد لا ليقتله فى هذه المرة ، وإنما ليعلن دخوله الإسلام « يارسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله » .

وواضح من قصة إسلام عمر أنه خرج بالسيف ليقتل محمداً ولم يخرج واحد من المسلمين عليه ليقتله وأنه أسلم نتيجة اقتناعه بأن ما يدعو إليه محمد هو دين الحق ، وهذا الاقتناع بعيد كل البعد عن الإكراه .

وبماذا ياترى نفسر هذه الكتب التى وجهها الرسول الكريم إلى الملوك فى عهده يطلب منهم فيها دخول الإسلام ؟ .

وبماذا يا ترى نفسر دعوة الرسول لهؤلاء الملوك إلى الاعتراف بالدين الجديد ؟

هل فى هذه الكتب دليل على الحرب ؟

وهل فى هذه الدعوات دليل على العنف ؟

وهل يدلنا ذلك على أن الرسول كان يدعو بالسيف أم بالحكمة والتفاهم والإقناع ؟

ماذا نقول فى كتاب الرسول إلى كسرى ملك الفرس « إنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس . »

وماذا نقول فى كتاب الرسول إلى قيصر ملك الروم « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين [1] عليك . »

وماذا نقول فى كتاب الرسول إلى المقوقس والى مصر وهو ذات الكتاب الذى بعث به إلى هرقل [2] بعد أن غير كلمة الأكارين فوضع بدلها كلمة القبط .

وماذا نقول فى كتاب الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة « إنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله » .

---

(١) الفلاحين .

(٢) لما أرسل الرسول (ص) كتاب الدعوة إلى هرقل عظيم الروم دعا هرقل أباسفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبها ودار بينهما الحديث التالى ·

هرقل — كيف نسبه فيكم ؟
أبو سفيان — هو فينا ذو نسب
— هل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟
— لا
— هل كان من آبائه من ملك ؟
— لا
— فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟
— بل ضعفاؤهم ؟
— أيزيدون أم ينقصون ؟
— بل يزيدون
— فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟
— لا
— فهل كنتم تتهمونه بالكذب
— لا
— فهل يغدر ؟
— لا
— ماذا يأمركم ؟
— يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة (البخارى)

والرسول كان يدعو إلى الإسلام لا من أجل سيادة فئة على فئة ، ولا طمعاً فى ملك أو إمارة ، وإنما كان يدعو إلى الإسلام بقصد الدعوة إلى توحيد الله وإلى الحكم بالعدل بين الناس ، وهما غايتان من أشرف الغايات ، وقد حدد الإسلام الهدف الأول فى قوله تعالى :

«قُلْ ياأهلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلَى كِلمَةٍ سواءٍ بيْننا وبيْنَكُمْ ألَّا نَعْبدَ إلَّا اللهَ ولَا نُشركَ بِهِ شَيئاً ولَا يَتَّخِذَ بَعضُنَا بعضاً أرْباباً مِنْ دون اللهِ فإنْ تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهدوا بِأنَّا مسلمونَ »[١].

وحدد الهدف الثانى فى قوله :

« إنَّ اللهَ يَأمرُكُم أنْ تُؤَدُّوا الأمانات إلَى أهْلها وإذا حَكَمْتُمْ بينَ النَّاسِ أنْ تَحْكُموا بِالعَدْلِ إنَّ اللهَ نِعمَّا يعِظُكمْ بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَميعاً بَصِيراً »[٢].

والإسلام يدعو إلى هذا كله بالسلم لا بالحرب كما قال تعالى :

« ادْعُ إلَى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمةِ والموعظَةِ الحسنَةِ وجادِلْهمْ بالَّتى هِيَ أحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هوَ أعْلم بِمَنْ ضَلَّ عنْ سَبيلِهِ وهوَ أعْلَم بِالْمُهتَدِين »[٣].

إذن فرسالة الإسلام لا تهدف كما هو واضح من دستوره إلى الحرب من أجل نشر تعاليمه ومبادئه ، كما أن الإسلام لم يكن فى حاجة إلى كسب الأنصار

(١) آل عمران ٦٤ .
(٢) سورة النساء ٥٨ .
(٣) سورة النحل ١٢٥ .

بالقوة والعنف ، وإنما أعداؤه هم الذين أرادوا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم بالقوة :

«ولا يزالونَ يقاتلونكمْ حتَّى يردُّوكمْ عنْ دينِكمْ إنِ استطاعوا»[1]

يتضح لنا إذن من القرآن الكريم وهو دستور الإسلام :

١ - أنه لا توجد فيه آية تدل او تشير إلى أن القتال شرع لحمل الناس على اعتناقه .

٢ - أن سبب القتال هو رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين .

٣ - أنه حيثما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع وابتغاه طريقاً إلى السلم والاطمئنان .

٤ - أن الإسلام فرض الجزية على من يبقى على دينه وما الجزية أصلا إلا دليل على الخضوع وكف الأذى والمشاركة فى تحمل أعباء الدولة .

ولقد حددت الأغراض الأساسية للحرب فى الإسلام على الأسس الآتية :

١ - رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال و لوطن والدين . . روى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة عن سعد بن زيد رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وروى البخارى والترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد » .

واشترط الإسلام أن يكون الدفاع ورد العدوان على قدر ما حصل من الاعتداء فلا يصح أن يجاوز حده ، بل يجب أن يكون بمثل ما حصل من الاعتداء به :

---

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

« الشَّهرُ الحرامُ بالشَّهرِ الحرامِ والحرماتُ قِصَاصٌ فَمَن اعْتدى عَليكُمْ فاعْتدوا عَليهِ بِمثلِ ما اعْتدى عَليكُمْ واتَّقوا اللهَ واعْلَموا أن اللهَ معَ المُتَّقينَ »[1]

٢ ـ تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم .

« وَقاتلُوهمْ حتَّى لَا تكونَ فِتنةٌ ويكونَ الدِّين لِلهِ فإنِ انتهوْا فَلَا عدوانَ إلَّا على الظالِمينَ »[2] .

٣ ـ حماية الدعوة حتى تبلغ الناس جميعاً ويتحدد موقفهم منها ، ذلك أن الإسلام رسالة اجتماعية إصلاحية شاملة تنطوى على أفضل مبادىء الحق والخير والعدل . . . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » .

٤ ـ تأديب ناكثى العهد من المعاهدين :

« وإنْ نَكَثوا أَيْمانَهمْ منْ بعدِ عَهدِهمْ وطعنُوا فى دِينكمْ فقاتلُوا أَئمَّةَ الكفرِ إنَّهمْ لا أيمانَ لَهمْ لعلَّهمْ ينتهونَ . أَلَا تُقاتلُونَ قَوْماً نكثوا أَيْمانَهمْ وهَمُّوا بِإخْرَاجِ الرسولِ وهُمْ بدءُوكمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[3] .

---

(١) سورة البقرة ١٩٤
(٢) سورة البقرة ١٩٣
(٣) سورة التوبة ١٢

٥ إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين .

والذين آمَنُوا ولَمْ يُهاَجِروا مَالـكُمْ مِنْ وَلَا يَتِهِمْ مِنْ شَىءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وإنِ استَنْصَرُوكم فى الدِّين فَعَليـكُمُ النَّصرُ إلَّا عَلَى قَومٍ بَينكم وبَينهُمْ مِيثاقٌ واللهُ بِما تَعملَونَ بَصيرُ . »(١)

٦ ـ الكف عن القتال إذا كف عنه الأعداء فيحرم المضى فى الحرب بعد طلب الصلح :

« وقاتِلوهُمْ حتَّى لا تَـكونَ فِتنةٌ وَيكونَ الدينُ لِلهِ فإنِ انتَهوا فَلا عُدوانَ إلَّا عَلَى الظَّالِمينَ »(٢) .

وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجنَح لَها وَتَوَكَّل عَلَى اللهِ إنهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ . »(٣)

٧ ـ قصر الحرب على الجيش المحارب فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان ... وروى أبو داود أن الرسول قال : « لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صغيراً ولا امرأة » ، وروى أيضاً أن الرسول قال « لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » .

٨ ـ تحريم التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار . روى أبو هريرة أن النبى قال « إنى كنت أمرتـكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً وأن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما » .

٩ ـ تحريم إتلاف الأموال ... وروى ابن عمر أن النبى حرق نخل بنى النضير فى أثناء حصاره لهم بقصد حملهم على التسليم فلما رأوا ذلك قالوا له

(١) سورة الأنفال ٧٢
(٢) سورة البقرة ١٩٣
(٣) سورة الأنفال ٦١

« إنك تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال قطع الأشجار وتحريقها ؟ » فكف عن التحريق ونهى عن التخريب فى بلاد العدو .

١٠ — تحريم تجويع الأعداء بمنع الميرة عنهم ... روى أن ثمامة بن أثال منع الميرة عن قريش فأخذهم الجوع حتى أكلوا الجلود والجيف ، فذهب أبو سفيان إلى النبي وشكاه إليه فأمر الرسول ثمامة أن يرسل الميرة لهم .

١١ — الإحسان إلى الأسير وقد مدح الله من يطعم الأسير فى قوله .

« وَيُطعمونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكيناً ويَتيماً وأسيراً »(١) .

١٢ — تأكيد الرحمة فى الحرب ومراعاة الناحية الإنسانية فلا بد للمسلم أن يضرب فى الحرب أروع الأمثال على الرحمة ويقول تعالى :

« فَإذا لَقيتم الَّذينَ كَفَروا فَضَربَ الرِّقابِ حتَّى إذا أثْخَنتُموهُم فَشُدوا الوَثاقَ فإمَّا مَنًّا بعدُ وإمَّا فِداءً حتَّى تَضَعَ الحربُ أوزارَها . »(٢)

وهذا معنى كبير من معانى الرحمة التى شرعها الإسلام فى الحرب فأبدل حكم الأعداء وهو القتل بالأسر ثم جعل للأسير أكثر من فرصة ليسترد حريته .

والمسلم فى حربه لا يغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا ينهب ولا يتلف ولا يقتل امرأة أو شيخاً أو طفلا ولا يجهز على جريح ولا يسيء إلى أسير ولا يتعرض لمسالم أو لرجل دين .

١٣ — ضرورة إعلان الحرب من جهة المسلمين قبل البدء فى أى قتال رغبة فى ألا تكون الحرب وسيلة للخداع والخيانة من جانب المسلمين :

« إن اللهَ لا يُحبُّ الخائِنينَ »(٣) .

١٤ — الوفاء بالمعاهدات وبالعهود فى الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما :

---

(١) سورة الإنسان ٨
(٢) سورة محمد ٤
(٣) سورة الأنفال ٥٩

«وأوفوا بِعَهدِ اللهِ إذا عاهَدتُمْ ولا تَنقُضوا الأَيْمانَ بَعدَ تَوكيدِها»[1] «والمُوفونَ بِعهدِهِمْ إذا عاهَدوا»[2] «إلَّاالَّذينَ عاهَدتُمْ منَ المشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصوكُمْ شَيئاً ولَمْ يُظاهِروا عَليكُمْ أحَداً فأتِمُّوا إليهِمْ عَهدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ»[3].

عوامل القتال

تناولت آيات القرآن ثلاثة عوامل هامة للقتال :

١ — الروح المعنوية وتقويتها .

٢ — إعداد القوة المادية .

٣ — التنظيم العملى للحرب .

وسنتعرض للحديث عن الروح المعنوية فى باب قادم ، ونمر هنا مروراً سريعاً على العاملين الآخرين .

المقصود بالقوة المادية العدد والعدة ، فأما العدد فقد كان يتوقف على عدد المسلمين ، فكل من دخل فى الإسلام أصبح جندياً من جنوده ، فالجند فى أول عهد الإسلام بلغوا بضع عشرات ، فى حين أنهم فى واقعة تبوك أى فى السنة التاسعة للهجرة بلغوا ثلاثين ألفاً .

والقرآن ينص على ضرورة توافر العدد الكثير والعدة الوافرة :

«وَأعِدُّوا لهمْ ما استَطَعتمْ منْ قُوَّةٍ ومنْ رباطِ الخَيلِ تُرْهبون بهِ عَدوَّ اللهِ وَعدوَّكُمْ»[4]

---

(١) سورة النحل ٩١

(٢) سورة البقرة ١٧٧ .

(٣) سورة التوبة ٥

(٤) سورة الأنفال ٦٠ .

أما إعداد العدة فقد جاء فى القرآن الكريم :

« وأنزلنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ »[1].

ووضحت هذه المنافع فى قوله تعالى :

« أنِ اعْمَلْ سابغاتٍ[2] وقدِّرْ فِى السَّرْدِ[3] »[4].

ولما كان الإعداد للحرب يتطلب مالا كثيراً فقد حثت آيات كثيرة على البذل فى سبيل الله ومن ذلك :

« وَما تُنفقــوا منْ شىءٍ فِى سَبيلِ اللهِ يُوَفَّ إليْكمْ وأنتمْ لَا تُظلْمونَ »[5] . « وأنفِقوا فِى سَبيلِ اللهِ وَلا تُلقوا بِأيديكُمْ إلَى التَّهلكةِ »[6].

وأما من ناحية التنظيم الفعلى للحرب فقد أمر الله تعالى المسلمين جميعاً لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم برد العدوان ، إبقاء على وحدة المسلمين وصوناً لحرية المعتدين ، وعين القرآن من يعفى من هذا الجهاد :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعفاءِ وَلا عَلَى المَرْضى وَلا عَلَى الَّذينَ لَا يَجدونَ مايُنفقُونَ حَرَجٌ »[7].

فكأن القرآن قد جعل أسباب المعافاة الضعف بسبب العجز والشيخوخة والمرض وعدم القدرة على الإنفاق .

---

(١) سورة الحديد ٢٤

(٢) دروع .

(٣) النسج

(٤) سورة سبأ ١٠ ،

(٥) سورة الأنفال ٦٠ .

(٦) سورة البقرة ١٩٥

(٧) سورة التوبة ٩٢

الحرب فى الأديان الأخرى

إن ماجاء به الإسلام فيما يتعلق بالحرب أفضل وأدق وأرحم وأبر بالسلام من كل ما جاءت به الأديان الأخرى كما يتضح فيما يأتى :

١ — أسفار التوراة التى يتداولها اليهود اليوم طافحة بأنباء القتال والجهاد والحرب والتخريب والتبديد والهلاك والسبي ، وهى تقرر شريعة القتال والحرب ولكن فى أبشع صورها ، فقد جاء فى سفر التثنية فى الإصحاح العشرين منه عدد (١٠) وما بعده ما يأتى بنصه : « حين تقرب من مدينة كى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد ، وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينه فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تبق منها نسمة ما . بل تحرمها تحريماً الحيثيين والآراميين والكنعانيين والفيرزيين والحوريين واليوسيين كما أمرك الرب إلهك . »

٢ — فى إنجيل متى المتداول بأيدى المسيحيين فى الإصحاح العاشر عدد (٢٥) ومابعده « لاتظنوا أنى جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنة ضد حماتها . . . وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ومن أحب ابنا أو ابنة اكثر منى فلا يستحقنى ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى . »

أسلحة الحرب عند المسلمين

تكلمنا خلال حديثنا عن حروب العرب فى الجاهلية عن أسلحتهم فى الحرب ولم يختلف أمر هذه الأسلحة فى الجاهلية عنه فى الإسلام ، فذات الأسلحة التى استخدمها العرب فى جاهليتهم هى ذات الأسلحة التى استخدمها

المسلمون فى غزواتهم وحروبهم إلا أن النبى صلى الله عليه وسلم استعان فى غزواته بسلاحين جديدين لم يكن للعربى علم بهما من قبل هما المجنيق (آلة القذف) والدبابات وسنتحدث عن هذين السلاحين ضمن حديثنا عن أسلحة الحرب عند المسلمين فى السطور القادمة . . .

١ — كان القوس هو أهم الأسلحة التى حاربت بها قوات المسلمين وأثر عن النبى قوله « إركبوا وارموا وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » ، كما أثر عنه ما معناه « كل لهو المؤمن فى ثلاث تأديبه فرسه ، ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته . إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامى فى سبيل الله » . ومن أقواله وهو قائم يصلى « أعدوا ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى . ألا إن القوة الرمى . ألا إن القوة الرمى » .

٢ — كان السيف من أهم أسلحة المسلمين فى قتالهم ، فنى موقعة الخندق اجتاز عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب الخندق من مكان ضيق فخرج لهم على بن أبى طالب وتقدم من عمرو يدعوه للنزال فقال له عمرو « لم يا بن أخى والله ما احب ان أقتلك » فرد عليه على « ولكنى أحب والله أن أقتلك » وطعنه على بسيفه طعنة قتلته وهرب على أثرها عكرمة وضرار .

٣ — واستخدم المسلمون أيضاً الرمح إلا أنهم كانوا يخشون انكساره

٤ — واستخدم المسلمون أيضاً الترس وتفننوا فى صنعه ونقشوا عليه الآيات والحكم والأشعار .

٥ — وكانت الدروع كثيرة عند المسلمين والدرع مؤلف من الجزء الذى يقى الصدر ويسمى الجوشن والبيضة والخوذة ، والمغفر للرأس ، ومنها أجزاء للساعدين والساقين والكفين .

٦ — عندما بنى المسلمون الخندق بناء على إشارة سلمان الفارسى جلبوا بعض آلات الحصار مثل المنجنيق ، وجاء فى السيرة الحلبية أن المسلمين

استخدموه فى حصار الطائف ، وجاء أيضاً أن سلمان الفارسى هو الذى صنعه بيده ، وذكر صاحب السيرة أيضاً أن المسلمين حينما فتحوا حصن الصعب فى خيبر وجدوا فيه منجنيقات .

ويستخدم المنجنيق فى رمى الحجارة وقذفها وفى هدم الحصون أو فى إحراق أماكن العدو بالنفط المشتعل بالنار .

٧ ـ فى حصار الطائف استخدم المسلمون الدبابات ، وكانت فى هذا العهد عبارة عن مبنى من الخشب ، يوضع على عجل ، ويدخل فيه المحاربون ، ويدفعون به إلى جدار الحصن .فيقى من بداخله من النبل والحجارة التى يقذفهم بها أعداؤهم وهم يهدمون جدار الحصن . وكانت تستخدم الدبابة أيضا فى هدم الاسوار وتحطيم الحصون .

توحيد جبهة المسلمين

لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ قدم على المدينة بتبليغ الوحى الذى ينزل عليه ، بل رأى أن ينظم الحياة العامة فى المدينة ، فقد أصبح زعيم جماعة من العرب لهم صفة سياسية بجانب كونه نبياً مرسلا عليه أن يبلغ الناس رسالة ربه .

وكان بالمدينة ، يوم قدم عليها الرسول ، المسلمون من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار ، وبعض مشركى هاتين القبيلتين واليهود ، ووفد إليها المهاجرون وكان هؤلاء تجاراً بمكة تركوا أموالهم هناك دون أمل فى استردادها فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام الأنصار بمساعدتهم ، وبذل الرسول عليه الصلاة والسلام جهداً لتنظيم الصفوف ولتوحيد وحدة المهاجرين والأنصار ، فآخى بينهم حتى أصبحوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثاً مقدماً على القرابة ، فإذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصارى ، وإذا مات أحد الأنصار ورثه أخوه المهاجر ، وكان صلوات الله عليه بذلك يشد أزر بعضهم ببعض .

عندما شرع الرسول فى تنفيذ مشروع المؤاخاة قال لأصحابه : « تآخوا

فى الله أخوين أخوين» . ثم أخذ بيد على بن أبى طالب وقال : «هذا أخى» وتآخى من بعده عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة ، وأبو بكر مع خارجة بن زيد من الخزرج ، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك من الخزرج أيضاً ، وتآخى كل مسلم هاجر إلى يثرب مع واحد من الأنصار إخاء زاد من قوة المسلمين واتحادهم وتضامنهم .

وكان من آثار هذا التوحيد لجبهة المسلمين وهذا التقريب بين فئاته المختلفة أن فشلت محاولات لليهود لإثارة المسلمين بعضهم على بعض . فقد مر يوماً شاس بن قيس وهو يهودى على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم كإخوة متحابين فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه : «قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، وما لنا معهم ، إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار» . ثم أمر فتى شاباً من اليهود أن يذكر يوم بعاث وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج وتكلم الغلام ، وذكر القوم هذا اليوم فتنازلوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض : «إن شئتم عدنا إلى مثله» . وبلغ الأمر الرسول فخرج إليهم وذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعا .

ولما فشل اليهود فى الوقيعة بين الأوس والخزرج حاولوا فتنة الرسول نفسه ، فذهب إليه أحبارهم وأشرافهم وقالوا له : «إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، فنحتكم إليك ، فتقضى لنا فنتبعك ، ونؤمن بك» . ونزل فيهم قوله تعالى : «وأنِ احكُمْ بَينَهم بِما أنزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ واحذَرْهُمْ أنْ يَفتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنزَلَ اللهُ إلَيْكَ فإنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أنْ يُصيبَهُمْ بِبعضِ ذُنوبِهِمْ وإنَّ كثيراً منَ النَّاسِ لفَاسِقُونَ . أفحُكمَ الجاهليَّةِ يبغونَ ومنْ أحْسَنُ منَ اللهِ حُكماً لقَوْمٍ يُوقِنونَ»[1].

---

(١) سورة المائدة ٤٩/٥٠.

ولجأ اليهود إلى وسيلة خبيثة ، وفكروا فى أن يمكروا بالرسول ، وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة ، كما أجلاه وأصحابه أذى قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم ، وأنه إن يكن رسولا حقا فعليه أن يفعل مثلهم ويصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطاً فى هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى ، وأوحى الله إلى رسوله أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ونزلت الآية :

قَدْ نَرَى تقلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّماء فلنُولِّينكَ قِبلَةً تَرْضَاهاَ فَوَلِّ وَجْهكَ شَطْرَ المَسْجدِ الحَرامِ وَحيثما كنتمْ فوَلُّوا وجوهَكمْ شطْرَهُ »[1]

وأنكر عليه اليهود ما فعل ، ووعدوه إن هو فعل ما أشاروا به عليه ، أن يتبعوه فنزل قوله تعالى :

« سَيقول السفَهاءِ منَ النَاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبلتهِمُ الَّتى كَانوا عَليْها قلْ لِلهِ المَشْرِقُ والْمغْرب يَهْدى منْ يشاَءِ إلى صِراطٍ مُستقيم وكذلكَ جَعلناَ كم أمةً وسطاً لِتكونوا شهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيكونَ الرسولَ عَليكمْ شَهيداً وَما جَعلنا القِبلةَ الَّتى كنْتَ عَليها إلَّا لنعلَمَ مَنْ يتَّبعُ الرَّسول مِمَّنْ يَنقَلِب عَلَى عَقبيهِ وإنْ كانت لَكبيرةً إلَّا عَلَى الَّذينَ هَدَى الله »[2] .

وخابت محاولات اليهود وفطن المسلمون لأمرهم وعرفوا غاية مسعاهم وأدركوا الغاية التى يسعون إليها من وراء الجدل الكثير الذى أثاروه مع المسلمين وتمكنوا من أن يشعروهم بفشلهم فى كل محاولاتهم ، فلم يجد اليهود بدأ من أن يسير الأمر فى المدينة على ما هو عليه .

ولما استقر الأمر لرسول الله فى المدينة رأى أن يضع نظاماً للحياة العامة

(١) سورة البقرة ١٤٤

(٢) سورة البقرة ١٤٢/١٤٣

يكون أساساً لتحقيق الوحدة بين أهلها فكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار كما عاهد اليهود وشرط لهم ويتضمن هذا الكتاب أموراً منها :

١ — جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة « إنهم امة واحدة من دون الناس » .

٢ — التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية « وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . »

٣ — فتح الطريق للراغبين من اليهود فى الإسلام وجعلهم يتمتعون بجميع حقوق المسلمين . « وإنه من يتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » .

٤ — تقرير حرية الاعتقاد لليهود « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم » .

٥ — كيفية معاملة قريش التى كانت تقف من المسلمين موقفاً عدائياً .

٦ — مايتبع فى الحرب بين المسلمين وأعدائهم ، ويقرر أن على كل جماعة أن تنفق على نفسها « على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفه » .

٧ — حرمة المدينة أى يحرم بها مايحرم بمكة .

وهذا الكتاب الذى كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يوقع عليه يهود بنى النضير وبنى قريظه وبنى قينقاع إلا ان هؤلاء لم يلبثوا أن وقعوا بينهم وبين النبى صحفاً مثلها .

وشرع الجهاد للمسلمين بعد أن توحدت صفوفهم وانتظمت حياتهم وصدر لهم الأمر الإلهى « كتب عليكم القتال » ، وكان لتشريع الجهاد أهمية خاصه لهم إذ أعطاهم صفة سياسية ، فقد جعلهم نواة الأمة العربية الإسلامية ولهذا يجب أن يجاهدوا فى سبيل صون دعوة الإسلام وحمايتها من الفتنة ، وإعلاء كلمة الله ، وجمع شتات العرب .

وبعد أن وقف الأنصار والمهاجرون صفاً واحداً مع الرسول ، بدأ الرسول يستميل القبائل المقيمة فى الطريق بين مكة والمدينة إلى جانبه ، وارتبط مع الكثير منها برابطة التحالف ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى إيجاد حلف له خارج المدينة كما أصبح له أنصار داخلها . . . هذا إلى أن محالفة الرسول للقبائل التى تقيم فى طريق قوافل قريش التجارية كانت تثير روع القرشيين وتجعلهم يخشون بأس المسلمين فى المدينة .

وبذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها ، عليهم أن ينضحوا عنها ، ويدفعوا كل عادية عليها .

وعقـــد الرسول ألوية بعض السرايا للمهاجرين دون الانصار لأن المهاجرين تعرضوا وحدهم لإيذاء قريش بمكة وقاسوا آلام الهجرة ، وكان القصد من هذه السرايا أن تدرك قريش أن العرب قادرون على الدفاع عن أنفسهم ، ودرء أى خطر يحيق بهم ، هذا فوق أن فى استطاعتهم تعطيل طرق القوافل التجارية المارة ببلدهم ، وحدث فعلا أن وجه الرسول اهتمامه إلى الوقوف فى سبيل تجارة قريش التى كانت عماد حياتها ومصدر ثروتها ، وهو من هذه الناحية كان يعرف كيف يحمل قريشاً على التسليم له من اقرب طريق .

والرسول وأهالى المدينة كانوا يرون ضرورة القضاء على نفوذ قريش حتى يمكن وحتى يتيسر نشر الدعوة الإسلامية وضم مكة إلى حوزتهم ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لقريش فقد أحست بخطر وجود المسلمين بالمدينة على تجارتهم القادمة من الشام ، ورأت فى انتشار الإسلام خطراً كبيراً عليها وعلى ديانتها الوثنية وعلى سيادتها على الكعبة . . .

من هنا بدأ كل فريق يضعف شوكة خصمه ، ويعمل على التخلص منه وأصبح المسلمون والقرشيون وجهاً لوجه ...

وبدأت بينهم معركة البقاء ...

وكانت الحرب .

الباب الثاني

غزوات الرسول

(١)

- مناوشات قبل بدر
- غزوة بدر الكبرى
- محمد ويهود بني قينقاع
- مناوشات قبل أحد

مناوشات قبل بدر

قبل غزوة بدر الكبرى بعث الرسول ببعض سراياه للوقوف فى وجه قوافل قريش وهى فى طريقها إلى الشام ومنه ... وقام الرسول بنفسه بقيادة بعض هذه الغزوات لذات الغرض ، ولم يحدث اشتباك فى هذه الفترة حتى كانت غزوة بدر الكبرى .

ولعل الكثيرين يتساءلون عن الدوافع التى دعت الرسول إلى إرسال هذه السرايا أو قيامه بتلك الغزوات ، وظن الكثيرون أن الرسول كان يهدف بتلك السرايا والغزوات إلى جر قريش إلى الحرب ، والواقع أن الرسول كان يرمى إلى غرضين نبيلين هما :

١ — رغبته فى أن تشعر قريش أن المسلمين فى المدينه قوة ، وأن فى استطاعتهم قطع طريق القوافل إلى الشام ، وأن هذا معناه ضرورة إعادة النظر فى موقف قريش من محمد ورجاله ، وأن على قريش أن تفكر جدياً فى أن مصلحتها تقتضى التفاهم مع المسلمين ، فتكفل لهم حرية الدعوة إلى الدين فى نظير سلامة تجارتهم وقوافلهم .

٢ — رغبته فى أن يعقد الصلح والمعاهدات مع القبائل التى تقطن بجوار المدينة ، كما سيظهر فى خلال الحديث عن هذه السرايا [١] والغزوات .

سرية حمزة :

فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة بعث النبى عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكباً من المهاجرين [٢] ، إلى سيف البحر من ناحية العيص [٣]

---

(١) السرية جماعة من المقاتلين واصطلح مؤرخو الإسلام على هذه التسمية ، ولم يشترك الرسول فى هذه السرايا وإنما اشترك فى الغزوات وهى التى يكون الجيش فيها كثير العدد

(٢) يلاحظ أن النبى لم يبعث أحداً من الأنصار ضمن هذه السرايا لأن الأنصار كانوا قد بايعوه على أن يدافعوا عنه لا أن يهاجموا معه .

(٣) سيف بمعنى شاطئ والعيص ناحية من نواحى المدينة .

وعقد له لواء[1] أبيض حمله أبو مرثد ، ليعترض قافلة لقريش كانت فى طريقها إلى الشام ، وكان الرسول قد رأى أن يصادر تجارة قريش فى ذهابها وإيابها ، ليكون فى ذلك عقاب لمشركى مكة ، فتضعف قوتهم المادية ومن ثم تضعف قوتهم العسكرية ... وكان على رأس القافلة أبو جهل بن هشام وكانت القافلة تتكون من ثلثمائة راكب من أهل مكة ... التقى الجمعان إلا أن مجدى بن عمرو الجهنى اعترض الفريقين ودعاهما إلى الانصراف وكان موادعاً للاثنين معاً فانصرفا دون قتال .

سرية عبيدة :

فى شوال من ذات السنة بعث الرسول عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ثمانين راكباً[2] من المهاجرين ، وعقد له لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثه ليعترض تجارة قريش ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة فوجد عندها جمعاً من قريش يبلغ المائتين بقيادة مكرز بن حفص ، ولم يحدث بينهما قتال إلا أن سعد بن أبى وقاص أحد المسلمين الأوائل رمى بسهم ، وحدث أن خرج من صفوف المشركين المقداد بن عمرو البهرانى وعتبة بن غزوان والتحقا بصفوف المسلمين[3] .

غزوة الابواء[4] :

فى أوائل السنة الثانية الهجرية بلغ الرســـول أن تجارة لقريش

---

(١) اللواء هو العلم الذى يحمل فى الحرب ويعرف به موضع أمير الجيش وقد يحمله أمير الجيش وقد يحمله في مقدمة الجيش وأول من عقد الألوية إبراهيم الخليل إذ بلغه أن قوماً أغاروا على لوط عليه السلام فعقد لواء وسار إليهم بمواليه .

ويطلق البعض على اللواء كلمة الراية إلا أن ابن اسحق وابن سعد يقولان أن الراية لم تذكر إلا بعد خيبر .

(٢) تقول بعض الروايات أن عبيدة خرج فى ستين فقط .

(٣) يقال أن المقداد بن عمرو البهرانى وعتبة بن غزوان كانا قد أسلما ولم يستطيعا اللحاق بالرسول فانتهزا فرصة سرية عبيد الله والتحقا بها .

(٤) الابواء قرية تقع بين مكة والمدينة سميت كذلك لتبوىء السيول بها وقيل لما كان بها من الوباء . أطلق البخارى على هذه الغزوة إسم غزوة الإبواء وأطلق ابن الخطاب عليها غزوة ودان لقرب المكانين .

ستمر بطريق الشام ، فقرر أن يخرج بنفسه إليها لجمع جموعه من المهاجرين دون الأنصار ، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، وأعطى لواءه ، وكان أبيض ، لعمه حمزة بن عبد المطاب ، ومضى بجيشه حتى بلغ ودان[1] ، إلا أن عِيرَ قريش كانت قد مرت من قبله فلم يحدث اشتباك وصالح النبي بنى ضمرة وحالفها وكان بينه وبينها كتاب جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصرة على من رامهم ، إلا أن يحاربوا فى دين الله ما بلّ بحر صوفة[2] ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » .

وكانت هذه أول غزوة للرسول غاب فيها عن المدينة خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط

بعد أن عاد الرسول بلغه أن عيراً لقريش عائدة من الشام وفيها أمية ابن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير ، فسار إليها بنفسه فى مائتين من المهاجرين ، وحمل لواءه وكان أبيض اللون ، سعد بن أبى وقاص ، واستخلف الرسول على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، ومضى حتى بلغ بواط[3] فلم يجد العير . لأن الأعداء أخذوا حذرهم وأسرعوا إلى مكة ، فعاد الرسول إلى المدينة دون قتال وكانت هذه الغزوة فى ربيع الأول .

غزوة العشيرة

وفى شهر جمادى الأولى علم الرسول أن قافلة لقريش فى طريقها إلى الشام وأن هذه القافلة تحمل أموالا طائلة قدرت بخمسين ألف دينار ، وأن التجارة محمولة على ألف بعير ، وأن أبا سفيان بن حرب هو قائد هذه القافلة ، ومعه

---

(١) ودان قرية عند جبل ودان وسميت باسمه وبينها وبين الأبواء ستة أميال ، تنطق بفتح الواو وتشديد الدال .

(٢) مابل بحر صوفة أى ما بقى فيه ما يبل الصوفة .

(٣) بواط جبل جهينة ناحية رضوى وهو أحد الجبال التى بنى من حجارتها أساس الكعبة .

تسعة وثلاثون رجلا من قريش فيهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص [1] وخرج الرسول ومعه مائتان من المهاجرين ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وسلك الرسول نقب بنى دينار ثم فيفاء الخبار ، فنزل تحت شجرة يقال لها ذات الساق وأدى الصلاة وأقام فيها مسجداً ، ثم تحرك بقوته إلى العشيرة من بطن ينبع ، وعلم أن القافلة قد مرت قبل قدومه بأيام ولم يحدث اشتباك ، ولكن الرسول حالف بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضُمرة .

غزوة سفوان

بعد عودة الرسول أغار كرز بن جابر الفهرى ، وهو من المتصلين بمكة وبقريش ، على إبل المدينة وأغنامها ، فخرج النبي فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وحمل على بن أبي طالب اللواء ، وسار الرسول حتى بلغ وادى سفوان ناحية بدر فلم يدرك كرز [2] .

سرية عبد الله بن جحش

فى العام الثانى من الهجرة وفى شهر رجب ، بعث الرسول عبد الله ابن جحش الأسدى [3] ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه بكتاب أمره ألا يفضه إلا بعد يومين من مسيره ، وحين يطلع عليه يمضى لما أمره به على ألا يستكره واحداً من أصحابه ... وبعد اليومين المحددين فتح عبد الله الكتاب ، وقرأ فيه أمر الرسول « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلةَ بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها » .

وبعد أن قرأ عبد الله هذا الأمر قال « سمعاً وطاعة » ثم جمع أصحابه

---

(١) هذه القافلة كانت السبب المباشر فى غزوة بدر الكبرى فعند عودتها وقعت الغزوة كما سيأتى فيما بعد .

(٢) يطلق أكثر المؤرخين على هذه الغزوة اسم غزوة بدر الصغرى أو غزوة بدر الأولى

(٣) قال الرسول عند ما بعث عبد الله على رأس السرية « لأبعثن إليكم رجلا أصبركم على الجوع والعطش » . وأطلق عليه الرسول لقب أمير المؤمنين فكان أول من تسمى به فى الإسلام .

وعرض عليهم الأمر وقال لهم « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر . وقد نهانى أن أستكره منكم أحداً فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومضى معه أصحابه جميعاً لم يتخلف منهم أحد إلا سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان إذ ذهبا يبحثان عن بعيرين ضلا فأسرتهما قريش .

وبينما عبد الله وأصحابه فى نخلة ، مرت بهم قافلة قريش يقودها عمرو ابن الحضرمى ، وكان الوقت فى رجب وهو شهر حرم فيه القتال . إلا أن عبد الله وأصحابه تذكروا إساءات قريش لهم ، فتشاوروا ، وقال بعضهم لبعض « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام » .

وترددوا وتحرجوا من قتالهم فى الشهر الحرام ، ولكنهم عادوا فأجمعوا على منازلتهم ، ورمى أحدهم وهو واقد بن عبد الله التميمى بسهمه عمرو ابن الحضرمى فقتله ، وأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وهرب نوفل ابن عبد الله ، واستولى عبد الله على القافلة ، وقسم الغنيمة على أصحابه بعد أن احتجز منها الخمس لرسول الله ، ثم عاد إلى المدينة فلما علم بالأمر الرسول قال « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ، ورفض أن يأخذ نصيبه من الغنيمة فسقط فى يد عبد الله وأصحابه وعنفهم إخوانهم من المسلمين ، وثارت قريش وقالت « قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . » ، وانتهز اليهود الفرصة فأرادوا إشعال نار الفتنة إلا أن الله تعالى تدارك الموقف فأنزل على رسوله الأمين ، .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ

عِندَ اللهِ والفتنةُ أكبرُ منَ القَتْلِ وَلا يزالُونَ يُقاتلونَكمْ حَتَّى يَرُدُّوكم عنْ دينِكمْ إنِ استطاعُوا »[1].

وبنزول هذه الآية سعد المسلمون ، وأمر الرسول قضاء عبد الله فى الغنيمة ، وقبض على الأسيرين ، فبعثت قريش تطلب فداءهما فقال الرسول « لا نفديكموهما[2] حتى يقدم صاحبانا فانا نخشاكم عليهما - يعنى سعد وعتبة فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . وقدم سعد وعتبة فسلم النبي الأسيرين ، وأعلن أحدهما وهو الحكم بن كيسان إسلامه ، وبقى بالمدينة ، ومات شهيداً فى مؤتة . أما عثمان بن عبد الله فقد عاد إلى مكة ومات بها كافراً .

(٢) غزوة بدر الكبرى[3]

أسباب الغزوة (١) من وجهة نظر المسلمين :

كان الرسول يرمى إلى القضاء على اقتصاديات قريش كما سبق القول . وكان يرى فى ذلك إضعافاً لقواتها العسكرية . . وكان قد علم بخروج قافلة كبيرة لقريش قيل إنها جمعت جميع أموالها حتى أنه لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية يملك مثقالا فصاعداً إلا بعث به فى تلك القافلة ، وقدرت أموالها بخمسين ألف دينار ، وحملت تجارتها على ألف بعير ، وكان يقودها أبو سفيان وكان معه سبعة وعشرون رجلا ، وقيل فى رواية أخرى تسعة وثلاثون منهم مخرمة ابن نوفل وعمرو بن العاص . . ورأى الرسول أن القضاء على هذه القافلة فيه هدم كبير لاقتصاديات قريش ، بالإضافة إلى الإساءة إلى مركزها العسكرى ، وما ينتج عن ذلك من زيادة قوة المسلمين ورفع روحهم المعنوية .

---

(١) سورة البقرة ٢١٧

(٢) أى نقبل فداءهما

(٣) تسمى أيضاً غزوة بدر العظمى يوم وقعة بدر وهو يوم الفرقان المذكور فى قوله تعالى « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » . لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل وهو يوم البطشة الكبرى فى قوله تعالى « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون »

وبهذا سار الرسول إلى العشيرة كما سبق القول ، إلا أن القافلة كانت قد مرت فرأى الرسول أن ينتظر عودتها .

(٢) من جهة نظر قريش

قامت قريش كلها تحمى قافلتها فى أثناء عودتها ، ولم يتخلف عنها إلا أبو لهب فقد أرسل مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكانت قريش ترى فى استيلاء محمد على القافلة هزيمة منكرة لها ، وتثبيتاً لمركزه ، وتأكيداً لصدق دعوته ، ولهذا قررت أن تحاربه وتناضله لتحمى قافلتها ، ولتقضى على قوته ، فلا يعود ثانية إلى الوقوف فى وجه قوافلها .

الاستعداد للغزوة (١) من جانب المسلمين

بعث الرسول طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ينتظران عودة القافلة فنزلا على كشد الجهنى بالحوراء ، وأقاما عنده فى خباء حتى مرت العير ، فأسرعا إلى محمد يفضيان إليه بأمرها وما رأيا منها ، ولم ينتظر الرسول عودة رسوليه إلى الحوراء ، فقد كان يخشى أن تفوته فى عودتها كما فاتته فى ذهابها إلى الشام ولهذا دعا المسلمين وقال لهم « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها . » ، وخف بعض الناس وثقل البعض وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعا فى الغنيمة ، ولكن الرسول أبى عليهم الانضمام إلا بعد أن يعلنوا إسلامهم .

وحاولت أم ورقة بن نوفل أن تخرج مع الخارجين ، فقالت للرسول « يارسول الله ائذن لى فى الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله يرزقنى الشهادة » فقال لها الرسول « قرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة ، وأطلق عليها الرسول « الشهيدة » .

خرج الرسول مع أصحابه من المدينة فى رمضان ، وجعل بها عمرو بن أم مكتوم ليصلى بالناس واستعمل عليها أبا لبابه[١] ، وترك الرسول بالمدينة

(١) كان أبو لبابه ضمن الخارجين إلا أن الرسول رده عند الروحاء واستعمله على المدينة

عثمان بن عفان ، فقد كانت زوجته رقية ابنة الرسول مريضة وقال له « إن لك لأجر رجل وسهمه . » ، كما بقى بالمدينة أيضاً أبو أمامه بن ثعلبة الأنصارى إذ كانت أمه مريضة فأمره الرسول بالبقاء إلى جوارها .

وارتفعت أمام المسلمين رايتان سوداوان ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً يتبادلون ركوبها كل ثلاثة أو أربعة منهم يتعاقبون بعيراً ، وكان حظ الرسول كحظ سائر أصحابه . فكان هو وعلى ومرثد بن مرثد الغنوى يتعاقبون بعيراً وكان رفيقا الرسول يدعوانه ليركب ويقولان له « اركب حتى نمشى معك » فكان يرفض منهما هذه الدعوة ويقول « ما أنتما بأقوى منى على المشى وما أنا بأغنى عن الأجر منكما [1] » .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يتعاقبون بعيراً ، وكان عدد الخارجين مع الرسول فى هذه الغزة خمسة وثلثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين ، وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج ، وأسرع القوم خوفاً من أن يفلت منهم أبو سفيان هذه المرة ، ونزل المسلمون فى وادى ذفران وهناك علموا بخروج قريش بأجمعها . فبدأ النبى يجمع أصحابه ويقدر معهم موقفه ...

قال لهم « إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول [2] فما تقولون؟ ألعير أحب إليكم من النفير ؟ وبدأ الرسول يأخذ الآراء ، فقال أبو بكر رأيه وكذلك عمر ، ثم قام المقداد بن عمرو وقال « يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف فوالله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت إلى برك الغماد [3] لجالدنا [4] » .

---

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود

(٢) مسرعين .

(٣) مدينة بالحبشة .

(٤) لجالدنا أى ضربنا بسيوفنا وفى رواية أخرى « نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك . »

وجاء فى الكشاف وابن مسعود أن الرسول ضحك وأشرق وجهه عندما سمع مقالة المقداد ، وبايعه الناس جميعاً ، فقال الرسول « أشيروا على أيها الناس ؟ » فقال عمر « يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته » .

وأعاد الرسول بعد أن فرغ عمر من قوله سؤاله قائلا « أشيروا على أيها الناس ؟ » ففهم الأنصار أن الرسول يقصدهم ، فهم كانوا قد بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم ، فلما أحسوا أنه يريدهم قام سعد بن معاذ سيد الأوس وقال « لعلك تريدنا معاشر الأنصار يا رسول الله ؟ » فقال عليه السلام « أجل » قال سعد « قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا فى ديارهم ، وانى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت من أمر فأمرنا نتبع أمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدق فى اللقاء لعل الله يريد منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فنحن عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك » .

وسر الرسول من قول سعد وقال « سيروا وابشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين فوالله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وارتحلت قوة محمد من مواقعها فى ذفران ، ونزلت موقعاً قريباً من بدر ، وأسرع الرسول ومعه أبو بكر ، وفى رواية أخرى معاذ بن جبل ، يجمعان

الخبر عن قريش حتى وقفا على شيخ يقال له سفيان ، وسأله الرسول دون أن يعرفه الشيخ عن قريش وعن محمد ، فقال له الشيخ « قد بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا فى يوم كذا فإن صدق الذى أخبرنى به ، فهم اليوم بمكان كذا ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا فإن كان الذى أخبر به صدقا فهم اليوم بمكان كذا » .

ولما كان الموقع الذى قال عنه الشيخ إن محمداً فيه صحيحاً . فقد أدرك الرسول أن الموقع الذى قال الرجل إن قريشاً به صحيح أيضاً . وعاد الرسول إلى قومه ودعا لهم وقال « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم » .

وبعث الرسول على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ، فى نفر من أصحابه إلى بدر ، يلتمسون له الخبر ، فأصابوا غلامين أحدهما لبنى الحجاج والآخر لبنى العاص ، فأتوا بهما إلى رسول الله فقال لهما « أخبرانى عن قريش ؟ » فقالا « هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى » فقال لهما « كم القوم ؟ » قالا « والله كثير عددهم شديد بأسهم » فقال لهما « ما عددهم ؟ » قالا « لا ندرى » فسألهما « كم تنحرون كل يوم ؟ » قالا « يوماً تسعاً ويوماً عشراً » فقال الرسول لأصحابه « القوم ما بين التسعمائة والألف » ، ثم عاد الرسول وسألهما « من فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا « عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البحترى بن هشام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة ابن عدى والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسهيل العامرى وعمرو بن عبد ود » فقال الرسول لصحبه « هذه هى مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

وكان اثنان من الصحابة قد ذهبا حتى نزلا بدرا فى ذات الوقت الذى ذهب فيه على والزبير وسعد إلى ماء بدر وأناخ الرجلان إلى تل قريب من الماء ، وأخذا وعاء لهما يستقيان ، وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جاريتين تتخاصمان وتطالب إحداهما الأخرى بدين عليها ، وسمعا الثانية تقول « إنما تأتى العير غداً

أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » ، فعاد الرجلان وأخبرا الرسول بما سمعا .

وتحرك المسلمون إلى ماء بدر ، فلما جاءوا أدنى ماء نزل به محمد وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليما بالمكان فقال للرسول « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فقال الرسول « بل هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فقال « يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نعور ما وراءه من القلب(١) ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون » ، واستجاب الرسول لرأى الحباب وأخذ به(٢) .

وبعد أن بنى المسلمون الحوض أشار سعد بن معاذ قائلا « يا رسول الله نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » ، وأقر الرسول ما أشار به عليه سعد .

٢ — من جانب قريش :

كان أبو سفيان قد علم بخروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها فخاف أن يعترضه محمد ورجاله أثناء عودته ، بعد أن ربحت تجارته ، ولهذا كان كثير السؤال أثناء عودته ، فسأل الجهنى الذى نزل عليه رسولا محمد بالحوراء فأبلغه من أمر محمد ورجاله ، فخاف أبو سفيان عاقبة أمره ، إذ لم يكن من قريش من يحمى العير ويحرسه إلا ثلاثون أو أربعون ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، وبعث به إلى مكة يخبر قريشاً أن محمداً قد اعترض أموالهم

---

(١) الآبار .

(٢) أمر الرسول بتنفيذ رأى الحباب فتحول المسلمون فى نصف الليل وامتلكوا مواقع الماء .

ووصل ضمضم إلى مكة ، فقطع أذني بعيره ، وجدع أنفه ، وحول رحله ، ووقف عليه وقد شق قميصه من قبل ومن دبر وأخذ ينادى « يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . . الغوث . . الغوث . . »

وكما سبق القول كان لكل قرشي وقرشية نصيب فى هذه العير ، فثارت ثائرة قريش ، وكان أكثرهم ثورة أبو جهل . فأخذ يثير الناس ويستفزهم ، وكانت هناك طائفة من أهل مكة تتردد بأمل ألا يصيب العير مكروه وكانت هذه الطائفة تذكر أن هناك ثأراً بين قريش وبين كنانة ، وقد تستغل كنانة الفرصة لتهاجم قريشاً وتطعنها من الخلف ، وجاء مالك بن جعشم المدلجى وهو من أشراف كنانة ، وأعطى قريشاً أماناً بألا يطعنها وقومه كنانة فى أثناء اشتباكها مع محمد ، وهنا زادت قوة الداعين إلى الخروج لملاقاة محمد ، وخرج أشراف قريش إلا ابا لهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة . . حتى ان أمية بن خلف وكان رجلا كبيراً وقد قرر القعود لم يسلم من أبى جهل وعقبة بن أبى معيط ، إذ دخلا عليه ومعهما مجمرة فيها بخور ، ومكحلة ومرود وقال له عقبة « يا أبا على استجمر فإنما أنت من النساء » ، وقال أبو جهل « اكتحل أبا على فإنما أنت امرأة » ، فقال لهما أمية « ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى » ، وخرج معهم ، ولم يبق بمكة متخلف قادر على القتال .

نعود إلى أبى سفيان فنجده يسبق العير ، يتلمس الأخبار عن محمد ، خوفاً من أن يكون قدسبقه إلى الطريق ، فلما ورد الماء قرب بدر وجد مجدى بن عمرو فسأله هل رأى أحداً ؟ ، فقال له مجدى « رأيت رجلين أناخا إلى هذا التل . » فأسرع أبو سفيان إلى المكان وعرف أن الرجلين من المسلمين(١) ، فعاد إلى أصحابه وعدل سيره عن طريق ساحل البحر ، حتى بعد ما بينه وبين محمد ونجا بذلك مع عيره .

---

(١) عند ما وصل أبو سفيان الى التل تناول بعرات من فضلات الراحلتين ثم فتها فإذا فيها النوى فقال « هذه والله علائف يثرب » وأدرك أن الرجلين من رجال محمد وأن جيشه قريب منه .

وعلمت قريش بنجاة تجارتهم عندما بعث إليهم أبو سفيان يقول « إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيونكم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا . »

ورأى من قريش رأيه عدد غير قليل ، وعارض أبو جهل الذى قال « لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

« نزلت قريش منازل القتال ، وبعثوا عمير بن وهب الجمحى يتقصى لهم خبر المسلمين ، فركب فرسه وجال به حول معسكر النبى ، ثم رجع إليهم وقال « ثلثمائة أو يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا لا كمين لهم ولا مورد ولكنهم قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم فلا يموت الرجل منهم قبل أن يقتل رجلا مثله . »

وأبدى رجل من قريش « هو عتبة بن ربيعة رغبته فى إيقاف القتال وفى العودة إلى مكة ، فقد جاءه حكيم بن حزام بعد أن سمع مقالة عمير ، وقال له « يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ، فقال له « وما ذاك » قال حكيم « ترجع بالناس » فقام عتبة خطيبا وقال « يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لمكروه » .

وغضب لهذه الدعوة أبو جهل وبعث إلى عامر بن الحضرمى يقول له « هذا حليفك[1] يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينيك ، فقم فانشد مقتل أخيك . »

---

(١) قتل واقد بن عبد الله فى سرية عبد الله بن جحش الى نخلة عمرو بن الحضرمى وتحالف عتبة مع أخيه عامر ليأخذ بالثأر .

وعاد بنو زهرة ، وهم أخوال الرسول إلى مكة ، ولم يشتركوا فى القتال وكذلك رجع طالب بن أبى طالب ، وأراد بنو عبد المطلب العودة ، ولكن حال أبو جهل بينهم وبين ذلك .

ولم يعد هناك مفر من الحرب .

الاشتباك

برز رجل من صفوف قريش هو الأسود بن عبد الأسد المخزومى - وكان رجلا شرساً سيء الخلق شديد العداوة لرسول الله - وقال : « أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . » وخرج له من صفوف المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة ضربة أطاحت بنصف ساقه ووقع على ظهره والدم يسيل من رجله ، ثم زحف حتى وصل إلى الحوض فشرب منه وركله برجله الصحيحة فهد جزءاً منه ، فأسرع حمزة وضربه حتى قتله .

وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة ، وابنه الوليد ، ودعا المبارزة ، فخرج له ثلاثة أخوة من الأنصار هم معوذ ومعاذ وعوف ، فقال لهم عتبة « من أنتم ؟ قالوا « رهط من الأنصار » ، فقال لهم « مالنا بكم من حاجة ، نريد قومنا ، يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا » فقال الرسول « قم ياعبيدة بن الحرث ، وقم ياحمزة ، وقم ياعلى .. قوموا يابنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله . » فبارز عبيدة عتبة ، وحمزة شيبة ، وعلى الوليد ... أما حمزة فقتل شيبة ، وقتل على الوليد ، أما عبيدة فقد أصيب بضربة من عتبة ، فجذبه على وحمزة إلى الرسول الذى أكرمه بأن وضع على قدمه الشريفة خده وقال له « أشهد أنك شهيد . »

وفى صبيحة يوم الجمعة الموافق سبعة عشر من رمضان بدأ الالتحام .

وكان الرسول قد قام يعدل صفوف المسلمين ، فلما شاهد قوة المشركين وكثرة عددهم ، عاد إلى عريشه ومعه أبو بكر ، وهو أشد ما يكون خوفاً

واستقبل القبلة ، واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل ينشده ما وعده به ، وأخذ يردد « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

ومازال يدعو ربه ، حتى سقط رداؤه ، وجاء أبو بكر يرد الرداء على منكبيه ، ويقول له « يا نبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك » ، وظل الرسول فى مكانه ، يدعو ربه ، حتى خفق خفقة من نعاس ، رأى خلالها نصر الله . فقال لأبى بكر « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع » ، ثم خرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، ونزل قوله تعالى :

« يَأَيُّها النَّبِيُّ حرِّضِ المُؤْمنينَ عَلَى القتالِ إنْ يكنْ منكمْ عشْرونَ صَابِرُونَ يَغلبوا مائتَيْنِ وإن يكنْ منكم مائَةٌ يَغلبوا ألفًا منَ الَّذينَ كفرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفقهونَ . الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكمْ وعَلِمَ أنَّ فيكمْ ضَعْفًا فإنْ يكُنْ منكمْ مائَةٌ صابِرَةٌ يَغلبوا مائَتَيْنِ وإنْ يكُنْ منكُمْ ألْفٌ يَغلبوا ألفَيْنِ بِإذنِ اللهِ واللهُ معَ الصَّابرينَ »[1].

وخرج الرسول إلى قواته المقاتلة ، يدفعهم إلى مقاتلة العدو ، وينظم لهم صفوفهم ، ويقودهم فى أولى معاركهم ضد حلفاء الضلالة وجند الوثنية ، وكان يقول لجنده « إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل واستبقوا نبالكم على بعد فإن الرمى مع البعد غالباً يخطىء » ، « لا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » ، وخطبهم خطبة حثهم فيها على الثبات والصبر ، « إن العبد فى مواطن البأس مما يفرج الله عز وجل به الهم وينجى به من الغم » .

واشتد القتال ووجه المسلمون همهم الأكبر إلى سادات قريش يريدون

---

(١) سورة الأنفال ٦٤/٦٥

استئصالهم فقد عذبوهم وصدوهم عن المسجد الحرام ، ولمح بلال أمية بن خلف وابنه وكان أمية هو الذى عذب بلالا فقال بلال : «أحد ... أحد ... أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا» . وقتله بلال ، وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل(١) ، وأخذ الرسول حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال : «شاهت الوجوه» ، ثم أمر أصحابه قائلا : «شدوا» فشد المسلمون ونزل قوله تعالى :

« إذْ يوحِي ربُّكَ إلَى المَلائكةِ أنِّي مَعكُمْ فثبِّتوا الَّذينَ آمنُوا سَأُلقِي فِي قُلوبِ الَّذينَ كفرُوا الرعْبَ فاضربوا فَوْقَ الأعنَاقِ واضرِبوا مِنهُمْ كلَّ بنَانٍ »(٢) «فلَمْ تَقْتلُوهُمْ وَلكنَّ اللهَ قَتلهُمْ وَما رميْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلكنَّ اللهَ رَمى »(٣) .

وفر سادة قريش ، وفر أيضاً جيش قريش وانتصر المسلمون . وكانت معركة بدر الكبرى فى صالح محمد ورجاله .

بعد المعركة

ولى أهل مكة الأدبار ، كاسفاً بالهم ، خاشعة من الذل أبصارهم . لا يكاد أحدهم يلتقى بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلا من سوء ما حل بهم جميعاً . . وأخذ الحيسمان بن عبد الله الخزاعى يحث الطريق إلى مكة ، حتى كان أول من دخلها ، وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها فى سادتها وأشرافها وكبريائها .

أما المسلمون فقد بعثوا عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة يلقيان على أهل المدينة ، بما فتح الله على المسلمين من البصر ، ثم بقوا ببدر إلى آخر النهار

---

(١) قيل ان ابنى عفراء شدا على أبى جهل وتركاه بين الحياة والموت ثم مر به عبد الله بن مسعود فجثم فوق صدره وجعل يهوى عليه بسيفه حتى خمد

(٢) سورة الأنفال ١٢

(٣) سورة الأنفال ١٧

يجمعون قتلى قريش ويدفنونهم فى قليب حفروه لهم ، وروى أن الرسول عندما رآهم قال « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس » .

وفى الليل بقى الرسول وأصحابه يجمعون الغنيمة ويسهرون على الأسرى ، وفى جوف الليل استمع المسلمون إلى صوت الرسول وهو يقول « يا أهل القليب ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! يا أمية بن خلف ! يا أبا جهل ابن هشام (واستمر يذكر من فى القليب واحداً بعد واحد) يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » ، فقال له المسلمون « يا رسول الله أتنادى قوماً جيفوا ! ! » فقال عليه السلام « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى »[1] .

وحدث خلاف كبير حول الغنيمة فالبعض[2] يقول « نحن جمعناها فهى لنا » والآخر[3] يقول « نحن والله أحق بها ، فلولا نا لما أصبتموها » ، وقال آخرون[4] « ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ، ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكن خفنا على رسول الله كرَّة العدو فتمنا دونه » . وأنزل الله :

« يَسألونَكَ عَنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ للهِ وَالرَّسولِ فاتَّقُوا اللهَ وَأصْلِحُوا ذاتَ بَينِكُمْ وأطيعوا اللهَ وَرَسولَهُ إن كُنتُم مُؤْمِنينَ . »[5]

وحسم الرسول الموقف فجمع الغنيمة كلها وحجز لنفسه منها الخمس ، ووزع الباقى تنفيذاً لأمره تعالى :

---

(١) تنكر عائشة هذا الحديث محتجة بقول الله « وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير » ، وتقول إن النص الذى قاله الرسول « ما أنتم بأعلم لما أقول منهم . » (كتاب فقه السيرة)

(٢) من جمعوا الغنائم

(٣) من كانوا يطاردون العدو حتى هزيمته

(٤) من كانوا يحرسون الرسول خوفاً من أن يرتد إليه العدو .

(٥) سورة الأنفال ١

«وَاعْلَموا أنَّما غَنِمتُمْ مِنْ شَيْءٍ فأنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسولِ وَلِذِى القُرْبى واليتامَى والمَساكينِ وابنِ السَبيلِ إنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزلنا عَلَى عَبدنا يومَ الفُرْقانِ يومَ التَقَى الجَمعانِ واللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَديرٌ.»[1]

نتائج الموقعة

١ — فى جانب المسلمين

١ — أنجز الله وعده، وأعز جنده، وتم للمسلمين النصر، وأعز من حضرها من المسلمين، فهو عند الله من الأبرار، وقد قال الرسول «لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»، وبهذه الغزوة، وبهذا الانتصار استقر الأمر للمسلمين فى بلاد العرب جميعاً، وكانت هذه الغزوة مقدمة وبداية للامبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف.

٢ — وضع مبدأ هام فى توزيع الغنيمة وتقرر، بناء على أمر الله تعالى، فى سورة الأنفال الذى سبقت الإشارة إليه أن يكون للرسول الخمس، وأن يكون لورثة الشهيد حصة، ولمن تخلف عن الحرب وكان قائماً بالعمل للمسلمين حصة، ومن تخلف لعذر قبله الرسول حصة.

٣ — أيقن المشركون والمنافقون واليهود[2] الموجودون بالمدينة أن موقفهم بعد انتصار الرسول على قريش قد أصبح ضعيفاً ركيكا، فما كاد المسلمون يعودون إلى المدينة معتزين بالنصر، حتى أخذت هذه الطوائف تغرى بهم وترسل الأشعار فى التحريض عليهم، وتدبر ضدهم، وامتلأت نفوس أفرادها بالغل والحقد والضغينة، وقد اضطر المسلمون إلى قتل أبى عفك أحد بنى عمرو بن عوف لأنه ظل يقول الشعر طعناً فى الإسلام

---

(١) سورة الأنفال ٤١

(٢) لم يصدق هؤلاء نبأ انتصار الرسول الذى حمله إليهم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فقالوا «إن محمداً قتل وأصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعاً، ولو أنه انتصر لبقيت عنده وإنما يقول زيد مايقول هذيانا من الفزع والرعب.»

وفى رسول الله ، وتحريضاً للغير للخروج على المسلمين ، فذهب إليه سالم بن عمير ووضع سيفه على كبده وقتله ، واضطر المسلمون أيضاً إلى قتل عصماء بنت مروان من بنى أمية بن يزيد ، فقد ظلت تعيب الإسلام وتؤذى الرسول وتحرض عليه ، فجاءها عمير بن عوف وقتلها[1] .

كما اضطر المسلمون إلى قتل كعب بن الأشرف ، وهو الذى قال حين علم بانتصار الرسول : « بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم » . وهو الذى ذهب إلى مكة يحرض أهلها على الرسول ويبكى أصحاب القليب ، حتى أثار ذلك جمعاً من المسلمين ، فدفعوا إليه أحدهم يستدرجه بعيداً عن بيته ثم صاح : « اضربوا عدو الله » فضربوه بأسيافهم حتى مات ، وقد أدى هذا التنافر بين المسلمين واليهود إلى اشتباك الطرفين كما سنوضحه فيما بعد .

٤ — وضع الرسول بعد بدر مبدأ خاصاً بمعاملة الأسرى سنتعرض له فى حديثنا عن الأسرى فى باب قادم .

٢ — فى جانب قريش

أذهلت الهزيمة قريشا وأضاعت صواب أهلها ، حتى أن أبا لهب حُمّ على أثر سماعه نبأ الهزيمة المرة ومات بعد سبعة أيام . . . وتشاورت قريش فى الموقف ، وأجمعت على ألا تنوح على قتلاها مخافة أن تثير شماتة المسلمين ، وعلى ألا تبعث فى أسراها ، حتى لا يتشدد عليها الرسول ويغلو فى الفداء ، وبرغم هذا الذى أجمعت عليه فإنها أخذت تفتدى أسراها ، وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل ، وقيل ألف ، وأما من لا شىء عنده ، فإن الرسول من عليه بحريته .

وأخذت نساء قريش ينحن ويبكين على قتلاها شهراً كاملا ، فجززن شعر رءوسهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه ويجتمع حولها النساء وينحن ،

---

(١) أقبل بنوها على عمير وقالوا له : « يا عمير أنت قتلتها ؟ » قال : « نعم فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى حتى أموت أو أقتلكم » .

ولم يخالف هذا سوى هند بنت عتبة زوج أبي سفيان .. قالت لها بعض النسوة : «ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟» فقالت : «أنا أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بنى الخزرج، لا والله حتى أثأر من محمد وأصحابه ، والدهن على حرام حتى نغزو محمداً ، والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعيني من قتلة الأحبة » .

وأما أبو سفيان فنذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً .

ومن هذا يتضح أن قريشاً قبلت الهزيمة مضطرة ، وأنها لابد آخذة بالثأر من محمد وأصحابه ، حتى انه اجتمع فى دار الندوة جبير بن مطعم ، وصفوان ابن أمية ، وعكرمة ابن أبي جهل والحارث بن هشام ، وحويطب بن العزى ؛ وقرروا أن تباع العير التى كانت سبب الموقعة ، والتى عاد بها أبو سفيان من الشام ، وتعزل أرباحها ويجهز بها جيش لقتال محمد ، وأن تستنفر بها القبائل فيشاركوا قريشاً فى أخذهم بالثأر ، وقد استنفروا أبا عزة وهو شاعر عفا عنه النبي وكان ضمن أسرى بدر ، واستنفروا بعض من اتبعهم من الأحباش ، وصممت النسوة على أن يخرجن مع الغزاة .

الدروس المستفادة

وبرغم أن بدراً تعد أول غزوة من غزوات جيش الإسلام ، وبرغم أنها المرة الأولى التى يقف فيها الرسول الكريم موقف المحارب ، فإننا نستخلص من هذه الغزوة دروساً حربية لها قيمتها فى مجال الحرب ، ومبادئ خطيرة لها شأنها فى سير المعركة ، وبرغم اختلاف العصر الذى نعيش فيه الآن ، والعصر الذى تمت فيه غزوة بدر فإن هذه المبادىء لم تتغير ولم تتبدل لأنها الأساس السليم لكل حرب فى كل عصر ، ومن عجب أن هذه الأسس نراها واضحة ظاهرة فى حروب الرسول ، أى فى الحروب التى استخدم فيها السيف والرمح والقوس .

ومن أهم هذه الدروس :

١ ــ أهمية القضاء على قوة العدو الاقتصادية ، ووضعها فى المقام الأول لأن فى القضاء عليها قضاء على القوة العسكرية ، ولقد أدرك ذلك الرسول واهتم به إذ يثبت هذا الاهتمام من الغزوات الأولى والسرايا التى بعث بها قبل بدر ، فقد كان هدفه الأول منهـا القضاء على تجارة وقوافل قريش ، ونحن فى عصرنا هذا نسمع عن الحرب الاقتصادية والحصار الاقتصادى ، وهما السلاح الذى استخدمه الرسول .

٢ ــ الشورى هامة جداً فى الميدان ووقت الحرب ، فالقائد الحكيم هو الذى يستشير جنده وخبراءه ليعرف منهم الخطة السليمة الصحيحة التى تؤدى إلى النصر ، ومما لا شك فيه أن خطة توضع بعد دراسة أفراد عديدين وبعد مشاورات ومناقشات خير من خطة ينفرد بها فرد واحد .

٣ ــ أهمية القوى المعنوية للمحاربين ، وكل القادة يبدون اهتماماً كبيراً بهذه القوى ، لا يقل عن اهتمامهم بالقوى المادية وقد قال نابليون إن نسبة القوى المعنوية فى الميدان إلى القوى المادية كنسبة ٣ : ١ والقوى المعنوية هى العامل الأول الذى دفع بالمسلمين إلى النصر برغم قلة عددهم وكثرة عدوهم .

٤ ــ تلاحظ أن الرسول اهتم اهتماما بالغا بالاكتشاف والاستطلاع ، وأنه كان يقوم بنفسه تقديراً منه للنتـــائج الخطيرة التى تترتب على الكشف السليم الصحيح كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يختار من يثق بهم لأداء هذه المهمة الخطيرة .

٥ ــ تنظيم أعمال الجواسيس والقناصة واختيار الصالحين لهذه العملية وعدم فرض فرد معين للقيام بهذا العمل الذى يحتاج إلى روح عالية ورغبة أكيدة .

٦ ــ تكتيك الحرب الذى يبدو واضحاً فى السرية التامة فى التحركات ، وبخاصة خلال العملية ، فاحتلال المسلمين لمواقع المياه تنفيذاً لرأى الحباب

ابن المنذر تم فى منتصف الليل حتى لا يشعر بهم العدو ، والرسول كان يأمر جنده بأن يظلوا فى أماكنهم لا يتحركون أو يتحدثون أو يأتون بما يثير انتباه أعدائهم ، وكانوا بذلك يتركون عدوهم يتقدم ويتقدم ، ويظل فى تقدمه حتى إذا أصبح فى مرمى النبال ألقوها عليه فتصيب منه العدد الكبير ، فوق ماتحدثه المفاجأة فى نفسه فيرتبك ويضطرب وتكثر إصاباته ويزيد عدد قتلاه .

٧ – الأساس السليم الذى وضعه الرسول فى توزيع الغنيمة ، وواضح أن الرسول جعل حصة للمجاهد فى الصف ، وحصة للمجاهد خلف الصفوف ، وحصة للعاجز الذى وقف عجزه أمام اشتراكه فى المعركة ، وحصة لأسرة الشهيد الذى دفع حياته ثمناً لدينه ولرسالة نبيه .

٨ – معاملة القتلى من الأعداء ، فإن النبى قضى نهار يوم بدر يجمع قتلى قريش ويدفنهم فى القليب ، وهذه روح جليلة ومبدأ إنسانى كريم لا نجد له مثيلا فى الحروب المختلفة فى مختلف العصور والأزمان ، ولا يغيب عن بالنا ما سمعناه من قصص التمثيل بالقتلى وحرق الجثث وتقطيعها وتشويهها .

٩ – معاملة الأسرى معاملة كريمة ، فإن الرسول قبل الفداء ، وفوق هذا أطلق سراح الأسير الفقير الذى لا مال له ولا شىء عنده يفتدى به نفسه .

١٠ – الروح السمحة فى الحرب ، فإن الرسول أصدر أوامره إلى المسلمين ألا يقتل أحد من بنى هاشم ، وألا يقتل بعض أشراف مكة . برغم أنهم اشتركوا فى القتال ، وكان الدافع لذلك أن الرسول كان يذكر لبنى هاشم منعهم إياه منذ بعثه إلى هجرته ، حتى أن عمه العباس كان معه ليلة بيعة العقبة ، وذكر لغير بنى هاشم ما قاموا به وهم على الكفر ، يطالبون بنقض الصحيفة التى اضطرت بها قريش الرسول أن يلزم هو وأصحابه الشعب . . لقد اعتبر محمد هذا كله حسنة يجزى مقدمها بمثلها بل بعشرة أمثالها .

١١ – ضرورة تغلغل العقيدة فى نفوس المحاربين ، فإن العقيدة المتغلغلة فى نفوس المسلمين بلغت منهم منزلة تسمو على صلات الرحم والقرابة ، فكان

الرجل منهم يقتل أباه أو أخاه أو عمه أو قريبه من المشركين لا تأخذه فيه شفقة أو رحمة، فها هو ذا عبد الرحمن ابن أبى بكر يقول لأبيه بعد إسلامه «يا أبت، لقد أهدفت لى يوم بدر مرارا فصدفت عنك»، فقال له أبو بكر: «لو كنت أهدفت لى أنت ما صدفت عنك»، وجاء فى السيرة الحلبية أن الرسول نظر فى وجه أبى حذيفة بن عتبة فألفاه كئيباً قد تغير لونه فقال «لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء؟» فقال «لا والله يارسول الله!! ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحكما مفضلا. فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما كان عليه من الكفر، بعد الذى كنت أرجو له، أحزننى أمره..»

١٢ — الجزاء الذى فاز به المجاهدون فى سبيل الله.. خرج الرسول يوم بدر فى ثلثمائة وخمسة عشر رجلا من أصحابه، فلما انتهى إليها قال «اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم..»، ففتح الله يوم بدر، وما رجل منهم إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا جميعا وشبعوا[١]

وروى أن أم حارثة بن سراقة، وقد قتل يوم بدر، جاءت الرسول وسألته «يارسول الله. أخبرنى عن حارثه؟ فإن كان فى الجنة صبرت، وإلا فليرين الله ما أصنع» فقال لها الرسول «ويحك أهبلت؟ إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[٢]

محمد ويهود بنى قينقاع

كان يهود بنى قينقاع أغنى يهود المدينة جميعاً، لأنهم كانوا صاغة أبطرهم الغنى وجرفهم الحسد لرسول الله والتفاف الأنصار حوله عن سواء السبيل،

(١) عن عبد الله بن عمرو.
(٢) عن أنس بن مالك.

وضايقهم أن يروا هذا الرجل الذى وفد عليهم منذ أقل من عامين فاراً مهاجراً من مكة ، يزداد سلطاناً وبأساً ، ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعاً لا فى أصحابه وحدهم .

مستصغر الشرر !

ذهبت امرأة من الأنصار إلى سوق لبنى قينقاع تبيع بضاعة لها ! وجلست إلى صائغ ، فجاء جماعة من اليهود وجعلوا يراودونها عن كشف وجهها . فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وقيل فى رواية أخرى أثبته بشوكة إلى ظهرها ، وهى لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، وضحكوا منها ، فصاحت ، ووثب إثر صيحتها رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، ووقع الشر بين المسلمين وبين يهود بنى قينقاع ، وبلغ الخبر النبي فقال « ما على هذا أقررناهم » ثم دعا اليهود وقال لهم « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة فإنكم قد عرفتم أنى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله تعالى إليكم به » ، فقالوا « يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وإنك لم تلق مثلنا » ، وأنزل الله تعالى فيهم :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا » .

كان بنو قينقاع أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا ، واعتزم الرسول حربهم ، وكان متهيباً من هذه الحرب ، فأنزل الله قوله :

« وإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَواءٍ »[1].

فقال الرسول على أثر نزول هذه الآية : « إنى أخاف من بنى قينقاع » ، واعتزم حربهم مستنداً إلى ما رخص له الله فيه من ذلك .

(١) سورة الأنفال ٥٨

وكان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، فلما علم عبادة بن الصامت ، أحد رؤساء الخزرج ما كان من الإذن فى حربهم ، تبرأ من حلفهم ، فى حين تمسك عبد الله ابن أبى بهذا الحلف ، وهو يقول « أخشى الدوائر » ، وأنزل الله تعالى :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ » .

الحصـــار

أعد الرسول جيشاً كبيراً ، حمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصارى ، وكان ذلك فى منتصف شوال ، ولما علم اليهود بمسير الجيش الإسلامى ، تبخرت شجاعتهم ، وهربوا إلى حصونهم وقبعوا فيها ، وتحصنوا وراءها ، فأمر الرسول بحصارهم ودام الحصار خمسة عشر يوما ، لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل عليهم بطعام أحد ، حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه ، وأعلنوا استسلامهم ، فقرر الرسول بعد مشورة كبار المسلمين قتلهم جميعاً ، فأسرع عبد الله بن أبى إلى الرسول ، وكان حليفاً لليهود والمسلمين وقال « يا محمد أحسن فى موالىّ » ، وجاء عبادة بن الصامت يحدث الرسول فى أمر اليهود وقال « أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعونى من الأحمر ، والأسود تحصدهم فى غداة واحدة » وقبل الرسول وساطة الرجلين وقال لابن أبى « هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها » ، وتقرر أن يجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاء لهم ، وحاول ابن أبى أن يبقى عليهن فى المدينة ، فحال أحد المسلمين بينه وبين الحديث فى هذا الرجاء إلى الرسول ، واشتجر حتى شج عبد الله ، فقالت بنو قينقاع « والله لا نقيم ببلد

تشج فيه يابن أبىّ ولا نستطيع عنك دفاعاً ، ، ثم غادروا المدينة إلى أذرعات بالشام تاركين وراءهم سلاحهم وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغونه .

مناوشات قبل أحد

١ ـ أقسم أبو سفيان بعد بدر ألا يمس النساء وألا يغسل بدنه بماء ، حتى يغزو محمداً ، ليثأر لقتلى بدر وليعيد إلى الأذهان ، أن قريشاً مازالت بخير وأنها ما زالت لها قوتها وعصبيتها ، وأنها قادرة أبداً على الغزو والقتال ، ولذلك جمع مائتى راكب من قريش وسار بهم مستخفين ، حتى وصلوا إلى ناحية قريبة من المدينة يقال لها العـرَيض ، فوجدوا رجلا من الأنصار وحليفاً له فقتلوهما ، وحرقوا بيتين ونخيلا ، ثم ولوا هاربين عندما خرج إليهم الرسول ، وكانوا فى أثناء هربهم يلقون بالزاد الذى معهم من السويق ، وكان المسلمون فى مطاردتهم يأخذون ما يلقى ، ولما وجد الرسول أن الفارين أمعنوا فى الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة وسميت الغزوة بغزوة السويق .

٢ ـ بلغ الرسول أن جمعا من غطفان تحت قيادة أحدهم ويسمى دُعثور ، اعتزم الاعتداء على المسلمين . فخرج إلى قرقرة الكدر فى أربعمائة وخمسين رجلا ، ليأخذ عليهم الطريق ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ، ولما سمع الجمع بمسير الرسول إليهم ، تفرقوا وهربوا فى رءوس الجبال . . . وحدث أن انتحى الرسول جانباً ونزع سلاحه ليستريح قليلا ، وكان رئيس غطفان (دعثور) يراقبه من بعيد ، فلما رأى انفراده وتجرده من سلاحه تسلل ، ووقف شاكى السلاح فوق رأسه وقال « من يمنعك منى يا محمد ؟ » فقال الرسول فى هدوء « الله » ، فسقط السيف من يده ، فالتقطه الرسول وقال له « من يمنعك منى ؟ » قال « لا أحد » فعفا عنه الرسول وأسلم الرجل ودعا قومه إلى الإسلام .

٣ ـ علم الرسول أن جمعاً من بنى سليم يهم بغزو المدينة ، فسار إليه فى ثلثمائة من أصحابه واستخلف على المدينة ابن مكتوم ولما وصل إلى بحران وجد القوم قد تفرقوا خوفاً وفزعاً ، فرجع إلى المدينة دون قتال .

٤ — تجمع بعض من بنى ثعلبة ومحارب يريدون إصابة أطراف المدينة ، فخرج عليه السلام فى أربعمائة وخمسين ، ولقى فى طريقه رجلا من ثعلبة ، فسأله عن القوم ، فقال له الرجل « إنهم يا محمد سمعوا بمسيرك فهربوا فى رءوس الجبال ، وأنا سائر معك ودالك على عورتهم » .

الحصار الاقتصادى

إن مكة تعيش على التجارة ، وعمل قريش الأول هو التجارة مع الشام ، وطريق التجارة إلى الشام محفوف بالخطر ، فالمسلمون فى طريقه يهاجمون القوافل ، ويقطعون عليها الطرق . . . وكان الرسول يقصد بذلك هدم اقتصادياتهم وبالتالى هدم قوتهم العسكرية . . .

وقف صفوان بن أمية يقول لسادة قريش « إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسكن ، وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف ، وإلى الحبشة فى الشتاء » .

وأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن « تنكب الطريق إلى الساحل وخذ طريق العراق » ودله على فرات بن حيان من بنى بكر بن وائل ليدلهم على الطريق ، وقال لهم فرات « طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد ، فإنما هى أرض نجد وفياف » .

ولما علم الرسول بذلك ، بعث زيد بن حارثة فى مائة راكب ، واعترضوا التجارة عند القردة ، ففر الرجال ، وأصاب المسلمون العير ، وأسروا فرات ابن حيان ، وعرض عليه الرسول أن يسلم لينجو فأسلم ونجا .

وبذلك قطع الرسول طريق التجارة الجديد ، وبذلك أيضاً أكملت حلقات الحصار التجارى فلم يعد لقريش منفذ إلى الخارج لتصريف تجارتهم ، وسدت فى وجهها الأبواب والسبل .

وقد حزنت مكة لهذه النكبة الجديدة، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة بثأرها، والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة. فكان ذلك وما سبقه من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد فى السنة الثالثة للهجرة.

الدروس المستفادة من العمليات بعد بدر:

١ - استخدم الرسول الحصار فى حربه، والحصار يعرف فى عصرنا هذا بالتطويق، وهو يمنع القوات المحاربة من الاتصال بقوات أخرى، كما يمنع عنها وصول الماء والتعيين والذخيرة والمدد، وبمرور الوقت ينتهى ما تحتفظ به القوات المحاصرة، ولا تستطيع إستعواض المستهلك فلا يبقى أمامها إلا التسليم، وبتطور استخدام الطيران فى الحروب الحديثة أصبح من السهل التغلب على الحصار بتموين القوات المحاصرة من الجو، ومدها بما يلزمها من السلاح والذخيرة والعتاد.

٢ - الروح الإنسانية النبيلة المسيطرة على الرسول، وهو فى الميدان عندما هدده دعثور - رئيس غطفان - بالقتل. حتى إذا ما وقع دعثور بين يدى الرسول، منحه الصفح والحرية، وكان فى استطاعته قتله، وهذه الروح الإنسانة النبيلة كان لها أثرها فى نفس دعثور، فأعلن إسلامه، ودعا أهله إلى الدخول فى الإسلام.

٣ - أهمية الروح المعنوية للقوات المحاربة فى الميدان... فإن بنى سليم وبنى محارب وبنى ثعلبة حينما تجمعوا لمحاربة الرسول وأصحابه هربوا فى الجبال وتفرقوا، عندما سمعوا بتحرك الرسول إليهم لمواجهتهم ومقاتلتهم، وهذا دليل كبير على أن الحالة المعنوية لدى هؤلاء كانت معدومة وضعيفة، ولاشك فى أن قوة الرسول وأصحابه وشدتهم فى القتال هى التى دفعت بهؤلاء إلى الفرار تهربا من اللقاء.

٤ - أهمية الحصار الاقتصادى خلال الحرب وأثره البالغ فى الإمداد والتعبئة، فما لا شك فيه أن قريشاً كانت فى حاجة إلى أن تنتعش تجارتها لتزيد مالها، فيزيد تبعاً لذلك سلاحها، ويتوفر لديها العتاد، لتقضى به على دعوة

محمد ، وليظل دينها هو الدين السائد فى بلاد العرب ، ولقد أدرك الرسول ذلك فعمد إلى طعن اقتصاديات قريش ، وإلى القضاء على تجارتها ، فتعرض لقوافلها ولعيرها ، وقطع على تجارتها السبل إلى الشام وعرقل وسائلها ، فأصاب اقتصادياتها ، وأضعف مجهودها الحربى نتيجة لضعف اقتصادياتها .

ولا يفوتنا أن نبرز أهمية المحالفات والمعاهدات التى ارتبط بها الرسول مع القبائل المقيمة على طريق التجارة إلى الشام ، وأثر هذه المحالفات والمعاهدات فى تقوية موقف الرسول وتدعيمه وازدياد الحرب الاقتصادية ضد قريش .

غزوات الرسول

(٢)

- غـزوة أحـد
- سريتا أبى سلمة وابن أنيس
- محمد ويهود بنى النضير
- غزوات قبل الخندق

غزوة أحد

أسباب الغزوة

(١) من وجهة نظر قريش :

شاءت قريش أن تنتقم من المسلمين لهزيمتها فى بدر ، وأن تثأر لقتلاها ، فقد كانت ترى فى هزيمتها لطمة وعاراً ، وإصابة خطيرة لها فى مركزها بين القبائل .

ورأت كذلك فى غزوة السويق أنها لم تغنها شيئاً .

ووجدت أن سرية زيد بن حارثة ، قد أخذت تجارتها حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام .

وأثار ذلك كله قريشاً ، فقررت أن تعد جيشاً جراراً تقضى به على محمد ، وتزيل آثار هزيمتها فى بدر ، وتعيد طريق التجارة حراً آمناً إلى الشام .

(٢) من وجهة نظر المسلمين :

بلغ العباس عم الرسول النبى أن قريشاً قد اجتمعت وقررت أن تخرج إليه ، ووجد الرسول نفسه مرة أخرى أمام قريش وجهاً لوجه ، يدافع عن دينه الجديد الذى يدعو إليه ضد قريش ، التى جاءته برجالها وأشرافها ، لتعمل على هدم هذا الدين وتقويض أركانه .

الاستعداد

(١) من جانب قريش :

ذهب عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن امية ومعهم كثيرون إلى أبى سفيان ، وإلى كل من كان له تجارة فى العير التى كانت سبب غزوة بدر ، وكانت تلك العير فى دار الندوة ، كما هى ، لم تعط لأربابها

فقالوا « إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينوا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً عمن أصاب منا ، ونحن طيبو النفس ، أن تجهزوا بربع هذه العير جيشاً إلى محمد » فقال أبو سفيان : « وأنا أول من أجاب إلى ذلك » .

واتفقت قريش أن يكون إعداد الجيش من ربح المال ، وكانت رءوس الأموال خمسين ألف دينار ، وكان الربح لكل دينار ديناراً فكان ما أخرج لتجهيز الحملة خمسين ألف دينار .

وأثارت قريش القبائل للانضمام إليها فى حربها ضد محمد ، فقد قال صفوان ابن أمية لأبى عزة الشاعر « يا أبا عزة ، إنك شاعر ، فأعنّا بلسانك ، ولك علىّ إن رجعت أن أغنمك ، وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر »[1] .

وأصرت النسوة على أن يسرن مع الغزاة ، فتشاور القوم ، فمن قائل بخروجهن « فإنه أقمنُ أن يحفظكم[2] ويذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا ، حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » ، ومن قائل « يا معشر قريش هذا ليس برأى أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدّبرة[3] عليكم فتفضحوا فى نسائكم » ، وبينما هم يتشاورون ، خرجت عليهم هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وصاحت « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ! نعم ، نخرج ، فنشهد القتال ، ولا يردنا أحد ، كما ردت الفتيات فى سفرهم إلى بدر ، حتى بلغوا الجحفة[4] فقتلت الأحبة يومئذ » .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشياً يقال له وحشى ، كان يقذف بحربة له

---

(١) أبو عزة الشاعر وقع أسيراً فى بدر فذهب إلى الرسول يطلب منه الصفح والأمان وفك أسره ، فأجابه الرسول إلى طلبه على ألا يظاهر عليه وأطلق سراحه ، ومع ذلك أقنعه صفوان بالخروج مع قريش ، يعينها بشعره ولسانه ووقع فى الأسر مرة ثانية فأمر الرسول عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

(٢) يغضبكم

(٣) الدبرة بمعنى الهزيمة ويجوز استخدامها بمعنى النصر .

(٤) مكان بين مكة والمدينة وهى ميقات أهل مصر والشام .

قذف الحبشة ، فلا يخطىء القذف ، فقال له « اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب بعمى طعيمة بن عدى فأنت حر » . وذلك لأن حمزة كان قد قتل طعيمة يوم بدر ، وقالت له ابنة طعيمة « إن قتلت محمداً أو حمزة أو علياً فى أبى ، فإنى لا أرى فى القوم كفؤاً له غيرهم ، فأنت عتيق » .

وخرجت قريش فى ثلاثة ألوية ، عقدت فى دار الندوة . قوامها ثلاثة آلاف من رجال مكة وسادتها ومواليها وأحابيشها[1] (وهم بنو المصطلق وبنى الهون بن خزيمة) ومعهم مائة من ثقيف ، ومائتا فرس ، وسبعمائة دارع وأخذت قوات قريش معها العدة والسلاح الكثير ، وخرجت معها النساء حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم . وخرجت ضمن الخارجات خمس عشرة امرأة مع أزواجهن ، منهن هند بنت عتبة[2] زوج أبى سفيان ، وأم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة بن أبى جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحرث بن هشام ، وزوجة عمرو بن العاص .

وخرج مع قريش راهب يدعى أبو عامر[3] كان ينكر نبوة الرسول وكان معه سبعون فارساً من الأوس .

واتخذت قريش مواقعها ببطن الوادى من قبل أحد[4] ، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، ودفعت اللواء إلى

---

(١) سموا كذلك بالنسبة إلى جبل حبيش بأسفل مكة ، وقيل لتحبشهم أى تجمعهم .

(٢) كانت هند أشد النسوة رغبة فى الثأر إذ قتل يوم بدر أبوها وأخوها

(٣) كان مترهباً بالمدينة يزعم أنه ينتظر النبى المنتظر ، ويذكر للناس كثيراً من صفاته ، ويقول لهم إنه قد قرب خروجه ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة واتضحت صفاته للأنصار واتبعوه حسده أبو عامر وأنكر نبوته ، وكان رئيساً فى الأوس ، وخرج من المدينة فدعا عليه الرسول أن يموت وحيداً طريداً ، فاستجاب له الله وسمى بالفاسق بدلا من الراهب ، هرب يوم فتح مكة إلى أرض الروم حيث مات كافراً طريداً وحيداً .

(٤) سارت قريش من مكة إلى الأبواء ومرت بقبر آمنة بنت وهب ففكر بعضهم فى نبش قبرها إلا أن الغالبية رفضت ذلك خوفا من أن تنبش قبور موتاهم ، وتابعت قريش مسيرها حتى العقيق ، ثم نزلت عنده بعض السفوح من جبل أحد ، على مسيرة خمسة أميال من المدينة .

عبد العزى طلحة بن أبي طلحة ، وجعلت نساء قريش يمشين خلال الصفوف يضربن بالدفوف والطبول ، وعلى رأسهن هند تردد ويرددن من ورائها .

ويْها بنى عبد الدار ويْها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
مشى القطا البوارق والمسك فى المفارق
إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
وإن تدبروا نفارق فراق غير وامق
عرس المولى طالق

٢ — من جانب المسلمين

كان العباس عم النبي من مكة يرقب فى حذر شديد استعداد قريش لمهاجمة ابن أخيه محمد ، وكان يطلع على كل جليل دقيق من شأنهم ، وكان يخشى على ابن أخيه أن يصيبه سوء ، وبرغم أنه كان ما يزال على دين آبائه ودين قومه ، فإنه كان يحس لمحمد شعور العصبية والإعجاب ، كما أنه لم ينس حسن معاملة محمد له يوم بدر ، ولهذا استأجر العباس رجلا غفاريا ، وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام ، فيدفع إلى الرسول بكتاب كتبه له ، ووصف فيه تجمع قريش وصنيعهم وعدتهم وعديدهم .

ووصل الغفارى إلى المدينة ، فوجد الرسول بقباء فسلمه الكتاب ، ودفع به الرسول إلى أبيّ بن كعب ، فقرأه عليه فاستكتمه محمد ما فيه ، ثم أبلغ الرسول خبر الكتاب إلى سعد بن الربيع واستكتمه إياه ، إلا أن زوج سعد كانت بالمنزل ، وسمعت ما دار بين زوجها وبين الرسول ، فأسرع سعد إلى النبي يخبره بخبرها ويقول له : « إنى خفت أن يفشو الخبر ، فترى أنى أنا المفشى له ، وقد استكتمتنى إياه .» ، فقال له الرسول : « خل عنها » وبذلك لم يعد الأمر سرا .

وقدر الرسول موقفه واتخذ خطوات حاسمة هى :

١ – أصدر الرسول أمره بحراسة المدينة كلها طيلة الليل ، خوفاً من أن تفاجئها قريش بالهجوم ، وجاء فى السيرة الحلبية أن وجوه المسلمين باتت ومعها سلاحها تحمى الرسول .

٢ – بعث الرسول بجماعات استطلاع تأتى إليه بخبر قريش ، فخرج أنس ومؤنس ابنا فضالة يستطلعان أمر قريش ، فوجداها قد قاربت المدينة وقد أطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

ثم خرج الحباب بن المنذر بن الجموح ، وعاد بمعلومات لا تختلف عن المعلومات التى وردت ضمن كتاب العباس .

وخرجت أيضاً جماعة استطلاع ثالثة ممثلة فى سلمة بن سلامة فعاد يحمل خبر اقتراب طليعة خيل قريش من المدينة .

٣ – جمع الرسول أهل الرأى وشاورهم فى الأمر ، وبحث معهم الموقف وتبادلوا الرأى .

كان الرأى الأول للرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يرى أن يتحصن بالمدينة ، وأن يترك قريشاً خارجها ، فإذا حاولت اقتحامها كان المسلمون أقدر على صدها ودفعها وإلحاق الخسائر بها .

وأيد عبد الله بن أبىّ بن سلول[1] هذا الرأى وقال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان ، فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمته

(١) قيل فى بعض المراجع إنه بعد مسير الرسول بقومه فى اتجاه أحد انسحب عبد الله بن أبى فى الطريق بثلث الناس قائلا « ماندرى علام نقتل أنفسنا ؟ » ومحتجاً على أن الرسول ترك رأيه وأطاع غيره ، فتبعهم عبد الله بن حرام ونصحهم بالثبات وذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين ، فأبى ابن أبى الاستماع إليه ونزلت فى ذلك الآية الكريمة « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ... »

النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يارسول الله عذراء ، ما فُضّت علينا قط ، ومادخل علينا عدو فيها إلا اصبناه ، وماخرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله وأطعنى فى هذا الأمر ، فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » .

وكان الرأى الثانى لبعض من الفتية ذوى الحمية ممن لم يشهدوا بدراً وأحبوا الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل ، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج ، وتحصنوا بالمدينة جبناً من اللقاء ، وقال أحدهم : « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ، فيقولوا حصرنا محمداً فى صَياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه مُجرّئة لقريش ، وها هم أولاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نَذُبّ عن عرضنا[1] لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ، ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا ، أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا ! لئن فعلنا لازدادوا جرأة ، ولشنوا الغارات علينا ، وأصابوا من أطرافنا ، ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا » .

وكان من دوافع تأييد القائلين بالخروج ، أنهم إذا انتصروا فهو وعد الله الذى وعدهم به ، وإذا انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة حيث « لا يَسْمعُونَ فِيها لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً »[2] .

وفى ذلك قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يُظفرنا بهم ، أو تكون الأخرى فهى الشهادة ، لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت عليها حريصاً ، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : « الحق بنا ترافقنا

(١) العرض (بكسر العين وسكون الراء) هو كل واد فيه شجر .
(٢) سورة الواقعة ٢٥ .

فى الجنة فقد وجدت ماوعدنى ربى حقاً ، وقد والله يارسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى » .

وانتصر الرأى القائل بالخروج ، وقبل الرسول هذا الرأى ، برغم أنه يختلف مع رأيه فقد قال « إنى أخاف عليكم الهزيمة » فأبوا على هذا إلا الخروج ، فقبل أن ينزل عن رأيه ويتبع رأيهم .

وقام نقاش عنيف حول رأى الرسول فقد قال أَسَيْد بن حضَيْر وسعد بن معاذ للقائلين بالخروج « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه و ما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه » .

ولما رأى القائلون بالخروج ، الرسول وقد لبس درعه وتقلد سيفه ، أقبلوا عليه يقولون « ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك » ، فقال لهم الرسول « فقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم » .

ورغبت كتيبة من اليهود بقيادة ابن أبى أن تسترك معه فى حربه لقريش إلا أن الرسول رفض قائلا « لا يستنصر بأهل الشرك مالم يسلموا » . فانصرفت كتيبة اليهود(١) ، واستعمل الرسول على المدينة ابن مكتوم ، وخرج فى سبعمائة من المقاتلين الأشداء ، وعقد لواء الأوس وجعله بيد أسيد بن حضير وجعل لواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر ، وقيل بيد سعد بن عبادة ، وجعل لواء المهاجرين بيد على بن أبى طالب ؛ ولواء المشركين بيد مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف .

ورد الرسول بعضاً من المسلمين الخارجين ، لصغر سنهم ، ومنهم أسامة ابن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير .

---

(١) راجع هامش صفحة ١٥٠ .

ونزل الرسول ميدان المعركة ، وقد جعل ظهره لأحد ، ووجهه للمدينة فقال عليه السلام للزبير بن العوام « استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه » وأمر الرسول جماعة أخرى بإزاء خيل المشركين ، وقال الحلبي إنه لم يكن مع المسلمين يوم أحد سوى خمسين فرسا ، وجعل النبي عبد الله بن جبير بن النعمان على الرماة وكانوا خمسين رجلا . فأقامهم الرسول على جبل صغير مرتفع وقال لهم : « احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل ، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم فى مكانكم ، اللهم إنى أشهدك عليهم » . وفى رواية أخرى : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل لكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم وهم قتلى ، فلا تبرحوا حتى أرسل لكم » ، وفى رواية ثالثة : « إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا اللهم إنى أشهدك عليهم » .

وأخذ الرسول يمر بين الصفوف يخطب ويحض على القتال ويعد رجاله النصر ما صبروا . ومن أمثلة إثارته لروح الحرب ، أنه مد يده بسيف ، وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، وكان منهم أبو بكر وعمر وعلى والزبير ، ثم قام أبو دجانة سِماكُ بن خرشنه فقال : « وما حقه يا رسول الله ؟ » فقال الرسول : « أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى » وهنا قال أبو دجانة « أنا آخذه يا رسول الله » ، فقال الرسول : « لعلك إن أعطيتكه تقاتل فى الكَبُول[1] » قال : « لا يا رسول الله » وكان أبو دجانة رجلا شجاعاً له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل فأخذ السيف من الرسول وعصب بعصابته — وكان يسميها عصابة الموت — رأسه ومشى مختالا بين الصفوف[2] ، فلما رآه النبي قال : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

---

(١) الصفوف الخلفية .

(٢) كان أبو دجانة يردد :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكبول أضرب بسيف الله والرسول (ابن هشام)

خرج أبو عامر عبد عمرو بن صيفي إلى أحد فى خمسة عشر رجلا من الأوس ومن عبيد أهل مكة ، يحاول أن ينادى أهله المسلمين من الأوس الذين يحاربون فى صف محمد لينحازوا إليه وينصروا قريشاً ، فناداهم « يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر » فأجابوه « لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ! ! » ثم بدأ القتال فى مراحل أربعة :

(ا) المرحلة الأولى وهى التى بدأت فيها الاشتباكات والمبارزات .

(ب) المرحلة الثانية وهى التى قتل فيها حمزة .

(ح) المرحلة الثالثة وهى التى أحرز فيها المسلمون النصر .

(ى) المرحلة الرابعة وهى التى حلت فيها الهزيمة بالمسلمين بعد نصرهم .

المرحلة الأولى

حاول عكرمة بن أبى جهل قائد الميسرة أن يأخذ المسلمين من جناحهم ، ولكن المسلمين رشقوه بالحجارة حتى ولى ومن معه مدبرين .

وظهر حمزة فى ساحة الحرب ، وردد صيحة القتال « أمت ، أمت »[1] ..

وجاءت صيحة طلحة بن أبى طلحة من صفوف المشركين « من يبارز ؟ » ثم سمعه المسلمون يقول لهم : « يا أصحاب محمد زعمتم أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفى إلى الجنة ؟ كذبتم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقاً لخرج بعضكم » . . .

وبرز له على بن أبى طالب ، وتقابلا وجهاً لوجه ، فضربه على ضربة ألقت هامته ، فاغتبط الرسول وكبر ، وكبر خلفه المسلمون ، ثم ضربه علىّ فقطع رجله ووقع على الأرض ، وبدت عورته فقال : « يابن عم أنشدك الله والرحم » . فرجع عنه فسأله الرسول : « ما منعك أن تجهز عليه ؟ » ، قال : « ناشدنى الله والرحم » فقال له الرسول : « اقتله » فعاد إليه وقتله .

---

(١) كان هذا هو شعار المسلمين فى الحرب وهو أمر بالموت والمراد التفاؤل بالنصر وكانت هذه الكلمة هى كلمة السر يتعارف بها المسلمون .

واندفع أبو دجانة ، وفى يده سيف النبي ، وعلى رأسه عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله حتى التقى بهند بنت عتبة ، وهمّ بقتلها ، حتى إذا عرفها ، امتنع عن ذلك وهو يقول : «كرهت أن أضرب بسيف رسول الله امرأة لا ناصر لها»[1] .

وبعد موت طلحة ، حمل لواء أهل مكة من بعده عثمان بن أبي طلحة ، فحمل عليه حمزة وقطع يده وكتفه ، فأخذ اللواء أخوه سعيد ، فرماه سعد بن أبي وقاص وقتله ، فحمل اللواء من بعده مسافع بن طلحة ، فقتله عاصم بن ثابت ، ثم حمله أخوه الحرث ، فقتله عاصم أيضاً حتى أن أم مسافع والحرث نذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم ، قاتل ولديها ، أن تشرب الخمر فيه ، وجعلت لمن يجيء برأسه مائة من الإبل ، واستمر اللواء ينتقل من يد إلى أخرى ، واستمر أبطال المسلمين يقتلون كل من يحمل اللواء .

وخرج من صفوف أهل مكة عبد الرحمن بن أبي بكر وصاح «من يبارز؟» فنهض إليه أبو بكر شاهراً سيفه ، إلا أن الرسول منعه قائلا : «ارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك» .

المرحلة الثانية

كان حمزة عم الرسول من أعظم أبطال العرب وشجعانهم ، اشترك فى غزوة بدر ، فكانت له صولة معروفة قتل فيها عتبة أبا هند ، وقتل أخاها ، ونكل بالكثير من الأعزة عليها ، وفى أحد كانت له صولة قتل فيها أرطاة بن عبد شرحبيل ، وقتل سِباع بن عبد العزى ، وجعل يقطع بسيفه كل من لقيه من أهل مكة . . . وقلنا فى سياق الحديث عن استعداد قريش إن هنداً وعدت حبشياً يدعى «وحشى» ، خيراً كثيراً إن قتل حمزة ، وخرج وحشى على القوم ينظر حمزة ، حتى شاهده وسط الناس يقطع بسيفه ، ويقتل كل من يلقاه فى طريقه ، فأعد وحشى حربته ثم دفعها ، فأصابت حمزة ما بين السرة

---

(١) كانت هند تخفى نفسها تحت ملابس الرجال .

والعانة من أسفل بطنه ثم خرجت من رجليه ، وكانت إصابة خطيرة سقط على أثرها حمزة ، وما لبث أن مات .

ووصف حبشى قتله حمزة فى قوله : « لما التقى الناس ، خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته ، كأنه الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هداً ، ما يقوم له شيء ! فو الله إنى لأتهيأ له أريده . وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة ضربه ضربة كأنما اختطف رأسه ، فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكر ، فقعدت فيه إذ لم تكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق » .

المرحلة الثالثة

أنزل الله نصره على المسلمين فصاروا يحسون الكفار حساً كما قال تعالى : « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » وتمزقت قوة قريش وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات ، وفر الرجال وأسرع المسلمون خلفهم حتى بعدوا عن معسكرهم ، وأخذ المسلمون يجمعون الغنيمة وما أكثر ما كانت .

وقال ابن إسحاق « ثم أنزل الله نصره وصدق وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها » وروى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : « والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير » .

المرحلة الرابعة

رأى الرماة الذين وضعهم الرسول فى شعب الجبل — يصدون الفرسان بالنبل ، فلا يتقدمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم — رأوا الهزيمة تحل بقريش والنساء يهمن فى الجبل والرجال يولون الأدبار ، والغنائم التى خلفها

ثلاثة آلاف مشرك تزحم الجبل ، ورأوا إخوانهم يجمعون الغنائم الكثيرة ، وكان الرسول قد أمرهم ألا يبرحوا الشعب حتى لو رأوه وأصحابه يقتلون . . . أمرهم بذلك وشدد عليهم أن يلزموا مكانهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوا أبداً ولو رأوا الجيش تتخطفه الطير ، غير أن إثارة من حب الدنيا عصفت بهم فى ساعة غفلة . . . قال بعضهم لبعض ، وقد سال لعابهم لمرأى الغنيمة « لم تقيمون ها هنا فى غير شيء وقد هزم الله عدوكم . وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ! فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » ، ونبههم أحدهم « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم . وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ؟؟ » فقال الأولون « لم يُرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين » .

ودعاهم أميرهم عبد الله بن جبير إلى عدم مخالفة أوامر الرسول فعصوه ، وانطلقوا وتركوا أماكنهم ، ولم يبق مع عبد الله إلا نفر قليل . . . ورأى خالد بن الوليد خلاء الجبل الذى كان فيه الرماة ، وقلة أهله ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل[1] فحملوا على الباقين القليلين فقتلوهم وقتل عبد الله ، ووقعت الهزيمة بالمسلمين ، وصاح صائح ان محمداً قد قتل فاندفعت قوات قريش على أثر سماعها هذا الخبر تؤكد انتصارها وتعززه إلا أن جماعة من المسلمين أحاطت بالرسول واستماتت فى الدفاع[2] عنه ، إلا أن حجارة قريش أصابته وأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته ، وكان عتبة ابن أبى وقاص هو الذى أصاب الرسول بتذيفته من الحجارة . . . وفجأة سقط الرسول فى حفرة ، كان قد حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأسرع

---

(١) قيل ان امرأة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية هى التى رفعت لواء قريش من التراب بعد أن صرع حملته فالتفت حولها جموع قريش وقد شاهدوا اللواء مرفوعا .

(٢) روى أن امرأة من الأنصار قتل لها ثلاثة رجال من بيتها (أبوها وأخوها وزوجها) كانوا يدافعون عن الرسول وتتابع إليها نعى الثلاثة واحداً بعد واحد فكانت تسأل أولا عن الرسول « كيف هو ؟ » فيقولون لها إنه سالم ، ثم لما رأت وجهه سرى عنها ولم تتمالك أن صاحت قائلة « كل مصيبة بعدك جلل يارسول الله . »

علي بن أبي طالب بمعاونة طلحة بن عُبَيد الله ورفعاه ثم اندفعوا جميعاً إلى أحد ناجين من اعتداء قريش .

وعاد الرسول يصيح بالمؤمنين .. « إلى عباد الله .. إلى عباد الله .. » فاجتمع حوله بعض من المسلمين ، وأخذوا يردون قريشاً بالنبل ، ووقف سعد ابن أبي وقاص إلى جانب الرسول يرمى بالنبل والرسول يناوله ويقول له « ارم فداك أبي وأمى » . وكان الرسول يرمى بنفسه عن قوسه حتى اندقت سيتها ، وكان أبو طلحة الأنصارى بجانب الرسول يقول له « نحرى دون نحرك ... إني جلد يارسول الله فوجهني فى حوائجك ومرنى بما شئت » .

واجتمع أبو بكر وعمر وبعض من المسلمين الذين ظنوا أن الرسول قد مات فى مكان منعزل بالجبل ، حتى جاءهم أنس بن النضر فقال لهم « مايجلسكم؟ » قالوا « قتل رسول الله » فقال « فماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ .. قوموا فموتوا على ما مات عليه » .

ودوى صوت كعب بن مالك فى أرض المعركة يعلن على المسلمين أن الرسول حى ، واندفع على أثر ذلك أبىّ بن خلف الجمحى وهو يردد « أين محمد؟ لانجوت إن نجا[1] » فطعنه الرسول بحربة الحارث بن الصِّمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ثم يموت .

بعد المعركة

أسعد قريشا انتصارها ، حتى إن أبا سفيان صاح « إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر .. » ثم قال « أعل هبل » فقال الرسول لعمر « قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل ، لاسواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار » فقال أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ » فأجابه عمر « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك

---

(١) فى رواية أخرى قال ابن خلف للرسول « يا كذاب أين تفر ؟ » وحمل على الرسول بسيفه فقال الرسول « بل انا قاتله ان شاء الله » ثم طعنه فى جيب درعه طعنه وقع فيها يخور خوار الثور .

الآن . فقال أبو سفيان « أنت عندى أصدق من ابن قميئة[1] » ، ثم صاح « إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال الرسول لرجل من أصحابه « قل نعم بيننا وبينك موعد » .

وأما هند فلم يكفها النصر ولم يكفها قتل حمزة بل انطلقت ومعها باقى النسوة يمثلن بالقتلى ، يجدعن الآذان والأنوف ، ثم بقرت هند بطن حمزة وجذبت بيديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها ، حتى أن أبا سفيان أزعجته كثرة التمثيل فقال « إنه قد كان فى قتلاكم مَثلُ والله مارضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت » .

ودفنت قريش قتلاها ثم انصرفت .

وجاء دور المسلمين فهبطوا أرض المعركة يدفنون قتلاهم ، وخرج الرسول يلتمس عمه حمزة ، فلما رآه وقد مثل به حزن من أجله وقال « لن أصاب بمثلك أبداً وما وقفت موقفاً قط أغيظ إلىّ من هذا » ثم قال « والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب » وفى هذا نزل قوله تعالى :

« وإنْ عاقَبْتمْ فعاقِبُوا بِمثلِ ما عُوقبتمْ بِهِ وَلئن صَبَرتُمْ لهوَ خَيْرٌ لِلصابِرين . واصبِرْ وَماَ صَبرُكَ إلَّا بِاللهِ وَلا تحْزن عَليْهم وَلَاتك فِى ضيقٍ مما يَمكرُونَ[2] » .

ودفن حمزة ودفن كذلك قتلى المسلمين ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة ، وفى اليوم التالى دعا الرسول المؤمنين لطلب العدو ، وخرج المسلمون ، فوقع فى روع أبى سفيان أن الرسول جاءه من المدينة بمدد جديد ، فخاف لقاءه ، وبلغ محمد حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكانت قريش وقتها

(١) هو الذى زعم أنه قتل النبى .
(٢) سورة النحل ١٢٦ ، ١٢٧ .

فى الرَّوحاء ، ومر بها معبد الخزاعى ، فسأله أبو سفيان عن محمد فقال له « قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً ، ومنكم للثأر طلبا » ، وقدر أبو سفيان موقفه ، وخاف أن يهزم فيضيع أثر انتصاره فى أحد ، فبعث إلى الرسول مع ركب عبد القيس من يبلغه أن أبا سفيان فى طريقه إليه ليقضى عليه ، وبقى الرسول فى انتظاره أياماً ثلاثة ، إلا أن أبا سفيان آثر العودة مكتفياً بانتصاره فى أحد .

نتائج الموقعة

(١) فى جانب المسلمين :

عاد الرسول إلى المدينة ، فوجد الكثير من أهلها قد تنكروا له ولأصحابه وشعر بأن القبائل التى أذهلها انتصاره فى بدر ردت إليها السكينة لانهزامه فى أحد . . وحاول كثير من القبائل الثورة عليه ، كما تربص به اليهود ، وحدثت غزوات كثيرة سنفرد لها جزءاً خاصاً انتهت كلها بتعزيز مركز الرسول وتقويته .

(٢) فى جانب قريش :

سعدت قريش بهذا الانتصار ، وخاصة أنها نجحت فى قتل حمزة ، وكان خطراً عليها إذا نشبت الحرب بينها وبين المسلمين ، وأعتق حبشى ، وأسرع أبو سفيان يحلق لحيته ، ورجع إلى داره موفياً نذره ألا يقرب زوجه حتى ينتصر على محمد . . . وهللت قريش ورفعت إلى كبير آلهتها هبل آيات الثناء والحمـــد .

الدروس المستفادة

١ ـ أهمية حشد القوى جمع الرسول أصحابه وقومه ونظم صفوفهم بمجرد أن بلغه كتاب عمه العباس ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم رفض كتيبة ابن أبى فعادت إلى المدينة ولم تشترك فى المعركة .

٢ — الشورى عند وضع الخطة ، وقبول القائد للخطة التى يقررها مستشاروه برغم أنها قد تكون ضد خطته التى ينادى بها .

٣ — الروح المعنوية المسيطرة على رجال محمد القائلين بالخروج ، فقد كانوا يرغبون إما فى النصر ، وهذا هو وعد الله المسلمين ، وإما فى الهزيمة التى لن تأتى باستشهادهم ، وهم بذلك فائزون بالجنة ، وتبدو الروح المعنوية ، فيما رواه ابن إسحق عن سعد بن أبى وقاص قال « ما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة حين صنع برسول ماصنع » . . كما تبدو فى قول عبد الله بن جحش « اللهم إنى أقسم عليك ، أن ألقى العدو غداً ، فيقتلونى ، ثم يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى ، وأذنى ، ثم تسألنى فيم ذلك ؟ فأقول فيك » . . ومن قول نعيم بن مالك « يانبي الله لا تحرمنى الجنة ، فوالذى نفسى بيده ، لأدخلنها ولا أفر يوم الزحف . »

٤ — الأمن : أى حماية القوات فى أثناء العمليات . . . فوضع الرماة على شعب فى الجبل مبدأ هام من مبادىء الحرب ، فهم فى وضعهم هذا يحمون ظهر قواتهم ، ويصدون أعداءهم عن مهاجمتهم ، وثبتت أهمية هذا المبدأ حينما ترك الرماة أماكنهم فقد كان ذلك هو السبب المباشر فى هزيمة المسلمين .

٥ — ضرورة تنفيذ أوامر القيادة ، فإن عدم تنفيذ الرماة أوامر الرسول بعدم مغادرة مواقعهم ، إلا بأمره الشخصى ، أدى إلى هزيمة المسلمين ولو أنهم ظلوا فى أماكنهم ، لظل النصر فى ركابهم .

٦ — أهمية وجود القائد فى المعركة :

(ا) فإن المسلمين عندما أذيع أن الرسول قد قتل أصابهم ما يشبه الذهول ، فاجتمع أبو بكر وعمر ومعهما عدد من المسلمين وألقوا السلاح واحتلوا مكاناً بعيداً فوق أحد وظلوا هكذا حتى علموا بوجود النبي .

(ب) أثار الرسول حمية أبى دجانة بمنحه سيفه ليقاتل به فى الصفوف الأولى .

(ح) بقى الرسول مع بعض صحابته يلقى بالنبل على الأعداء ، فكان يناول النبل لسعد بن أبى وقاص ، وكان سعد يقذف بها .

(ى) وكان من نتيجة وجود الرسول فى المعركة أن نجح عمر بن الخطاب فى صد خالد بن الوليد على رأس فرسانه فوق الجبل ورده ، وقال الرسول « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك » .

(هـ) بعد عودة المسلمين إلى المدينة ، قرر الرسول القيام بعمل هام يعيد ثقة القبائل واليهود فى المسلمين ، فقام فى اليوم التالى مع قومه بمطاردة قريش ووصل حتى حمراء الأسد .

٧ – المطاردة من أهم دعائم النصر ، ولقد قرر الرسول مطاردة أبى سفيان عند عودته إلى مكة ، فلما علم بذلك أبو سفيان خاف لقاءه حرصاً منه على الانتصار الذى أحرزه فى أحد .

٨ – شجاعة المقاتلين .. وقد بدت واضحة فى قتال حمزة وعلى وأبى دجانة وسعد بن أبى وقاص ، ونذكر فى هذا المقال امرأة تدعى أم عمارة الأنصارية فهذه كانت تمر بين صفوف المسلمين تحمل إليهم الماء ، فلما اشتدت المعركة حملت السيف والقوس وحاربت حتى أصيبت ، وتبدو شجاعة صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة ، عندما رأت ما فعلته هند بجثته ، وكان الرسول قد أمر ابنها الزبير بن العوام أن يرجع بها حتى لا ترى جثة أخيها شفقة بها ، فلقيها ، وقال لها « إن الرسول يأمرك أن ترجعى » فدفعت يدها فى صدره وقالت « ولم؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى . وذلك فى الله ، فما أرضانى بما كان فى الله من ذلك لأحتسبن واصبرن إن شاء الله تعالى » .

٩ – دور المرأة فى الحرب مقصور على أعمال الإعاشة ، فإن النساء كن يمررن بالصفوف يقدمن الماء والطعام إلى القوات المحاربة ، ولو أن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فإن امرأة من المسلمين عند اشتداد المعركة ، أخذتها الحماسة فحملت السيف والقوس وحاربت حتى أصيبت (راجع الفقرة ٨) ، ونساء قريش كن يقمن بدور كبير فى إثارة المشاعر للحرب ، ولا يغفل أحد

دور هند فى مقتل حمزة ، وكيف أنها كانت صاحبة الفكرة فى قتله ، وأنها هى التى دعت حبشياً ، ومنته بالخير الكثير ، وشجعته حتى استطاع أن يدخل المعركة ويقتل أحد أبطالها المغاوير .

١٠ — أثر الإشاعات فى الجيش المقاتل ... فعندما أذاعت قريش أن الرسول قد مات ، أحس المسلمون أنهم قد فقدوا قائدهم ، ومن ثم فقدوا السيطرة على أنفسهم ، ثم على المعركة ، وتولاهم الخوف والهلع ، فأسرعوا يختفون من أرض المعركة فى حين ألقى البعض السلاح ، وعزفوا عن القتال ، ولا شك فى أن قريشاً كسبت كثيراً من وراء هذه الإشاعة التى أطلقتها لتهز بها قلوب المسلمين ، وتقضى على بعض حماستهم فى الحرب ، وتقلل من عزيمتهم فى القتال .

١١ — الروح السمحة الكريمة التى كانت تسيطر على جنود المسلمين ، فإن الرسول الكريم والقرآن ينهيان عن قتل المرضى والشيوخ والنساء ، وهذا تهذيب واضح وصريح لفكرة الحرب التى لاتفرق بين المحارب فى الميدان والقابع فى بيته ... فها هو ذا أبو دجانة يلتق فى الميدان هند بنت عتبة ، وهى تدور بين الصفوف ، تشجع المحاربين فيفكر فى قتلها ، ولكنه يعود فيرفض قائلا « كرهت أن أضرب بسيف رسول الله امرأة لاناصر لها » برغم أن هذه المرأة كان لها شأن كبير فى أثناء المعركة .

سريتا أبى سلمة وابن أنيس

سرية أبى سلمة

بلغ الرسول أن طليحة وسلمة ابنى خويلد ، وهما على رأس بنى أسد ، يحرضان القوم لمهاجمة المدينة ولمحاربة الرسول ، وأن قيس بن الحرث نهاهم فلم ينتهوا ، فدعا الرسول أبا سلمة بن عبد الأسد ، وعقد له لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار ، من بينهم أبو عبيدة بن الجراح

وسعد بن أبى وقاص ، وأسيد بن حضير ، وأبو نائلة ، وقال الرسول لأبى سلمة « سر حتى تنزل أرض بنى أسد بن خزيمة فأغر عليهم . »

وأمره الرسول بالسير ليلا والاستخفاء نهاراً ، وسلوك طرق غير مطروقة حتى لايعرف بمسيرهم أحد ، ولا يطلع على خبرهم إنسان ، وبذلك يفاجىء عدوه بالإغارة عليه ، أى قصد من ذلك القيام بهجوم مفاجىء .

ونفذ أبو سلمة أوامر الرسول ، فتقدم فى المسير حتى بلغ َقطـن ، وهى اسم ماء لبنى أسد بنجد ، وفاجأ القوم قبل أن يستعدوا ، وأحاط بهم ، فأذهلتهم المفاجأة ، وتركوا منازلهم وهربوا فأرسل لواءين من قوته لمطاردة الهاربين ، وعاد إليه اللواءان سالمين وغانمين ، وعادت السرية بأجمعها إلى المدينة ظافرة بعد غيبة عشرة ايام .

سرية ابن أنيس

أخذ خالد بن سفيان بن ُنـَبيْـح الهذَلىّ يجمع الناس فى موطنه ُعرَنة ليغزو بهم الرسول ، فدعا الرسول عبد الله بن أنيس ، و بعثه لاستطلاع الأمر حتى يقف على جلية الخبر ، فسار عبد الله حتى التقى بخالد ، ودار بينهما حديث بدأه خالد بسؤال عبد الله :

— من الرجل ؟

— من بنى خزاعة . . . سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك .

— نعم إنى لفى الجمع له .

— عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق آلهة الآباء وسفه أحلامهم .

— نعم لأنه لم يلق أحداً يشبهنى .

وسار خالد ومن ورائه عبد الله ، وكان خالد يتوكأ على عصا ، حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرق عنه أصحابه فقال لعبد الله « هلم يا أبا خزاعة اجلس » ،

فجلس عبد الله معه حتى نام الناس جميعاً ، فقام عليه وقتله تنفيذاً لأمر رسول الله : « إذا اتبعته فاقتله » .

محمد ويهود بني النضير

بنو النضير قبيلة كبيرة من اليهود ، ينسبون إلى هارون أخي موسى عليهما السلام ، سكنوا مع العرب ودخلوا فيهم . . . كان بينهم وبين الرسول عهد ، وجاءهم الرسول مطالباً بمعونتهم من دية قتيلين ، فتظاهروا بالموافقة على طلبه والاستجابة له ثم دبروا مؤامرة فيما بينهم لقتل الرسول والتخلص منه ...

كان الرسول قد جلس إلى جانب جدار من بيوتهم ، فاجتمعوا وقالوا « إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال منفرداً ليس معه أحد من أصحابه إلا نحو عشرة[1] . . . من يعلو على هذا البيت ، فيلقي هذه الصخرة عليه ، فيقتله ويريحنا منه ؟ » ، وتطوع أحدهم هو عمرو بن جحاش بن كعب ، إلا أن يهوديا منهم هو سلام بن مشكم قال لهم « لا تفعلوا ذلك فوالله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه » .

وفي رواية أخرى قال لهم « ياقوم أطيعوني في هذه المرة وخالفوني الدهر ، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به ، وأن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه » .

قال ابن اسحاق إن الرسول جاءه الخبر من السماء مع جبريل ، فقام عليه السلام مظهراً أنه يقضي حاجة ، خوفاً من أن يفطنوا له فيؤذوا أصحابه ، ولهذا ترك أصحابه في مجالسهم ، ورجع مسرعاً إلى المدينة فلما استبطئوه قاموا في طلبه وقال لهم حيي بن أخطب اليهودي « لقد عجل أبو القاسم ، كنا نريد أن نقضي حاجته » .

وجاء في السيرة الحلبية أن كنانة بن صويرا قال لليهود « هل تدرون لم قام

---

(١) جاء في رواية أخرى انهم قالوا لما رأوا قلة أصحابه وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة « نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم لقريش . »

محمد ؟ » قالوا « والله ما ندرى وما تدرى أنت !! » فقال « أخبر والله بما هممتم به من الغدر ، فلا تخدعوا أنفسكم والله إنه لرسول الله » . ونزل فى ذلك قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » .

وقرر الرسول محاربة بنى النضير ، وأمر أصحابه بالاستعداد للحرب ، ودعا محمد بن سلمة وقال له « اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

وبينما القوم يبحثون رسالة محمد ، وصلهم رسولان من عند عبد الله ابن أبىّ يقولان « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى ، وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم حصنكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يُوصل إليكم » .

وقال كبيرهم حيى بن أخطب « أنا مرسل إلى محمد إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له ، وما علينا إلا أن نرمّ حصوننا ، ندخل إليها ما شئنا وندرب أزقتنا ، وننقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة وماؤنا لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سنة كاملة » .

وكان لابد من تنفيذ أمر الرسول « فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

وانقضت المهلة التى منحها إياهم الرسول ولم يخرجوا . . .

وسار إليهم الرسول وحمل الراية على بن أبى طالب ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وتحصن بنو النضير فى حصونهم ، وأمر الرسول فقطع نخلهم[1] وحرقه ، وأجزع ذلك اليهود فنادوا « يا محمد قد كنت تنهى

(١) موضع نخل بنى النضير فى مكان يعرف بالبويرة ، تصغير بورة وهى الحفرة ، وهو مكان معروف من جهة مسجد قباء إلى جهة الغرب .

عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ، أهو فساد أم إصلاح ؟ ، ونزل فى ذلك قوله تعالى :

« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ[1] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ[2] »[3].

وقذف الله الرعب ، فى رهط عبد الله بن أبى ، فلم يستطع تقديم أية معونة لبنى النضير ، ونزل قول الله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »[4]

وحاصر الرسول بنى النضير .

واشتد عليهم الحصار وطال أمده .

فسألوا الرسول أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم فقال لهم « اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة »[5] .

---

(١) اللينة أنواع التمر ما عدا العجوة .
وقيل أنها كرام النخيل
وقيل كل الأشجار اللينها

(٢) يقصد بالفاسقين اليهود .

(٣) سورة الحشر ٥

(٤) سورة الحشر ١١/١٣

(٥) يقصد السلاح والدروع .

وقبل بنو النضير ما عرضه الرسول ، وخرجوا . . .

وكانوا فى خروجهم يدمرون بيوتهم حتى لا يسكنها المسلمون ، وتم جلاؤهم عن المدينة ، وفى ذلك قال تعالى :

« ولَوْلَا أنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ »[1].

غزوات قبل الخندق

بدر الآخرة

كان أبو سفيان قد واعد المسلمين بعد انتهاء غزوة أحد « يوما بيوم بدر والموعد العام المقبل . » وكان هذا العام عام جدب ، وكان أبو سفيان يود لو يؤجل اللقاء عاماً آخر ، فعمد إلى الحيلة والتظاهر ، ليدرأ بهما عن نفسه خلف الوعد ، فاستأجر نعيم بن مسعود الأشجعى ، فذهب نعيم إلى المدينة يقول للمسلمين : إن أبا سفيان قد جمع جيشاً لا قبل لجيش من العرب بمواجهته ، ليحاربهم به ، ويقضى عليهم . . .

ورأى المسلمون أن يتجنبوا الخطر ، فأظهر كثيرون الرغبة فى عدم النهوض والسير لبدر ، فغضب الرسول ، وأقسم أن يذهب إلى بدر ، ولو ذهب وحده « والذى نفسى بيده ، لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى » وعندئذ تدارك الله المسلمين برحمته ، فأنار بصائرهم ، وشد عزائمهم ، فخرجوا مع الرسول ، واستصحبوا معهم تجارتهم ، لأن بدراً كانت سوقا تقام كل عام ثمانية أيام .

سار النبي على رأس جيش عدته ألف وخمسمائة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة . ولما بلغ بدراً عسكر بها ، وانتظر قدوم قريش ثمانية

---

(١) سورة الحشر ٣ .

أيام ، فلما لم يصادفوا حرباً انفردوا بتجارة الموسم ، ثم عادوا إلى المدينة ، ونزل في ذلك قوله تعالى :

« الَّذِينَ اسْتَجابوا لِلَّهِ وَالرَّسولِ مِنْ بَعْدِ ما أصابَهُمْ القَرْحُ لِلَّذِينَ أحْسَنوا مِنهُمْ واتَّقَوْا أجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قالَ لَهمْ النَّاس إنَّ النَّاس قدْ جَمعوا لـكُمْ فاخشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيمانًا وَقالوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الْوَكيل فانقَلَبُوا بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ . لَمْ يَمْسَسهُمْ سُوءٌ وَاتَّبعوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »[1].

وأما ناحية التظاهر ، فإن أبا سفيان خرج بقريش في أكثر من ألفي رجل ، وبعد مسيرة يومين ، نادى في الناس « يامعشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا » .

* * *

غزوة ذات الرقاع[2]

بلغ الرسول أن جماعة من غطفان ، وهم بنو محارب بن خصفة بن قيس ، وبنو ثعلبة بن سعد بن غطفان ، جمعوا جموعا لمحاربته ، فأمر أصحابه بالاستعداد واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري[3] ، ثم خرج في أربعمائة[4] حتى وصل

(١) سورة آل عمران ١٧٢/١٧٤

(٢) سميت ذات الرقاع قيل لأنهم رقعوا فيها راياتهم .
وقيل لشجرة في هذا الموضع يقال لها ذات الرقاع كان يعبدها العرب
وقيل لأن الأرض التي نزلوا بها فيها بقع سود .
وقيل لأن خيلهم كان بها سواد وبياض .
وقيل لصلاتهم فيها صلاة الخوف
وذكر الطبري (جـ ٣) أنها سميت باسم جبل به سواد وبياض وحمرة وهي من منازل لبني ثعلبة على مرحلتين من المدينة .

(٣) قيل في رواية أخرى أن الرسول استعمل عثمان بن عفان .

(٤) قيل في رواية أخرى مضى في ثمانمائة .

ذات الرقاع ، فلما علم بأمره بنو محارب ، وبنو ثعلبة ، تفرقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم ، ورجع المسلمون إلى المدينة ، على أنهم خافوا أن يرجع العدو إليهم ، فتناوبوا الحراسة ليل نهار وجعل الرسول يصلى بهم صلاة الخوف

* * *

غزوة دومة الجندل

خرج الرسول فى ألف من قومه إلى دومة الجندل ، وهى واحة تقع على حدود ما بين الشام والحجاز[1] ، واستعمل عــلى المدينة سباغ بن عرفطة الغفارى ، ولم يقابل القبائل التى أراد مقاتلتها ، إذ أنها عندما سمعت بقدومه فرت مسرعة ، وتركت للمسلمين الكثير من الغنائم ، وجاء فى السيرة الحلبية ، أن الرسول فى تحركه إلى دومة الجندل كان يسير بالليل ويكمن فى النهار .

* * *

غزوة بنى المصطلق

كانت قبيلة بنى المصطلق حرباً على المسلمين . . . آزرت قريشاً فى غزوة أحد ، وأعدت العدة بعدها لغزو المدينة ، وبلغ ذلك الرسول فتجهز لغزوها ، وخرج على رأس جيش كبير ، وخرج معه عبد الله بن أبى ، طمعاً فى عرض الدنيا ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة[2] ، وخرجت معه عائشة ، وأم سلمة .

ولقى الرسول فى طريقه جاسوساً لبنى المصطلق ، وحاول أن يعرف منه شيئاً عن أحوالهم ، فرفض الرجل أن يتكلم ، فأمر عمر بن الخطاب فضرب عنقه . . .

---

(١) فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة .

(٢) قيل فى رواية أخرى أن الرسول استعمل أبا ذر الغفارى وفى رواية ثانية نميلة ابن عبد الله الليثى .

وصل الرسول إلى ماء يسمى المُرَيسِيع ، ونظم صفوفه ، وجعل راية المهاجرين لأبى بكر[1] ، وراية الأنصار لسعد بن عبادة ، وأمر عمر أن ينادى فى الناس : « قولوا لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم » .

ودار قتال عنيف . وكان على رأس بنى المصطلق ، الحارث بن أبى ضرار ، وقتل من المسلمين واحد ، هو هشام بن صبابة ، وقتل من بنى المصطلق عشرة ، وأسر الباقى ، وكانوا أكثر من سبعمائة ، وغنم المسلمون ألفى بعير وخمسة آلاف شاة ، وكان من ضمن الأسرى جويرية بنت الحارث ، فأعتقها النبى ، وتزوج بها ، وأدى هذا الزواج إلى إطلاق سراح الأسرى ، فلما علم بذلك بنو المصطلق ، جاءوا إلى الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، وصاروا قوة للإسلام ، بعد أن كانوا حرباً عليه .

الدروس المستفادة من هذه الغزوات

١ — حرص الرسول على تكتم أنباء العمليات التى سيقوم بها ، وكذلك أنباء تحركاته ، ولهذا كان يسير بالليل ، ويكمن فى النهار ، وهذا هو غاية المحافظة على سرية التحركات ، خوفاً من أن يعلم بها العدو ، كما كان الرسول يأمر باتباع الطرق غير المتبوعة ، حتى لا يعرف بمسيرهم أحد .

٢ — وضحت أهمية المفاجأة كعنصر هام من عناصر الحرب .

٣ — أرسل الرسول من يجمع المعلومات ، أى يقوم بالكشف قبل إرسال بعثة ابن أنيس ، والكشف له دور كبير فى العمليات ، فهو يقدم المعلومات المفيدة عن العدو وعن عدته وتنظيماته ، ويمكن بوساطة هذه المعلومات ، تقدير الموقف ، وإعداد الخطة التى تكفل النصر . (راجع الحديث الذى دار بين عبد الله بن أنيس ، وبين خالد بن سفيان) .

(١) وقيل لعمار بن ياسر .

٤ — ثبت أن الحرب خدعة ومكيدة ، ولقد أدرك الرسول ذلك ، فبعث بابن أنيس إلى خالد وأمره أن يقتله . ولجأ ابن أنيس إلى الخداع والمكيدة ، حتى تمكن من أن يلتقى بخالد ، ثم تحدث إليه حتى أنس إليه واطمأن ، ثم غافله عند قبائه وقتله بعد أن انصرف عنه أعوانه .

٥ — الحصار وسيلة فعالة فى الحرب ، تمنع عن المحاصرين الزاد والعتاد والمؤن والمعاونات ، وهذا يؤدى إلى ضعف روح المقاومة ، وهذا ما حدث بعد أن حاصر الرسول بنى النضير ، إذ قبلوا شروط الرسول فى التسليم والجلاء عن المدينة بعد أن طال أمد الحصار .

٦ — شجاعة الرسول كقائد ، وأثر هذه الشجاعة فى الجند ، أمر لا يغفله إنسان ، فعندما خاف المسلمون الخروج لمقابلة ابن سفيان ، بعد أن سمعوا أنه خرج فى جيش كبير ، غضب الرسول ، وأقسم أن يذهب وحده ، وكان هذا الموقف من جانب الرسول سبباً قوياً فى إثارة الحمية ودافعاً لإشعال الحماسة فى الجند ، فقرروا أن يخرجوا جميعاً مع الرسول وأن يظلوا سنده وعضده .

٧ — الوقاية ، أى حماية القوات من مفاجأة العدو لها ، ففى غزوة ذات الرقاع ، خاف الرسول أن يعود بنو غطفان إلى مهاجمة المسلمين فأمر بإعداد الحراسة وتشديدها ليل نهار ، وغرضه من ذلك هو حماية القوات .

٨ — إيمان القائد بالنصر ، فإن الرسول كان إذا تعقدت المواقف أمامه ، يلجأ إلى الله يسأله العون والرأى ، وعندما أحس الرسول أن قواته تملكها بعض الخوف فى غزوة ذات الرقاع ، قام يصلى بهم صلاة الخوف .

٩ — اتباع القائد للوسائل السياسية فى بعض ما يعترضه من حالات فإن الرسول بعد غزوة بنى المصطلق ، أخذ الناس أسرى ، ثم رأى من باب السياسة ، أن يكسب بنى المصطلق إلى جانبه ، وأن يجعل منهم قوة تحارب معه فتزوج من جويرية بنت الحرث زعيم بنى المصطلق ، وأدى هذا الزواج إلى ذلك

أسر جميع الأسرى . مما أكسب الرسول محبة القوم ، فأعلنوا إسلامهم ، وصاروا قوة للإسلام .

١٠ — تلاحظ فى جميع هذه الغزوات أن الرسول كان يخرج دائماً إلى أعدائه ، أى أنه كان يتخذ خطة الهجوم دائماً ، وأنه ما كان ينتظر حتى تهاجمه قبيلة ، أو قوة مجتمعة فيضطر إلى اتخاذ خطة الدفاع ، ومما لا شك فيه أن فرص الانتصار تكون موفورة للجانب المهاجم إذا ما أحسن تدبيره وإعداده وتنظيمه .

غزوات الرسول

(٣)

- غــــزوة الخنـــدق
- غـزوات بعد الخندق
- محمد ويهود بنى خيـــبر
- غــــزوة مؤتــة
- عمليتان ضد قضاعة

غزوة الخندق

أسباب الغزوة (١) من جانب الأحزاب

استقر الأمر للرسول فى المدينة ، ولكن الأمر لم يستقر بالنسبة لقريش وبالنسبة لليهود . . فقريش أغضبها هذا الدين الجديد ، وأغضبتها هجرة الرسول إلى المدينة ، وأغضبتها انتصاراته المتتالية ، وقوته التى تزيد بمرور الوقت حتى أصبح له من الحول ومن القوة ماجعله مرهوب الجانب .

واليهود أغضبها هذا النصر ، الذى سار فى ركاب محمد ، وهذه القوة التى بلغها حتى أخرج بنى قينقاع من المدينة ، وأجلى بنى النضير عن ديارهم .

وكانت قريش فى انتظار الفرصة لتقضى على محمد وعلى دعوته .

وكذلك كان اليهود .

ودفع الغضب بقريش وباليهود إلى التحالف ضد عدوهم المشترك . . فاتحدوا معاً وتحالفوا للقضاء عليه .

(٢) من جانب المسلمين

نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ودعوته ، وعرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا على عجل الخطة التى يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم .

وكان هدف المسلمين إذن فى غزوة الخندق صد المعتدين ، وردهم على أعقابهم ، والدفاع عن عقيدتهم ، وحماية دينهم ودعوتهم .

الاستعداد (١) من جانب الأحزاب

كانت فكرة تأليب العرب قد اختمرت فى ذهن بنى النضير ، ولهذا خرج نفر منهم على رأسهم سلام بن مشكم ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وحيي بن أخطب ومعهم بعض من بنى وائل ، بقيادة هوذة بن قيس وأبو عمار . . . خرج

هؤلاء إلى قريش فى مكة ، فسألهم أهل مكة عن بنى النضير ، فقال حيي « تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه » ، وسألوه عن قريظة فقال « أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » .

وعاد أهل قريش يستمعون إلى هذا الوفد وهو يقول لهم « إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله » ، فقالت لهم قريش « إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير من دينه ؟ » فقال وفد اليهود « دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه » ، فأنزل الله تعالى فيهم :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً »[1].

وسر قول اليهود قريشاً ورحبوا بدعوتهم ، واجتمعوا لذلك واستعدوا وتواعدوا على وقت يخرجون فيه .

ثم خرج وفد اليهود بقيادة حيي بن أخطب إلى غطفان من قيس غيلان ، وإلى بنى مرة ، وإلى بنى فزارة ، وإلى أشجع ، وإلى سليم ، وإلى كل من له ثأر عند محمد ، يحرضونهم على الاتحاد فى سبيل القضاء عليه أخذاً بالثأر ، ويعلنونهم أن قريشاً ستخرج معهم ، وأن النصر قد أصبح حقيقة واقعة .

واجتمعت الأحزاب التى دعتها اليهود لمحاربة محمد ، فخرجت قريش فى أربعة آلاف ، وعقدت اللواء فى دار الندوة ، وحمله عثمان بن أبى طلحة[2] وتولى القيادة أبو سفيان بن حرب ، وكان معهم ثلثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، وخرج بنو سليم فى سبعمائة مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس ،

---

(١) النساء ٥١/٥٢

(٢) قتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى أحد .

وخرجت بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد الأسدى ، وغطفان بقيادة عُيَيْنَة ابن حصن بن حذيفة ، ومرة بقيادة الحرث بن عوف ، وأشجع بقيادة مسعر بن رُخَيْلة ، وغيرهم من قبائل العرب .

وكانت عدة أولئك الأحزاب عشرة آلاف ، كما قال ابن إسحق ، وساروا جميعاً تحت قيادة أبى سفيان ، قاصدين المدينة . فلما بلغوها تداولوا القيادة يوماً بعد يوم على التوالى .

(٢) من جانب المسلمين

لما سمع الرسول بالأحزاب ، وما أجمعوا عليه من الأمر الذى زعموه وهو القضاء على المسلمين وعلى دعوة محمد ، بدأ يفكر فى ملاقاتهم ، ولكنه أدرك أن هذا العدد الكبير السائر إليه لن تستطيع قوة المسلمين أن تصمد أمامه . . فماذا عسى رجاله أن يفعلوا لمقابلة هذه الألوف المؤلفة من الرجال والسلاح والخيل والإبل ؟ . . لقد اتضح أن هناك وسيلة واحدة هى اتخاذ خطة الدفاع . . أى احتلال المدينة والبقاء داخلها والدفاع عنها ، ومحاولة صد هجمات المعتدين . . ولكن هل يكفى هذا لمواجهة القوة المهاجمة ؟ سؤال يتردد فى ذهن الرسول ، وأخذ يفكر فى الإجابة عليه بعقلية القائد المحارب الشجاع ، تدبر الأمر ، وبحث الموقف ، وتشاور مع أصحابه ، وقدم إليه سلمان الفارسى[1] رأيا وجده سليما ، فأقره وأمر بتنفيذه فوراً .

كان رأى سلمان هو إقامة خندق[2] حول المدينة ، ويتحصن المسلمون داخل المدينة ، وقال سلمان للرسول « يارسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا » .

---

(١) سلمان من اهالى فارس من احدى قرى أصبهان ، كان أبوه دهقان القرية وكان يحبه لدرجة أنه حبسه فى داره . . هرب سلمان من أبيه إلى الشام مع ركب من تجار النصارى ثم رحل إلى جزيرة العرب حيث اشتراه يهودى من بنى قريظة قدم به إلى يثرب وظل يتعهد نخله حتى هاجر الرسول إلى المدينة فدخل فى دين الله وأصبح من كبار الصحابة .

(٢) لم يكن للعرب علم بالخندق ولكنه كان من مكايد الفرس أشار به سلمان الفارسى

وأخذ المسلمون فى تنفيذ ما استقر عليه الرأى ، وبدأ الحفر[1] وعمل فيه النبي بيديه ، فكان يرفع التراب ، ويشجع المسلمين ويدعوهم لمضاعفة الجهد ، وخط النبي لكل عشيرة من الناس عشرة أذرع يعملون فيها ، وكان سلمان يعمل عمل عشرة ، وتنافس المهاجرون والأنصار فقال المهاجرون « سلمان منا » وقالت الأنصار « سلمان منا » ، فقال لهم الرسول « سلمان منا أهل البيت[2] » .

وشهدت يثرب منظراً عجيباً ، وجوهاً ناصعة تتألف منها فرق شتى ، تضرب بالفئوس وتحمل المكاتل ، وتتعرى من لباسها وزينتها ، لتلبس حللا من نسج الغبار المتراكم والعرق .

وعمل بالخندق بعض المنافقين ، فكانوا يعملون عملا ضعيفاً ، واعتذر كثير من المشركين عن الاشتراك فى الحفر ، واستخدم المسلمون فى الحفر من الأدوات المساحى[3] ، والكرازين[4] ، والمكاتل[5] ، وكان الرسول يمر بين المسلمين وهو يردد « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

وخلال الحفر[6] رأى النبي ما بالصحابة من تعب وجوع ، لأن الزمن كان عسرة والعام عام مجاعة ، فقال متمثلا بقول ابن رواحة :

---

(١) جاء فى كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلى أن الرسول عندما بدأ الحفر قال .

بسم الله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

ياحبذا ربا وحب دينا

(٢) قال الرسول « السباق أربعة .. أنا سابق العرب ، وبلال سابق الحبشة ، وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس » .

(٣) المساحى جمع مسحاة وهى التى يسحى بها الطين أى يجرف .

(٤) الكرازين جمع كرزون وكرزين وهى الفئوس .

(٥) المكاتل جمع مكتل وهو القطف الذى يحمل فيه التراب .

(٦) يقال انه فى أثناء الحفر اشتكى المسلمون إلى الرسول من وجود صخرة لا تأخذ فيها المعاول فأخذ الرسول المعول من سلمان وقال « باسم الله » ثم ضربها فنثر ثلثها ، وخرج نور وقال الرسول « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكانى » ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر وبرقت برقة من جهة فارس ، فقال « الله أكبر أعطيت مفاتيح

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فارحم الأنصــار والمهاجرة

فأجابه الصحابة بقولهم :

نحن الذين بايعنا محمــداً   على الجهاد ما بقينــا أبداً

وفى النجار حديث البراء بن عازب قال « لما كان يوم الأحزاب وخندق صلى الله عليه وسلم ، رأيته ينقل التراب ، حتى وارى الغبار جلده[1] . وكان يرتجز وهو ينقل التراب بقول ابن رواحة :

اللهم[2] لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنـا ولا صلينـا
فأنزلن سكينـــة علينـا
وثبت الأقدام إذ[3] لاقينا
إن الألى قد رغبوا علينـا
إذا أرادوا فتنـــة أبينـا

وتم حفر الخندق فى ستة أيام[4] . وأمر الرسول بتحصين جدران المنازل التى تواجه العدو ، إلى مسافة فرسخين من الخندق ، وأمر بإخلاء المساكن ، وأتى بالنساء والأطفال إلى المنازل التى حصنت ، ووضعت الحجارة على جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحاً يرمى به العدو عند الحاجة .

وبلغت قوة المسلمين ثلاثة آلاف ، واستخلف الرسول على المدينة

فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن » ، ثم ضرب الثالثة وخرج نور من قبل اليمن فقال « الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة .

(١) فى رواية أخرى « كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه »

(٢) فى رواية أخرى « والله لولا الله ما اهتدينا »

(٣) فى بعض المراجع

وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

(٤) قيل عشرون يوما وقيل أربعة وعشرون وقيل شهر .

ابن أم مكتوم ، وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة .

قريش أمام الخندق

كانت قريش وحلفاؤها يتوقعون ابقاء محمد فى أحد ، فلما لم يجدوه هناك تقدموا إلى المدينة وفى خلال تقدمهم فوجئوا بالخندق ... وكان الخندق نوعاً من الدفاع المجهول لهم ، حتى انهم قالوا عندما فوجئوا به « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيد بها » .

وعسكرت جند قريش بمجتمع الأسيال من رُومَة ، وعسكرت جند غطفان ، بذَنب نقمى ، أما الرسول فكان قد اتخذ مواقعه ، فجعل هضبة سَلع من خلفه وجعل الخندق بينه وبين أعدائه .

رأت قريش أنه لا سبيل إلى اجتياز الخندق ، فبقيت فى مواقعها تتبادل الترامى بالنبال ، وصاروا يتناوبون . . . فيغدو أبو سفيان وأصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يوماً ، وهبيرة بن وهب يوماً وعكرمة ابن أبى جهل يوماً ، وضرار بن الخطاب يوماً ، فلا يزالون يناوشون أصحاب الرسول ، وكان الرسول يبشر المسلمين ويثبتهم ويقول لهم « ابشروا بعون الله ونصره ، إنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح ، وليهلكن كسرى وقيصر ، ولتنفقن أموالها فى سبيل الله » .

محاولات الاقتحام

إزاء هذا النوع الجديد من الدفاع وقفت قريش وأعوانها تفكر ماذا عساها تفعل ؟ إن الأمر جديد عليها وهى حديثة العهد بأمر الخندق ، وفكر بعض من رجالها فى اقتحامه ، ونجحوا فى ذلك من ناحية ضيقة ، وكانوا على خيولهم ومنهم عمرو بن عبد ود العامرى ، وكان ابن تسعين سنة من الشجعان المشهورين ، ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب ، وضرار ابن الخطاب ، فلما صاروا بالسبخة بين الخندق وسلع ، طلب عمرو بن عبد ود

المبارزة وقال « من يبارز ؟ » فقام على وقال « أنا له يانبي الله » وعاد عمرو يكرر النداء ويقول « أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم يدخلها أفلا تبرزون لى رجلا ؟ » فقام على وأذن له الرسول وأعطاه سيفه وألبسه درعه وعممه بعمامته وقال « اللهم أعنه عليه ، اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين[1] » .

فلما التقى على وعمرو ، قال على « ياعمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى أحد خصلتين إلا قبلتهما ، فإنى أدعوك إلى الله ، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الإسلام » ، فرد عليه عمرو « لاحاجة بى إلى ذلك » ، ودعاه على إلى المبارزة ، إلا أن عمرا قال له « يا بن أخى من أعمامك من هو أشد منك ، فإنى أكره أن أريق دمك ، وإن أباك كان صديقاً لى ، ووالله ما أحب أن أقتلك » فرد عليه على « ولكننى والله أحب أن أقتلك » وهاجمه على وتمكن منه وقتله[2] ، وأسرع إلى الرسول ينبئه بالخبر ، فسأله « كيف وجدت نفسك معه ؟ » فقال على « وجدت أن لو كان أهل المدينة فى جانب لقدرت عليهم » .

وعندما قتل عمرو أسرع كل من اقتحم الخندق من المشركين ، هارباً عائداً إلى مواقع المشركين ، وتبعهم الزبير بن العوام وضرب نوفل بن عبد الله بالسيف فشقه نصفين ، ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه فقيل له « يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك ؟ » فقال « والله ماهو السيف ولكنها الساعد » .

وحاولت قريش أن تفاجىء المسلمين بالإغارة عليهم ، فكانت ترسل الطلائع بالليل للإغارة ، ومن ذلك أن خالد بن الوليد كر بطائفة المشركين فصادف أسيد بن حضير على الخندق فى مائتين ، فناوشهم ، وجاء الخبر إلى

---

(١) وفى رواية أخرى « إلهى أخذت عبيدة منى يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على أخى وابن عمى ، فلا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . »

(٢) بعث المشركون إلى الرسول يشترون جثمان عمرو بعشرة آلاف فقال لهم الرسول « هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى » .

الرسول ، فزلزلت قلوب المسلمين وبلغ الفزع من أهل يثرب مبلغه وعظم البلاء ، وصار الخوف على النساء والذرارى أشد من الخوف على أهل الخندق ، ودعا رسول الله على الأحزاب قائلا « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم » ، ثم قال الرسول لقومه « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم دعا الله « يا مجيب المضطرين أكشف همى وغمى وكربى ، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى » ، وبشره جبريل بالنصر وبأن الله سيرسل على أعدائه ريحاً وجنوداً .

كسب حلفاء جدد

مما لا شك فيه أن انضمام حلفاء جدد إلى إحدى جبهتى القتال فيه تقوية وتدعيم لمركز هذه الجبهة ، ولهذا دار سباق كبير وبذلت محاولات كثيرة من جانب الرسول ومن جانب قريش . . كل منهما يحاول أن يكسب . .

١ — كان أهل قريظة فى حلف مع محمد ، إذ أنه رأى أنه فى حاجة إلى المؤن والذخائر فى أثناء العملية ، وأنه لابد أن يعد سبيلا لا ينقطع منها حتى يضمن إذا طال بقاؤه هو ورجاله فى مواقفهم أن يبقى الجميع بالشعور نفسه ولا يفتقرون إلى ماء أو غذاء أو سلاح فتفتر همتهم وتضعف عزيمتهم ، ويتملكهم الجزع والخوف والجوع والعطش . . لهذا اتفق محمد مع قريظة وتعاونوا معاً ، وهكذا احتفظ محمد بخطوط تموينه ، فظلت مستمرة غير منقطعة ، وظل هو ورجاله فى أماكنهم مستميتين فى الدفاع . وأما قريش فقد ضاق الأمر بها ، وأخذت تفكر فى الوصول إلى حل سريع وأخيراً لجأت إلى الحيلة ، فعرض حيي بن أخطب اليهودى إقناع بنى قريظة بنقض اتفاقهم مع محمد ، وبذلك ينقطع عنه المدد والغذاء ، وينفتح أمامهم الطريق لدخول يثرب من الناحية الأخرى فيطعنون محمداً من الخلف ، وذهب حيي بن أخطب إلى كعب بن أسد القرظى ، فاغلق كعب دونه باب حصنه ، وأبى أن يفتح له فقال له حيي « ويحك يا كعب ، افتح لى أكلمك » ، فقال له « اذهب عنى إنك

امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بينى وبينه فإنى لم أر منه إلا وفاء وصدقاً ، فنسبه حيي إلى البخل ، وقال له « والله ما أغلقت دونى إلا تخوفاً على حشيشتك[1] أن آكل معك منها » ، ولم يزل به حتى فتح له فقال « ويلك يا كعب ألا توافقنى . . جئتك بعز الدهر وبحر طام ، جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع السيول ، ومن دون منزل قريش غطفان ، وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال كعب « جئتنى والله بذل الدهر ، ويلك يا حيي دعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً » .

وما زال به حتى أثار يهوديته ، فحن كعب إلى إخوانه اليهود وقبل ما عرضه عليه حيي ، ونقض عهده مع محمد وأعطاه حيي عهداً على أنه إذا رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ، أن يدخل معه فى حصنه يصيبه ما أصابه ، ثم أرسل حيي إلى قريش أن تبعث له ألف رجل منهم ، وإلى غطفان أن ترسل إليه ألفاً منهم ليغيروا على المدينة .

٢ — كان بنو قريظة بالمدينة . . كانوا فى داخلها من خلف المسلمين . . كانوا يرسمون لأنفسهم دوراً فى المعركة ، وكان هذا الدور هو أن يطعنوا محمداً والمسلمين من الخلف وأن يرهبوهم . . كانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن حسان بن ثابت وكان فيه حسان ، فمر بهم يهودى ، فقالت صفية لحسان « إن هذا اليهودى يطيف بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا فانزل إليه فاقتله » ، فقال لها حسان « يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » ، فغادرت صفية الحصن ، وأخذت عموداً وضربت به اليهودى حتى قتلته ، فلما رجعت قالت لحسان « انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل » .

---

(١) الدشيش .

وبانضمام بنى قريظه إلى الأحزاب قطعت « بنو قريظة » المدد والميرة عن المسلمين ، وارتفعت روح قريش العسكرية فألفت ثلاث كتائب للهجوم بها على الرسول ، إحداها من فوق الوادى بقيادة ابن الأعور السُّلَمِىّ ، والثانية من الجنب بقيادة عُيَيْنَة بن حصن ، والثالثة من قبل الخندق بقيادة أبى سفيان وفى هذا الموقف نزلت الآيات الكريمة :

« إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِى المؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ، وَإِذْ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ، وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنهُمْ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً »[1].

ونادى الرسول فى قومه « من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ » قال الزبير[2] « أنا يا رسول الله » .

وانطلق إليهم . فلما رجع قال له الرسول « فداك أبى وأمى » ، وأبلغه الزبير أن بنى قريظة قد نقضوا عهده وأنهم يقولون إنه لا عهد بينهم وبين الرسول ولا عقد .

٣ ــ أخذ الرسول يفكر فى وسيلة سريعة إلى الخلاص ، وتقنع الرسول بثوبه واضطجع ومكث طويلا حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبته روح

---

(١) سورة الأحزاب ١٠/١٣

(٢) فى رواية أخرى أن الرسول بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وقال لهم « انطلقوا لتنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إلى لحنا أعرفه » وكان الرسول يقصد بذلك ألا يكلموه كلام صريحاً يفهمه الناس خوفا عليهم من أن يقع لهم تثبيط .

الأمل فنهض يقول «ابشروا بفتح الله ونصره»، ثم قرر أن يلجأ، إلى الحيلة، واتجه إلى أعدائه يحاول أن يفرق بينهم، فما كاد يدرك أن غطفان قد بدأت تمل، وأنها أظهرت امتعاضاً من طول فترة الحصار حتى بعث إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينة إن ارتحلت، وفى خلال مفاوضاته مع غطفان جاءه سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وقالا له «أأمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً تصنعه لنا»، فقال الرسول «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما». فقال سعد بن معاذ «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».

وبذلك فشلت المفاوضة بين محمد وغطفان.

٤ - وطرق الرسول طريقاً آخر يفرق به بين أعدائه. إن قريشاً نجحت فى أن تضم بنى قريظة إليها، فلماذا لا يفعل فعلها ويباعد مابين قريش وقريظة.. أدرك الرسول أن الحرب خدعة، وقرر أن يستخدم هذا المبدأ، وانتهز فرصة قدوم نعيم بن مسعود إليه يعلن إسلامه ويقول «يارسول الله إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت»، فبعث به إلى بنى قريظة، وكان نعيم صديقاً لهم، فخرج إليهم حتى أتاهم فرحبوا به فقال لهم «إنى جئتكم تخوفاً عليكم لأشير عليكم برأيى. يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم»، قالوا «صدقت لست عندنا بمتهم»، فقال «اكتموا عنى». قالوا «نفعل»، قال «لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع ولبنى النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم وبها نساؤكم وأموالكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم[1] عليهم، وابناؤهم وأموالهم ونساؤهم بغيره

(١) أى عاونتموهم.

فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة[1] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين بلادهم ، والرجل ببلادكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم سبعين رجلا يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه[2]. فقالوا له « لقد أشرت بالرأى والنصح وإنا فاعلون » .

وخرج نعيم ، ليجول جولته الثانية ، ولينفذ خطته مع الأحزاب . . . ترك بنى قريظة . واتجه إلى قريش ، وتحدث إلى أبى سفيان ، ومن معه من أشراف قريش ، قال لهم « قد عرفتم ودى لكم ، وفراقى لمحمد ، وإنه قد بلغنى أمر ، قد رأيت أن أبلغكموه نصحاً لكم . . إن يهود بنى قريظة ، قد ندموا على ما صنعوا ، فيما بينهم وبين محمد ، من نقض عهده ، وقد أرسلوا إليه وأنا عندهم : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان ، رجالا من أشرافهم ، فنعطيك إياهم ، فتضرب أعناقهم ، وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارنا ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم ان نعم ، فإن بعث إليكم بنو يهود تلتمس منكم رهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليها رجلا واحداً ، واحذروا على أسراركم » .

وضرب نعيم ضربته الأخيرة ، فولج باب غطفان ، وقال لهم « إنكم اهلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ، ولا أراكم تتهموننى » ، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم .

ونجح نعيم نجاحاً باهراً فى مهمته ، إذ أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبى جهل إلى بنى قريظة يقول لهم « إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً » ، فقالوا له « إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما نال منا من تعد فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً سبعين رجلا » .

---

(١) أى فرصة .
(١) يقاتلوه .

ولجأ أبو سفيان إلى غطفان ، فإذا بها هى الأخرى تتردد فى الإقدام على قتال محمد ، متأثرة بما كان قد وعدها به من منحها ثلث ثمار المدينة .

وهكذا تفرق شمل الأحلاف ضد محمد .

وضعفت شوكة قريش .

وبدأ أثر السياسة واضحاً ، فى رجحان كفة على أخرى ، فى ميدان الحرب .

تأثير الجو على العملية

للجو تأثير كبير وخطير على العمليات الحربية .

هذا ما يقوله العسكريون ، ولهذا فهم يعملون للجو حساباً كبيراً عند وضع خطة الهجوم . . أما أبو سفيان ، وأما قريش ، فلم تعمل له حساباً ، ولهذا كان الجو فى موقعة الخندق ، حرباً عليهم وعوناً لمحمد .

قضى أبو سفيان وقتاً طويلا أمام الخندق ، دون أن يستطيع اقتحامه واجتيازه ، وكان عليه أن يبقى حول الخندق ، مدة طويلة دون أن يصل إلى غرضه .. كان الوقت شتاء ، شديد البرودة قارساً ، ذا عواصف رملية ، ورياح هوجاء ، كفأت قدورهم ، وطرحت أبنيتهم ، وقلعت بيوتهم ، وهدمت خيامهم وصارت الريح تلقى بالرجال ، وتطفىء نيرانهم ، وتملأ عيونهم ، واشتدت الريح بصوت مثل الصواعق ، وأظلمت من شدتها الدنيا .

قال حذيفة بن اليمان فى وصفه لليلة الأحزاب « ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً منها ، تطن فى رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من قتامها السائد » .

الهزيمة والفرار

تملك رجال قريش الخوف والفزع ، وأدركوا أن معركتهم ضد محمد قد باءت بالفشل ، وأنهم غير محققين أهدافهم ، وبلغت حالتهم النفسية درجة بالغة السوء ، حتى أن أبا سفيان قال لهم « يا معشر قريش ، والله إنكم لستم

بدار مقام ، وقد هلك الكراع والخف . وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإنى مرتحل » . ثم وثب على جمله وحل عقاله ، فقال له عكرمة بن أبى جهل « إنك رأس القوم ، وقائدهم ، وتترك الناس ! ! » ، فاستحيا أبو سفيان ، وأخذ ينادى فى الناس « ارحلوا » وأخذ الناس يرحلون .

وعلمت غطفان بما صار إليه حال قريش . فاشتدوا راجعين إلى بلادهم .

وعندما طلع النهار ، إذا ظاهر المدينة خلاء . . . ارتحلت الأحزاب ، وانفك الحصار ، وعاد الأمن ، ونجح الإيمان فى المحنة ، وهتف رسول الله يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

ورجعت الطمأنينة إلى النفوس ، وظهرت خيبة الأحزاب ، بعد أن أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب ، وظهرت صلابة المسلمين فى مواجهة الأزمات المرهقة ؛ وقال الرسول بعد هذا الفوز الكبير « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » .

بعد الغزوة

بعث أبو سفيان إلى الرسول بكتاب يقول فيه « لقد سرت إليك فى جمع ، وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم ، فرأيتك وقد كرهت واعتصمت بالخندق ، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ، ولقائنا ولك منى يوم كيوم أحد » .

ورد عليه الرسول « أتانى كتابك ، وقديماً غرك بالله الغرور ، أما ماذكرت أنك سرت إلينا ، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله تعالى بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ونائلة وهبل » .

دروس المستفادة

وبدراستنا لهذه الغزوة نخرج بالدروس المستفادة التالية :

١ — استخدام وسائل حديثة لم يعهدها العدو ، ومفاجأته بهذه الوسائل من شأنها أن تضعف من عزيمته ، وتقلب خططه رأساً على عقب ، فإن قريشاً فوجئت بوجود الخندق ، وكانت تجهله كوسيلة حديثة للدفاع ، فارتبك تفكيرها ، وطاش تدبيرها ، وانقلبت خططها .

٢ — الحرب خدعة . . . وقد أثبت ذلك نعيم بن مسعود فى مسعاه إلى كل من بنى قريظة وقريش وغطفان ، ومما لا شك فيه أنه كان للخداع أثر كبير فى تغيير دفة الحرب ، فقوات الأحزاب التى بلغت الألوف ، لم يفدها العدد الضخم ، والعدة الوافرة ، والأعداد الكبيرة ، والسلاح والخيل والإبل ، إذ تمكن ابن مسعود من أن يخدع القادة ، وأن يضرب الحلفاء بعضهم ببعض ، وبذلك تلاشى التعاون بين الحلفاء ، وفقد القادة السيطرة على قواتهم مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف القوى ، وتثبيط الهمم .

٣ — تعاون القائد مع الجند فى الميدان أمر هام ، فإن الرسول الكريم حينما أحس بضرورة الإسراع فى إنشاء الخندق وحفره ، لم يرض أن يقبع هو فى خيمته ويترك الجنود تحفر الخندق ، بل ظل بينهم يحمل التراب كما يحملون ، ويحفر كما يحفرون ، وكان ذلك حافزاً كبيراً للجند ، فأقبلوا على الحفر بروح طيبة ، وشعور فياض ، ورغبة أكيدة ، وكان لهذا كله أثر كبير فى إتمام حفر الخندق فى ستة ايام .

٤ — يجب أن تسيطر روح القتال على المقاتلين ، فهى تدفع بهم إلى الحرب دون خوف من الإصابة أو الموت .

أصيب سعد بن معاذ ، وكانت جروحه شديدة ، وكان هو عميق الرغبة فى متابعة الجهاد حتى يستقر أمر المسلمين ، وتنكس راية خصومه فدعا الله وقال : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها . . وإن كنت

قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعلها شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وموقف على بن أبى طالب أمام عمرو بن عبد ود ، خير دليل على صدق ما نذهب إليه ، فها هو ذا عمرو يهدد علياً ويخيفه ، ويطلب منه أن يرسل له من هو أكثر كفاية منه ، فيأبى على ذلك ، ويصمم على نزاله ويقول له « ولكنى والله أحب أن أقتلك » . وبفضل الروح الحربية المسيطرة على علىّ رضى الله عنه ، تمكن من قتل عمرو . ولما شاهد ذلك زملاء عمرو ، الذين نجحوا فى اجتياز الخندق ، فروا هاربين بعد أن أيقنوا أنهم ملاقون ذات المصير الذى انتهى إليه عمرو بن عبد ود ..

وروح القتال سيطرت على صفية بنت عبد المطلب يوم رأت يهودياً يطوف بحصن حسان بن ثابت ، فحملت عموداً ضربت به اليهودى فقتلته[1] .

٥ ــ ضرورة وأهمية تأمين الخطوط الخلفية وضمان وسائل الإعاشة ، فى ميدان القتال ، ولقد أثبت الرسول أنه قائد ممتاز ، عندما وضع هذين الأمرين أمام ناظريه ، فقد أدرك أن الحصار قد يطول ، وأنه فى حاجة إلى وسائل الإعاشة المختلفة ، كما أنه فى حاجة إلى أن يؤمن ظهره ، ولهذا تعاقد مع بنى قريظة وتعاهد معهم ، حتى أنه عندما علم أنهم نقضوا عهدهم له ، وانضموا إلى قريش ، سعى إليهم يعرض عليهم ثلثى ثمار المدينة ليضمن بقاءهم بجانبه ، لأن فى ذلك ضمان خطوطه الخلفية وتأمينها ، ولهذا دفع أيضاً بنعيم ابن مسعود ليفرق بين بنى قريظة وبين قريش ، ليحتفظ بخطوطه الخلفية ، آمنة سليمة ، لا خطر منها يتهدده .

٦ ــ أثبتت موقعة الخندق ضرورة الحصول على حلفاء جدد ، وضمهم إلى جبهة القتال . . . والصراع الذى دار بين الرسول وقريش ، حول ضم بنى قريظة دليل قاطع على أهمية الحصول على حلفاء ومحالفات . . . ولقد كان

---

(١) راجع صفحة ١١٦ فقرة ٢

من الضرورى أن يتعاهد الرسول ويتصالح مع بنى قريظة ، لأن فى ذلك تقوية لمركزه وتدعيما لمكانته أمام أعدائه الذين جاءوا إليه متحالفين متساندين متضامنين . .

٧ – الجو . . الجو له أثر كبير على العمليات الحربية . . فلو أن أبا سفيان قدر لهذا العامل أثره ، لاختار الوقت المناسب ، إلا أنه لم يقدره حق قدره ، ولهذا طالت مدة الحصار ، وجاء الشتاء قاسيا ، وجاءت الريح شديدة ، فقلبت أحوال الجو حالتهم وجعلتهم يفرون ، بعد أن وقعت بهم خسائر فادحة ، فالرياح الشديدة ، والمطر الغزير ، والرعد القاصف ، والبرق اللامع ، والخيام التى اقتلعت ، والقدور التى كفئت ، كل هذا أدخل الرعب إلى نفوسهم واعتقد أبو سفيان وقومه أن المسلمين سينتهزون الفرصة ليعبروا إليهم ، حتى أن طليحة ابن خويلد نادى فى الناس : « إن محمداً قد بدأ كم بشر فالنجاة النجاة » .

غزوات بعد الخندق

١ – غزوة بنى قريظة

كان لابد للرسول من أن يؤمن نفسه فى المدينة من بنى قريظة ، فإن جوارهم لم يصبح مأمونا ، ولا سلمهم مكفولا ، ولا وعدهم مضمونا ، ولهذا أوحى الله إلى الرسول صبيحة جلاء الأحزاب أن يغزو بنى قريظة[١] ورأى الرسول مباغتة بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ، ويقووا حصونهم وأمر الرسول بلالا أن ينادى فى الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

واجتمع ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين ، وستة وثلاثون فرسا ، وسلم الرسول لواء الجيش إلى على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ،

(١) عن عائشة قالت أنه لما رجع الرسول يوم الخندق دق الباب فارتاع الرسول وخرج فخرجت فى أثره فوجدته يحادث رجلا على دابة فلما رجع سألته عن الرجل قال « إنه جبريل أمرنى أن أمضى الى بنى قريظة » .

ولبس صلى الله عليه وسلم السلاح والدرع والمغفر والبيضة ، وتقلد القوس وركب فرسه ، وأخذ قناته ، وسار والناس من حوله يقول لهم : « إن جبريل بعث إلى بنى قريظة ليزلزل حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم[1] » .

ولما اقترب الرسول من حصونهم كان القوم لا يزالون على غوايتهم فقد نظروا إلى المسلمين ، ثم سبوا الرسول ونساءه سباً قبيحاً ، فرأى على أن يبعد الرسول عنهم ، فاعترض طريقه وقال : « يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث ؟ » إلا أن الرسول تقدم وقال : « يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ » وقال لهم أسيد بن حضير : « يا أعداء الله لا تبرحوا حصونكم حتى تموتوا جوعا إنما أنتم بمثل ثعلب فى جحر » واشتد الحصار وقذف الله الرعب فى قلوبهم ، فعرض عليهم كبيرهم كعب بن أسد ، ثلاثة حلول : إما أن يؤمنوا بمحمد ، وإما أن يقتلوا نساءهم وأولادهم ويحملوا سلاحهم ويخرجوا إليه فإما يقضون عليه أو يقضى عليهم ، وإما أن ينزلوا فجأة على محمد وكان اليوم يوم سبت ، ولم يكن هو يتوقع نزولهم فى هذا اليوم ، فلما رفضوا حلوله الثلاثة قال لهم : « ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما » .

ولما طال الحصار طالبوا الرسول بأن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم وكان حليفهم وصديقهم ، فأذن له النبي ، وذهب إليهم فسألوه : « أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ » فقال لهم : « نعم إنه الذبح » .

وسلم بنو قريظة فأمر الرسول فأوثقوا ، وطلب منهم أن يختاروا أحدهم يحكم فيهم ، فاختاروا سعد بن معاذ سيد الأوس ، وقالوا له : « يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم » فقال سعد : « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ » قالوا : « نعم » : وقال الرسول أيضاً :

---

(١) سأل الرسول أصحابه « هل مر بكم أحد ؟ » قالوا نعم دحية الكلبي مر على بغلة بيضاء وأمرنا بحمل السلاح » فقال لهم الرسول « إنه جبريل »

« نعم » فقال سعد : « إنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء » . فقال الرسول : « لقد حكمت فيهم بحكم الله » .

وخرج الرسول إلى سوق المدينة وحفر بها الخنادق وأتى بهم وهم بين ثمانمائة وتسعمائة ، وضرب أعناقهم[١] ، وبلغت الغنائم ألفاً وخمسمائة سيف وثلثمائة درع ، وألف رمح ، وخمسمائة ترس وصحيفة ، وعدداً كبيراً من الإبل والغنم .

* * *

٢ — غارة على بنى بكر

اجتمع لفيف من الخزرج ، وقرروا أن يقتلوا زعماء اليهود ، وكان أول من قتل منهم سلام بن أبى الحقيق[٢] ، ثم أرسل النبي سرية برياسة محمد بن مسلمة فى ثلاثين راكبا ، فشنوا غارة على بنى بكر بن كلاب ، وكانوا بمكان على مسيرة سبع ليال من المدينة ، وكانوا يضارون الله ورسوله والمسلمين ، فهزمتهم السرية وقتلت منهم عشرة رجال .

* * *

٣ — غزوة بنى لحيان

بنو لحيان هم قوم غدروا بأصحاب الرجيع ، وقتلوا بعضهم وباعوا اثنين إلى قريش ، هما حبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، فقتلوهما ، وكانا من أصحاب الرسول ، وما كان الرسول ليترك دم أصحابه ، ولهذا خرج على رأس جيش من مائتى راكب واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة ، وكان يكتم وجهته حتى لا يعرف أعداءه أنه فى طريقه إليهم ، إلا أنهم عرفوا برغم التكتم الشديد فهربوا فى الجبال .

* * *

(١) عندما جىء بيحيى ليلاقى جزاءه ، نظر الى الرسول وقال « أما والله مالمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل » ثم خاطب قومه « أيها الناس لابأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل . »

(٢) قتله عبد الله بن عتيك

٤ — غزوة ذى قرد[1]

بعد عودة الرسول من غزوة لحيان ، أغار عيينة بن حصن فى خيل من غطفان على إبل المسلمين ، وكانت ترعى فى مكان يسمى الغابة على مسيرة يوم من المدينة ، وكان يرعاها أبو ذر الغفارى ومعه امرأته وابنه ، فقتلوا ابنه وسبوا امرأته . وأخذوا الإبل ، وكان أول من عرف سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلى فأخذ ينادى « واصباحاه » ثم لحق بالقوم وأخذ يرميهم بالنبال ويناوشهم رغبة فى تعطيلهم حتى يصله المدد ، ولما علم الرسول قال : « ياخيل الله اركبى » ، وأرسل طليعة تحت قيادة المقداد بن عمرو لتعقب القوم حتى يلحق بهم الجيش ، وجعل على المدينة سعد بن عبادة ، وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، وسار بالجيش ولكنه لم يلحق بالقوم فعاد إلى المدينة .

* * *

٥ — سرية إلى بنى أسد

بعث الرسول سرية إلى بنى أسد . برياسة عكاشة بن محصن فى أربعين راكباً ، فهربوا من منازلهم ، وعاد عكاشة ومعه مائة من الإبل .

* * *

٦ — سرية إلى ذى القصة

علم الرسول أن أعرابا بذى القصة[2] ، يعتزمون الإغارة على المدينة ، فأرسل إليهم محمد بن سلمة فى عشرة من المسلمين ، فاستشهدوا جميعاً إذ أخذهم أعداؤهم على غرة فأرسل الرسول أبا عبيدة على رأس جيش كبير ، ليقتص منهم فلما علموا بمقدمه هربوا فى الجبال .

* * *

٧ — سرية إلى بنى سليم

كانت قبيلة بنى سليم تضار المسلمين فى تجارتهم ، فأرسل إليها الرسول زيد

---

(١) اسم ماء وتسمى أيضا غزوة الغابة .

(٢) موقع قرب المدينة .

ابن حارثة ، فلما علموا بمقدمه هربوا ، ودلتهم امرأة على مكان يختبىء فيه بعض الأعداء ، فقبضوا على عشرة كان زوج المرأة أحدهم فعفا عنه الرسول .

***

٨ — سرية إلى بنى كلب

جهز الرسول جيشاً كبيراً بقيادة عبد الرحمن بن عوف لغزو بنى كلب فى دومة الجندل ، فأسلم القوم ودفع من لم يسلم الجزية .

***

ويجب بعد أن سردنا هذه العمليات أن نقول إن الرسول قام بها لغرضين :

الأول : رغبته فى أن يؤمن نفسه وقومه من شر اليهود والقبائل التى كانت ضمن الأحزاب . ولقد نجح الرسول فى ذلك نجاحاً كبيراً فقد أخضع جميع القبائل وأصبح آمناً .

والثانى : رغبته فى أن تهابه العرب . وأن تدرك قريش أن مكانته قوية ، وأن العرب جميعاً تخشاه وتهابه ، وتعمل ألف حساب لقوته التى زادت ورقعته التى اتسعت ونفوذه الذى امتد ، ومركزه الدينى والسياسى الذى أصبح حقيقة واقعة .

بقى أن نقول إن الإسلام وقع فى قلب عمرو بن العاص ، إذ أثاره ما يلقاه الرسول من ظفر ، والتقى عمرو بخالد الذى كان قد أجمع أمره على الإسلام وقرر الذهاب إلى النبى ليتبعه ، فقال له « أين يا أبا سليمان ؟ » فقال « والله لقد استقام المنسم [1] وإن الرجل لنبى ، اذهب والله فأسلم . » وانطلقا معاً إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

محمد ويهود بنى خيبر

خيبر مدينة كبيرة ، ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، يسكنها يهود ، وكانت تعد حصن اليهود بالحجاز ، وأهلها أقوى شكيمة ، وأكثر اليهود مالا ،

---

(١) أى وضح الطريق .

وأشدهم عداوة للرسول ولدعوته ، آزروا الأحزاب فى حصارها للمدينة ، وأبدوا الكثير من ضروب الغدر والخيانة للمسلمين . لهذا قرر الرسول أن يقضى عليهم ليأمن كيدهم .

ولهذا أمر فى السنة السابعة للهجرة بإعداد العدة لغزو خيبر ، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثى ، ودفع رايته إلى على بن أبى طالب ، وخرج إليهم فى ألف وستمائة مقاتل ومائة فارس ، وقطعوا الطريق مابين خيبر والمدينة فى ثلاثة أيام ، حتى أن أهالى خيبر فوجئوا بقوات محمد أمام المدينة فهربوا يتصايحون « هذا محمد والجيش معه » ، وقال الرسول وهو يستمع إلى صيحاتهم « خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . »

وبرغم هذا — أى برغم مفاجأة محمد لهم — فإن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد ، ولما بحثوا الموقف كان هناك رأيان ، الأول : يدعو إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود بنى القرى وتيماء تغزو المدينة وتقضى على محمد ، والآخر : يرى الدخول فى حلف مع محمد ، إلا أن العداوة بينهم وبين المسلمين كانت على درجة لا تسمح بتنفيذ الرأى الثانى ، ولهذا كان يهود خيبر على اتصال بغطفان يستعينون بهم على محمد .

كانت خيبر مجموعة من الحصون المنفصلة بعضها عن بعض ، والمنقسمة إلى أقسام ثلاثة : يسمى الأول : حصون النطاة ، وهى تتألف من حصن ناعم والصعب وقلة . والثانى : يسمى الكتيبة ، ويتألف من حصن أبى والبرىء ، والثالث : يسمى الشق ويتألف من حصن الغموص والوطيح والسلالم .

وكان الرسول قد نزل بوادى الرجيع بين خيبر وغطفان ، ليحول بين إمداد غطفان لخيبر فى أثناء القتال لأنهم كانوا متحالفين . . وأوهمت غطفان أن الهجوم يتجه إليها ، وأن قوة من المسلمين توشك أن تلتف بها ، وقد حدث فعلا أن تحركت غطفان لمعاونة خيبر ضد الرسول ، إلا أنها حين غادرت منازلها ، سمعت من ورائها ضوضاء ، فظنت أن المسلمين من ورائها ، فعادت

وخلت بين رسول الله وبين خيبر ، وهكذا نجحت خطة الرسول فى يهود خيبر عن حلفائهم المشركين .

وقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين للقتال ، وتضرع الرسول إلى الله بهذا الدعاء « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرض وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، إنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها . » ثم قال « أقدموا باسم الله . »

وكان اليهود يبحثون الموقف ويتشاورون ، فأشار عليهم زعيمهم سلام ابن مشكم ، فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصنى الوطيح والسلالم ، ووضعوا ذخائرهم فى حصن ناعم ، ودخل المقاتلون منهم حصن نطاة .

وواجه الرسول حصون النطاة ، فجاءه الحباب بن المنذر وقال « يا رسول الله ، إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به ، فلا نتكلم وإن كان هو الرأى تكلمنا » فقال له الرسول « هو الرأى » فقال الحباب « يا رسول الله إن أهل النطاة ، لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، تحول يارسول الله » .

ونزل الرسول على رأى الحباب ، وتحول إلى حصن ناعم وحاصره سبعة أيام ، وكان يعطى الراية كل يوم لواحد من كبار الصحابة ، وحدث خلال هذه الأيام السبعة اشتباك عنيف بين الفريقين ، حتى أن كتائب اليهود كشفت من أمامها من المسلمين ، حتى انتهت إلى موقف الرسول فاشتد ذلك عليه وبات مهموما :

وخلال الليلة السابعة من الحصار كان عمر هو رئيس الحرس ، فألقى القبض على أحد اليهود وأمر بضرب عنقه إلا أن اليهودى طلب منه أن يسهل له لقاء محمد ، وعندما قابله الرسول ، قال اليهودى « إذا أمنتمونى على

حياتي فإني أدلى لكم بأخبار أنتم في أشد الحاجة إليها وفيها نجاحكم . إن القوم قد أجهدهم الحصار ، وهم يرسلون الأطفال إلى حصن آخر ، إذ قرروا أن يناجزوكم غداً ، فإذا فتح الله عليكم هذا الحصن ، فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات وسيوف ودروع ، تعينكم على فتح بقية الحصون » .

وبناء على هذه المعلومات بات الجيش معداً لخوض المعركة وتشاوروا فيمن يعطى الراية ويتولى القيادة ، وقال الرسول « سأعطى الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه » ، وفي الصباح استدعى الرسول « على بن أبي طالب » ، وأعطاه الراية وولاه القيادة قائلا له « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك » ولما تهيأ على للحملة قال له الرسول « يا على والذى نفسى بيده إن معك من لايخذلك ، هذا جبريل عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فأبشر بالرضوان والجنة ياعلى إنك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم » .

سار «على» على رأس الجيش إلى الحصن ، والتقى الجمعان ، وبدأت المبارزة بين الطرفين ، وكان أول من خرج من اليهود الحرث أخو مرحب ، وكان معروفاً بالشجاعة ، فانكشف المسلمون . ووثب «على» فتضاربا وتقاتلا ، فقتله على ، ولما علم بذلك مرحب خرج سريعاً من الحصن ، وقد لبس درعين ، وتقلد سيفين ، ومعه رمح لسانه ثلاثة أسنان ، وأخذ يقول « قد علمت خيبر أنى مرحب .. شاكى السلاح بطل مجرب ... إذا الحروب أقبلت تلهب ...[1] » وبرز له على[2] وأخذ يقول منشدا ...

---

(١) قد علمت خيبر أنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينا أضرب ... إذا الليوث أقبلت تحرب (تغضب)
ان حماى للحمى لايقرب ... يحجم عن صولتى المجرب

(٢) جاء فى كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلى أن الذى برز هو كعب بن مالك ، وأنه أنشد رداً عليه .

قد علمت خيبر أنى كعب ... وأنى متى تشب الحرب
ماض على الهول جرىء صلب ... معى حسام كالعقيق عضب

أنا الذى سمتنى أمى حيدره[1]

كليث غابات كريه المنظـــره

أكيلـكم بالسيف كيل السندره

وهجم مرحب على «على» وضربه فطرح ترسه من بين يده ، فتناول على بابا وجده عند الحصن وتترس به عن نفسه وظل يقاتل به ، حتى فتح الله عليه الحصن ، ثم ألقاه من يده وراء ظهره . وكان طول الباب ثمانين شبراً ويقال إن سبعين رجلا لم يستطيعوا تحريكه إلا بعد جهد .

وحاصر المسلمون حصون خيبر ، واحداً وراء آخر ، وأخذوا يرمونها بالمنجنيق ، ويمنعون عنها الزاد والماء ، حتى استولوا عليها جميعاً بالقوة ، ماعدا حصن الوطيح والسلالم ، فإنهما فتحا صلحاً ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة من مأكل وملابس ، ويقول بعض الصحابة إن المسلمين لم يملئوا بطونهم من طعام إلا بعد فتح خيبر[2] .

كان اليهود فى قتالهم أشداء أقوياء لا يتنازلون عن أى شبر من الأرض ولا يسلمون حصناً ، إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاعاً مجيداً ، وبعد ألا يبقى لديهم قوة يصدون بها المسلمين . . كانوا يغادرون الحصن إلى الحصن الآخر يذودون عنه حتى إذا اضطروا إلى التسليم انتقلوا إلى غيره وهكذا .

عامل الرسول يهود خيبر بغير ما عامل به بنى قينقاع وبنى النضير حين أجلاهم عن أرضهم ، لأنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود ، واطمأن إلى أنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) حيدرة من أسماء الأسد، سمت به فاطمة بنت أسد بن هاشم ابنها علياً ، وأرادت بذلك أن يكون اسم ابنها كاسم أبيها ، وكان أبو طالب غائباً فلما حضر كره الإسم وسماه علياً .

(٢) قيل لأن المئونة عند المسلمين قلت فتوجه بعضهم إلى الرسول يشكو له أمرها ، ويطلبون مايمسكون به رمقهم ، فلم يجد شيئا يعطيهم اياه ، فأذن لهم فى أكل لحوم الخيل ، ودعالهم « اللهم انك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شىء أعطيهم اياه اللهم افتح أكثر الحصون طعاما .»

وكان انتصار الرسول على يهود خيبر ذا أثر كبير على يهود فدك ، فبعثوا إلى الرسول يصالحونه على النصف من غلة أموالهم فقبل منهم ذلك .

وكذلك فعل يهود تيماء فقد رضوا بدفع الجزية .

أما يهود وادى القرى فأبوا أن يستسلموا أو يصالحوا ، فسار إليهم الرسول وحاصرهم ثم قاتلهم وهزمهم وغنم منهم مغانم كثيرة ، وانتهى بهم الأمر إلى قبول الوضع الذى قبله أهل خيبر ، يزرعون الأرض ويخدمون النخل ولهم نصف الغلة .

وبعد أن انتهى الموقف بين الرسول واليهود ، بعث الرسول بعض حملات تأديبية فأرسل عمر بن الخطاب على رأس ثلاثين رجلا إلى بعض من هوازن ، ووجه بشير بن سعد الأنصارى إلى بنى مرة ، ثم وجهه إلى رئيس فزارة ويسمى عيينة ، وأرسل غالب بن عبد الله الكلبي من بنى ليث إلى بنى الملوح بقديد .

وقد وافق فتح خيبر قدوم جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة بعد أن ظلوا بها بضعة عشر عاما ، وقد سر الرسول سروراً كبيراً حتى أنه قال مبتهجاً « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » .

غزوة مؤتة

مؤته مدينة معروفة بالشام ، على مسافة مرحلتين من البيت المقدس ، وقعت الغزوة فى العام الثامن للهجرة وفى شهر جمادى الأولى على التحديد ، ولم يشترك فيها الرسول ... كان الرسول قد بعث الحارث بن عمير الأزدى إلى أمير بصرى من جهة هرقل ويسمى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى وقال له « أين تريد ؟ » فقال « الشام » فعاد يقول « لعلك من رسل محمد » فقال له « نعم » فأمر به فأوثق ثم ضرب عنقه ، ولما علم الرسول حزن على مقتله أشد حزن وقرر أن ينتقم له .

أمر الرسول مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف وقال « إن قتل زيد فالأمير جعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة[1]، فإن قتل فليرتض المسلمون رجلا من بينهم يجعلونه عليهم أميراً ».

وخرج الرسول مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف يودعهم وقال « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . . اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلا بصومعة ولا تقربوا نخيلا ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء . . ».

ووصل الجيش العربى إلى معان ، وهناك علم المسلمون أن جيش هرقل قد نزل بأرض البلقاء ، وأن عدد الجيش يبلغ مائة ألف من الروم مع ما انضم إليهم من لخم وجذام وبهرام ، وهؤلاء يبلغون مائة ألف ، وجاء فى رواية أخرى أن القوم كانوا مائتى ألف والعرب خمسين ألف ومعهم خيول كثيرة .

---

(١) زيد بن حارثة أبوه حارثة بن شرحبيل ،أمه سعدى بنت ثعلبة ، اختطفه وهو صغير رجال وباعوه فى سوق عكاظ فاشتراه الحكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بـ ٤٠٠ درهم فلما تزوجت من الرسول وهبته له ، ولما علم أبوه أسرع الى الرسول مع أخويه يستردونه فقال لهم الرسول « ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى » فلما دعى زيد قال للرسول « ما أنا بالذى اختار عليك أحداً . أنت منى بمكانة الأب والأم » ولما سمع منه الرسول ذلك قال « يامن حضر اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى » وأسلم زيد وهاجر ضمن المهاجرين الى المدينة وآخى الرسول بينه وبين حمزة ، واشترك فى حروب المسلمين فى الخندق والحديبية وخيبر وحنين ، وخرج أميراً لسبع سرايا كانت آخراها مؤتة حيث استشهد .

وجعفر بن أبى طالب أبوه أبو طالب عم الرسول وأمه فاطمة بنت أسد ، تربى فى كنف عمه العباس بن عبد المطلب وأعلن إسلامه ثم هاجر الى الحبشة مع المهاجرين وكان مندوب المسلمين الى النجاشى ضد وفد قريش بقيادة عمرو بن العاص وعاد الى المدينة يوم فتح خيبر واستشهد فى مؤته وأما عبد الله بن رواحة فقد جاء مكة مع وفد من المدينة وأسلم ثم رافق الرسول وشهد بدرا وأحد والحديبية وقاد بعض السرايا حتى اشترك فى موقعة مؤتة وتردد ثم حارب وقتل ... ويقول ابن اسحاق أن الرسول قال فى ذلك « رأيت فيما يرى النائم قد رفعوا الى فى الجنة على سرر من ذهب ورأيت فى سرير عبد الله ازورارا عن سريرى صاحبيه » فسئل الرسول « لم هذا ؟ » قال « مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى » .

وتبادل المسلمون الرأى فقال البعض « نكتب إلى رسول الله فنخبره الخبر ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضى له . »

وأنهى الموقف عبد الله بن رواحة إذ خطب فيهم قائلا « يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون ألا وهى الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة . »

وتشجع الناس وقالوا « صدق ابن رواحة » .

ومضوا إلى لقاء عدوهم حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل ، والتحم الجيشان فى معركة عنيفة لا تعادل فيها بالمرة ، يفوق فيها جيش هرقل جيش المسلمين كما سبق القول ، وقتل فى بداية القتال الأمير الأول زيد بن حارثة طعناً بالرماح ، فأخذ الراية من بعده جعفر بن أبى طالب ، وقاتل وهو على فرسه فلما أحاط به أعداؤه نزل عن فرسه وعقرها ، ثم قاتل قتالا مجيداً ، حتى إذا اشتد القتال أخذ يردد على مسمع من جنوده :

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبـــة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها

وانقض على هامات الروم يطيح بها يميناً وشمالا وخاصة قادة الروم . . فحشد هؤلاء قواتهم وأحاطوا به من كل جانب ، وأخذوا يوقفون سيله ، ويغلقون سبيله إلى داخل صفوفهم ، حتى استطاعوا أن يصيبوه بضربة سيف ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره فأصيبت بضربة قطعتها ، فحمل اللواء بعضديه وأخذ يكبر ويهلل ، حتى تسلطت عليه سيوف الروم فقطعت رجليه ، ثم شطرت جسده شطرين ، وقتل بعد أن استقرت فى صدره دون ظهره ثلاث

وتسعون طعنة كانت كلها فى حال الإقبال لا فى حال الإدبار .

ثم حمل الراية من بعده عبد الله بن رواحة ، فتقدم وهو على فرسه ، وكان يتردد بعض التردد[1] ثم قال مخاطباً نفسه :

أقسمت يا نفس لتنزلنه
لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه
مالى أراك تكرهين الجنة
قد طالما كنت مطمئنة
هل أنت إلا نطفة فى شنة[2]

ثم نزل عن فرسه وقاتل بسيفه حتى قتل .

وأخذ الراية ثابت بن أقدم العجلانى فقال « يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » قالوا « أنت » قال « ما أنا بفاعل » .

وأخيراً اصطلحوا على أن يتولى القيادة خالد بن الوليد ، وذهب إليه ثابت وقال له « أنت أعلم بالقتال منى » .

وتولى خالد القيادة وحارب حرباً لا هوادة فيها ، حتى قيل ان تسعة أسياف اندقت فى يده ، ولما تحاجز القوم ليلا ، أعاد تنظيم جيشه ، فجعل الميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، والساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، حتى ظن الروم أن مدداً جديداً وصل المسلمين وحارب خالد فى همة وقوة ، وكان فى ذات

---

(١) راجع هامش صفحة ١٩٩ وصفحة ٢٠٠ .

(٢) فى رواية أخرى
يانفس ان لا تقتلى تموتى
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلى فعلهما هديت

الوقت ، ينسحب بقواته إلى قرية مؤتة وظل يناوش الروم سبعة أيام حتى تم الانسحاب ، وعاد بقواته إلى المدينة[1] .

ولموقعه مؤتة آثار كثيرة منها :

١ — أن القبائل العربية المتاخمة للشام وللعراق ، لمست عن قرب بسالة المسلمين وشجاعتهم فى الحرب واستماتتهم فى القتال واستشهادهم بروح عالية لا مثيل لها وبإيمان عجيب يسيطر على نفوسهم ، وكان هذا كله سببا فى دخول الكثيرين فى الإسلام ، حتى أن قائداً لإحدى فرق الروم ويسمى فروة ابن عمرو الجذامى أعلن إسلامه ، فقبض عليه هرقل ووعده بالعفو وبإعادته إلى قيادته إن ارتد عن الإسلام ، فلما أبى قتله .

ودخل فى الإســـلام كثير من سليم على رأسهم العباس بن مرداس ، وكذلك كثيرون من أشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة ، وبذلك اشتد الأمر للمسلمين فى شمال المدينة حتى حدود الشام ، وازداد الإسلام عزة وقوة ومنعة .

٢ — رأت قريش أن فى عودة المسلمين من مؤتة انهزاماً لهم ، ولهذا قررت أن تنقض عهودها مع المسلمين . . فإن عهد الحديبية قضى أن من شاء الدخول فى عقد محمد فليدخل ، ومن شاء الدخول فى عقد قريش فليدخل ، ونتيجة لذلك دخلت خزاعة فى عهد محمد ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ، وكان بين الاثنين ثأر وعداء ، وبمقتضى عهد الحديبية هدأت الحالة بينهما . . ولكن هزيمة المسلمين فى مؤتة كما صورها القرشيون ، جعلت بنى بكر تنقض العهد وتهاجم خزاعة ، فأسرع عمرو بن سالم الخزاعى إلى الرسول ينبئه بنقض العهد ، فقال له الرسول « نصرت يا عمرو بن سالم » ورأى الرسول فى اعتداء

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر فقال « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ثم أخذ الراية سيفاً من سيوف الله حتى فتح الله عليهم »

بنى بكر نقضاً من جانب قريش للعهد ، ولهذا قرر أن يعد العدة ليهاجم قريشاً فى داخل مكة ، وبدأ يستعد للحرب القادمة . . . للمعركة الكبرى المقبلة . . . للغزوة العظيمة . . . غزوة الفتح .

عمليتان ضد قضاعة

١ ـ العملية الأولى بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، فقد علم الرسول أن قبيلة قضاعة النازلة على ساحل البحر تعد لحرب المسلمين ، فجهز جيشاً من ثلثمائة مقاتل كان فيهم عمر بن الخطاب ، وزودهم الرسول بجراب به تمر يأكلونه فى أثناء تحركاتهم ، وأشرف القائد أبو عبيدة بنفسه على تموين القوات ، حتى إذا أوشك التمر على الفراغ أخذ يعطى كل محارب تمرة واحدة فى اليوم وقيل لأحدهم «كيف كنتم تصنعون ؟» فقال «نمصها كما يمص الصبي الثدى ، ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل» .

وبعد أن انتهى التمر أكل الجيش ورق الشجر ، ثم أرسل الله عليهم حوتاً ضخما يبلغ طوله خمسين ذراعاً ، فأكلوا منه وشبعوا عشرين يوما ، وكانت هذه الغزوة فى شهر رجب ولم يذكر أن هذه السرية قاتلت أحداً .

٢ ـ العملية الثانية[1] بقيادة عمرو بن العاص[2] على رأس ثلثمائة رجل وكانت الغزوة فى شهر جمادى الآخرة . . . سار عمرو بقواته ، حتى بلغ ماء بأرض جذام يسمى السلسل ، وبلغه أن العدو ذو عدد كبير ، فأرسل يطلب المدد من الرسول ، فأمده بمائتى رجل فيهم أبو بكر وعمر ، وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح[3] ، ومضى الجيش تحت قيادة موحدة بزعامة عمرو بن العاص ، والتحم مع العدو ، وانتصر المسلمون .

---

(١) تسمى ذات السلاصل .

(٢) اختير عمرو بالذات لهذه الغزوة لأن جدته قضاعية وأراد الرسول أن يرسل الى الأعداء ابن أختهم فيقاتلهم .

(٣) أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فرفض عمرو قائلا «إنما قدمت على مدد وأنا الأمير ولا إمارة بك حتى تؤم الناس» فقال أبو عبيدة «لا ، أنا على ما انا عليه وأنت على ما أنت عليه ثم عاد أبو عبيدة يقول «يا عمرو إن رسول الله قال لى لا تختلفا ، وإنك ان عصيتنى أطعتك .»

ومنع عمرو المسلمين من اقتفاء أثر العدو ، خوفاً أن تكون هزيمتهم إحدى مكايد الحرب ، كما منعهم من إيقاد نار ، واعترض عمر إلا أن أبا بكر قال له : « إن رسول الله اختاره رئيساً علينا لمعرفته بالحرب أكثر منا » ، وكان عمرو قد هدد جنده « لا يوقد أحد ناراً إلا قذفته فيها » ولما عاد الجيش اشتكى الجند إلى الرسول فسأله الرسول عن سبب عدم مطاردة العدو وعدم الإذن لرجاله بإيقاد النار فقال : « كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد » .

الدروس المستفادة من العمليات بعد الخندق

١ – سلامة الدولة الإسلامية المبتدئة كانت غاية هامة من وجهة نظر الرسول ، فإن دعوته قامت وسط مجموعة من الأديان التى كانت ترى فى قوة دعوته وانتشار دينه الجديد خطراً كبيراً عليها ، ولهذا كانت تعمل جاهدة على إضعاف شأن الدعوة وعلى القضاء على الرسول وعلى مؤيديه ومعتنقى دينه ولهذا كان من أهم ما ألقى على عاتق الرسول القضاء على شوكة هؤلاء ، لأن فى القضاء عليهم وإضعافهم تقوية لمركزه وتدعيما لدعوته . . . وإن معتنقى هذه الأديان كانوا يتضامنون جميعاً فى سبيل مصلحتهم المشتركة ضد محمد ودعوته ولهذا أسرع الرسول فقضى على اليهود ، حتى إذا ما أحس بخطر المقيمين منهم فى خيبر ، قضى عليهم ليأمن خطرهم .

وإذا تحدثنا عن سلامة الدولة فسلامة الجيش ضرورية ولازمة ، ويجب على القائد أن يعمل جاهداً فى سبيل تحقيقها ، وفى سبيل المحافظة على قواته المسلحة ، خلال العمليات ، حتى تقل الخسائر سواء فى الأرواح أو فى العدة أو فى العتاد ، وها هو ذا عمرو بن العاص يأمر قواته بعدم إشعال النار ، وأغضبهم منه ذلك الأمر فلما شكوه إلى الرسول قال القائد العبقرى الحكيم « كرهت لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم » . وأيده فى ذلك الرسول .

٢ – المفاجأة من أهم أسلحة الحرب ، فقد تلاحظ أن يهود بنى خيبر

فوجئوا بوجود قوات محمد أمامهم ، حتى أنهم ذهلوا وظلوا يتصايحون : « هذا محمد والجيش معه » .

وتلاحظ أن بشير بن سعد فى سيره إلى جماعة من بنى غطفان كان يسير ليلا ويكمن نهارا ، وهذا السلوك دليل واضح على محافظة القائد على مفاجأة قوات عدوه ، فهو يسير ليلا حتى لا يشعر بحركاته مخلوق ويكمن نهاراً حتى يختفى عن أعين الرقباء .

وفى سرية غالب بن عبد الله الكابى أمهل بنى الملاح حتى ناموا ، ثم هاجمهم وقتل منهم كثيرين .

٣ - كانت الشورى من أهم الأسباب فى اختيار الخطة الصالحة لهذه العمليات وكما سبق القول كان الرسول يهتم بالشورى كل الاهتمام فهو حينما واجه حصون النطاة نصحه الحباب أن يغير وجهته ودلل على ذلك بأسباب ومبررات عسكرية وجيهة قبلها الرسول وآمن بصحتها وعمل بها ، حتى أنه غير وجهته إلى حصن ناعم .

٤ - من أهم الأسباب التى تسهل عملية الهجوم الحصول على معلومات وافية عن العدو ، ففى غزوة خيبر وقع عمر على يهودى ، فأخذه إلى الرسول الذى استجوبه ووقف منه على معلومات هامة عن عدوه ، تمكن بسببها من إعداد خطته إعداداً سليما أدى إلى قهر يهود بنى خيبر .

٥ - الإعاشة فى الميدان من الأمور الجوهرية الهامة ، فقد ذهب كثيرون إلى النبي يشكون إليه قلة المئونة فى أثناء حصار خيبر ، فلم يجد عنده شيئاً فأمرهم بأكل لحوم الخيل ودعا قائلا : « اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه . . . اللهم افتح أكثر الحصون طعاماً » .

وفى غزوة قضاعة كان أبو عبيدة يتولى بنفسه شئون الإعاشة حتى أنه كان يوزع التمر بنفسه على المقاتلين ، فلما نفد التمر أذن لهم أن يأكلوا ورق الشجر ، حتى عثروا على حوت ضخم فأكلوا منه وشبعوا مدة عشرين يوما .

٦ — الشجاعة ضرورية فى الميدان ، فهى التى تؤيد السلاح فى الحصول على النصر ، وفى غزوة مؤتة دليل كبير على شجاعة القادة الثلاثة الذين استشهدوا فى هذه الغزوة .

وشجاعة على تبدو فى محاربة مرحب قائد اليهود ، فهو حينما فقد سيفه خلال المبارزة حمل باباً كبيراً ، كانوا قد نزعوه من مكانه ، ثم قاتل به ، وأحرز النصر لقواته .

٧ — توحيد القيادة من أهم الأمور فى العمليات ، فعند خروج المسلمين لغزوة مؤتة ، عين الرسول زيد بن حارثة قائداً للقوة ، ثم رتب من بعده القيادة إذا استشهد ، فجعل جعفرا من بعده قائداً للجيش ، ثم جعل من بعده عبد الله بن رواحة ، ثم أمر الجيش بعد ذلك باختيار من يخلف عبد الله .

وفى العمليات ضد قضاعة طالب عمرو الرسول بمدد ، فأمده بجيش يقوده أبو عبيدة ، وحاول أبو عبيدة أن يتولى القيادة كلها ، أو أن يتولى قيادة المدد وحده ويتولى عمرو قيادة الجيش الذى سار به ، إلا أن عمرواً رفض ذلك عملا بحكمة توحيد القيادة فى شخص واحد ، واقتنع أبو عبيدة بوجهة نظر عمرو وعمل تحت قيادته كجندى

ومما يسترعى النظر ويستحق التقدير . أن عمرا وأبا بكر كانا ضمن المدد الذى أرسله النبى إلى عمرو ، فلم يفكر واحد منهم فى أن يتولى القيادة ، رغم كانتهما المعروفة ، وبرغم علمهما بفنون الحرب ، بل قبلا أن يعملا جنديين بسيطين تحت إمرة عمرو وقبلا أن ينفذا أوامره ، بل وأقنعا أبا عبيدة بأن يعمل هو الآخر تحت قيادة عمرو جنديا مخلصاً منفذاً لأوامره وقال أبو بكر فى ذلك إن رسول الله قد اختاره رئيساً علينا لمعرفته بالحرب » .

٨ — ليس الانسحاب معناه الانهزام ، فالانسحاب قد يكون لغرض أكثر سمواً من الهزيمة أو الفرار من وجه العدو ، فخالد عندما انسحب بقواته فى مؤتة إنما انسحب لغرض نبيل هو حماية الجيش من الفناء أمام قوات تفوقه سبع

مرات أو أكثر فى العدد والعدة ، وعملية الانسحاب ذاتها فى حاجة إلى مرونة وإلى مقدرة حتى يتم الانسحاب دون خسارة فى الأرواح أو العتاد ، وقد نجح خالد نجاحاً بعيداً فى إتمام العملية دون خسائر فادحة .

٩ — معاملة الأعداء بعد هزيمتهم أمر فى حاجة إلى سياسة وكياسة ، فبعد هزيمة يهود بنى خيبر لم يشأ الرسول أن يعاملهم ذات المعاملة التى عومل بها يهود بنى قينقاع وبنى النضير ، فهؤلاء أمرهم الرسول بالجلاء عن أرضهم ، أما يهود بنى خيبر فقد أمر الرسول ببقائهم حيث هم على أن يعملوا فى الأرض . .

وكان هذا هو شأن الرسول مع يهود فدك ، فقد صالحهم على النصف من غلة أموالهم ، وكذلك وافق يهود تيماء على دفع الجزية ، أما يهود وادى القرى فقد أبوا ما دعاهم إليه الرسول . فحاربهم حتى أخضعهم ، ووافقوا على أن يزرعوا الأرض ويخدموا النخل ولهم نصف الغلة ، ومما لاشك فيه أن الرسول قد كسب بذلك كثيراً ، فهؤلاء يزرعون الأرض فيوفرون له الأيدى التى يحتاج إليها فى جهاده الأكبر لنشر الدعوة الإسلامية وتأكيدها فى الجزيرة العربية .

ومن أهم أوجه معاملة الأعداء ما يتضح فى الرسالة الخالدة التى وجهها الرسول إلى زيد بن حارثة حينما سار إلى مؤتة ، فقد نهاه عن قتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والعجائز والمتعبدين ؛ كما أمرهم بعدم قطع النخل والشجر ، وبعدم هدم الأبنية والدور ..

كانت هذه الروح الطيبة الكريمة من جانب الرسول فى معاملة الأعداء وفى معاملة غير المقاتلين فى الميدان سياسة حكيمة من رسول الله وتهذيبا واضحاً لفكرة الحرب .

غزوات الرسول

(٤)

- غـــزوة الفتـــح
- غـــزوة حنـــين
- غـــزوة الطـائف
- غـــزوة تبـــوك

غزوة الفتح

أسباب الغزوة

قلنا إن قريشاً قد عقدت صلحاً مع الرسول هو صلح الحديبية ، وكانت مدته سنتين ، وقلنا أيضاً إن هذا الصلح كان ينص على أن من يرغب فى الدخول فى عهد محمد فليدخل ، ومن يرغب فى الدخول فى عهد قريش فليدخل ، وقلنا أيضاً إن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله ، وأن بكراً قد دخلت فى عهد قريش ، وقلنا إنه كانت بين القبيلتين حروب ومنازعات مستمرة سكنت وهدأت بعد عقد الصلح بين قريش ومحمد .

وبعد عودة المسلمين من مؤتة ، رأت بكر فى عودتهم هزيمة لهم وخذلاناً ، فقررت أن تتحرش بخزاعة ، فبعثت برجل يهجو الرسول على مسمع من أحد الخزاعيين ، فضربه هذا وشجه ، فثار الشر بين القبيلتين ، وطلبت بنو بكر من قريش إمدادها بالرجال والسلاح فأمدتهم ، ووقع بينهما القتال ، واشترك فيه من قريش عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو .

ولجأت خزاعة إلى البيت الحرام بعد ما أصابها من فقد ثلاثة وعشرين من رجالها ، فلم تجرها قريش ولم تحمها ، برغم زعمها أنها تحمى البيت ، وأن لها حق حماية كل لاجىء إليه ، وصاح نوفل بن معاوية رئيس بنى بكر فى قومه « لا إله اليوم يا بنى بكر . . . أصيبوا ثأركم » . . . .

وأسرع عمرو بن سالم من خزاعة إلى الرسول فى أربعين راكباً فيهم بديل ابن ورقاء ، ووجد الرسول فى المسجد فوقف يناديه :

يا رب إنى ناشــد محمــدا   حلف أبيه وأبينا الأتــلدا(١)

قــد كنتم وُلداً وكنا والدا   ثمة أســلمنا فــلم ننزع يدا(٢)

---

(١) القديم .

(٢) يقصد أن بنى عبد مناف أمهم من خزاعة .

فانصر هداك الله نصراً اعتدا[1] وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا[2] أبيض مثل البدر تسمو صعدا
إن سيم[3] خسفاً[4] وجهه تربدا[5] في فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى من كداء[6] رصدا[7] وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير[8] هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا فانصر هداك الله نصراً أيدا[9]

فلما سمع منه الرسول ذلك قال « نصرت يا عمرو بن سالم[10] » .

مفاوضات من أجل الصلح

أدركت قريش ما جرته على نفسها من شر بسبب نقضها عهد الرسول ، بما أعانت به بكراً على خزاعة ، وعلمت أن الرسول سيعرف بهذا النقض ، فاجتمع رجالها وتشاوروا وقرروا إيفاد بعثة إلى الرسول ، يكون لها غرضان : تأكيد العهد[11] ، وإطالة مدته ، وعهد بهذه المهمة إلى أبي سفيان ، فلما وصل إلى موضع على مرحلتين من مكة يدعى عسفان ، لقي بديل بن ورقاء من بني خزاعة عائداً من المدينة فسأله « من أين أنت قادم يا بديل ؟ » قال « من

---

(١) حاضرا
(٢) تهيأ للحرب .
(٣) كلف خطة لا يرضاها
(٤) ذلا
(٥) أى تغير لون وجهه إلى السواد
(٦) موضع أعلى مكة .
(٧) رقيباً .
(٨) مكان أسفل مكة .
(٩) شديداً .
(١٠) فى رواية أخرى قال الرسول « لانصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسى »
وفى رواية ثالثة « والذى نفسى بيده لأمنعنهم مما أمنع منه نفسى وأهل بيتى . »
(١١) عهد الحديبية

زيارة لخزاعة على الساحل ، فعاد يسأله « أو ما جئت محمداً ؟ » قال « لا » ولما انصرف عرف أبو سفيان أنه جاء محمداً إذ وجد فى مكان رحاله النوى مختلطاً بروث الإبل ، ولهذا قرر ألا يلقى محمداً ، وجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج الرسول .

ولما أساءت ابنته[1] استقباله توجه إلى الرسول وتحدث إليه فى العهد وإطالة مدته ، فلم يرد عليه بشىء[2] ، فكلم أبا بكر ليكلم له النبى فأبى ، فلما اتجه إلى عمر أغلظ له القول « أنا أشفع لكم إلى رسول الله ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » ، واتجه أبو سفيان إلى على ، فأبلغه أن أحداً لا يستطيع أن يرد الرسول عن أمر قرره ، وكانت فاطمة زوج على موجودة فاستشفعها أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت له « ما يجير أحد على رسول الله » .

ولما أدرك أبو سفيان أنه قد أخفق نصح له على « قم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، وما أظن ذلك مغنياً ، ولكنى لا أجد لك غيره » ، فتوجه أبو سفيان إلى المسجد وأعلن أنه أجار بين الناس ، ثم ركب راحلته وعاد إلى مكة والألم ملء نفسه لما لقى من هوان على يد ابنته ، وعلى يد من كانوا يجلونه بل ويرتجفون منه ، حتى إذا ما وصل إلى مكة وقص على أهلها ماحدث لم يصدقوا أنه كان جاداً فى تحقيق مطلبهم ، بل اتهموه بأنه خالف رسالتهم ، وأنه تابع الرسول على دينه وقالوا له « ويلك ، والله ما زاد الرجل على أن لعب بك » .

فشل محاولة كشف أسرار الغزوة

أمر الرسول بتجهيز الحملة إلى مكة ، وقرر أن توضع خطة الاستيلاء على مكة على أساس عدم إراقة دماء ، ولهذا اعتمدت الخطة على المفاجأة ، أى مباغتة القوم ، بما لا يجدون له دفعاً فيسلمون دون إراقة الدماء .

---

(١) عندما ذهب أبو سفيان إلى بيت ابنته أراد أن يجلس على فراش الرسول فطوته أم حبيبة ولما سألها « يابنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ » فقالت « بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ولا أحب أن تجلس عليه . »

(٢) قيل ان الرسول سأل أبا سفيان « هل كان من حدث ؟ » فأجاب « لا » فقال له الرسول « فنحن على مدتنا وصلحنا » .

وبلغ من حرص الرسول على إخفاء تحركاته إلى مكة أنه دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تعرف شيئاً عن تحركه « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها[1] » كما أمر الرسول بحراسة الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يستراب فيه ، وكان عمر هو الذى يتولى الحراسة وكان يقول « لا تدعوا أحدا يمر بكم إلا رددتموه . » .

وحدث أن كتب حاطب بن أبى بلتعه — وهو أحد المسلمين الذين شهدوا بدرا — خطاباً إلى قريش[2] ينبئها باعتزام الرسول مهاجمتهم . وأعطى الكتاب لامرأة تسمى سارة ، استأجرها بعشرة دنانير ، وقال لها « أخفيه ما استطعت، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليه حرساً » .

وعلم الرسول بالخبر ، فبعث عليا والزبير والمقداد بن الأسود وراءها ، وقال لهم « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب ابن أبى بلتعة إلى المشركين فخذوه منها . » ، وانطلقوا وراءها حتى قبضوا عليها ، وقالوا لها « اخرجى الكتاب » فقالت « ما معى كتاب » فقالوا « ما كذب رسول الله لتخرجن الكتاب أو لنلقين عنك الثياب . » ..[3]

وإزاء هذا التهديد قالت المرأة لعلى « أعرض » ثم حلت شعرها . وأخرجت الكتاب ، فذهبوا بها إلى رسول الله الذى اطلع على الكتاب فإذا فيه « إن رسول الله جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل . فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم ، وقيل فى رواية أخرى « إن الرسول قد أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد» .

فدعا الرسول حاطباً وسأله عن الدافع لإرساله هذا الكتاب فقال

---

(١) وفى رواية أخرى « اللهم خذ على اسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فتنة » .

(٢) كان الكتاب موجها إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل .

(٣) وفى رواية أخرى « أو لنكشفنك ولنضربن عنقك . »

« يارسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل وعشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . » ، وثار عمر بن الخطاب لإجابة حاطب وقال للرسول « دعنى يارسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . » فرده الرسول ردا جميلا « وما يدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . » وهنا نزل قول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ »[1].

وهكذا أخفقت المحاولة الوحيدة التى بذلت لتوصيل الأخبار عن الحملة إلى قريش ، وهذا دليل كبير على مدى الاهتمام بكل الوسائل التى حققت السرية فى العمليات وأكدت الكتمان فى التحركات ، مما جعل قريشا فى ذهول عند ما علمت بمقدم محمد ، وبطرقه أبواب مكة يطلب منها التسليم والاستسلام .

التحـــرك

بعث الرسول إلى من حوله من العرب (مثل أشجع وغفار وسليم) وطلب انضمامهم إلى جيش المسلمين ، وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . » وتدفقت الجموع على المدينة ، وبلغ الجيش الإسلامى بقيادة الرسول عشرة آلاف ، وقيل فى رواية أخرى اثنى عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم وغطفان .

وبدأ الجيش التحرك فى الليلة العاشرة من رمضان فى السنة الثامنة للهجرة بعد أن استخلف الرسول على المدينة ابن أبى مكتوم ، وصحب الرسول معه من زوجاته أم سلمة وميمونة .

---

(١) سورة الممتحنة ١

وعلم بعض من أهل مكة بخروج الرسول فخرجوا من مكة للقائه . .
خرج عم النبى العباس بن عبد المطلب[1] ولقى الرسول فى الجحفة[2] . ، ولقى الرسول أيضاً فى الطريق أبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب بن عمة الرسول وأخاه فى الرضاعة من حليمة السعدية ، وكان معه ابنه جعفر . . ولقى الرسول أيضاً عبد الله بن أبى أمية ، وكان اللقاء فى الأبواء ، وكان الاثنان أشد الناس عداوة للرسول ، وكان يلقى منهما الشدة والأذى والجفوة[3] .

الحرب الباردة

قلنا إن الرسول كان يبغى دخول مكة دون قتال أو إراقة دماء ، وكان يود من صميم قلبه أن تظل مكة حراماً ، ولهذا دعا عمه العباس ، وطلب منه أن يكون سفيراً له ، يلقى فى قلوب القوم من قريش الرعب والخوف .

وخرج العباس على بغلة الرسول البيضاء ، حتى جاء ناحية الأراك ، وأخذ يبحث عن نفر يبلغ قريشاً بمكان الرسول ، ويخبرهم بقوته التى سار بها إليهم ، ليستطيعوا تدارك الأمر ، بطلب الأمان قبل أن يدخل مكة عنوة .

وكان الرسول قد نزل بجيشه مر الظهران : وهو مكان على بعد يسير من مكة ، وأمر الجيش بإيقاد نيران كثيرة فى الليل ، ليرهب قريشاً ، فأضاءت نيران المسلمين الوديان والجبال ، حتى أصبح المنظر رهيباً مرعباً .

---

(١) قيل ان العباس عم الرسول أسلم قبل تأهب الرسول لغزو مكة . ولكنه ظل يكتم أمر إسلامه بأمر الرسول ، حتى يبقى فى مكة فيبعث إليه بأخبار قريش .

(٢) موقع على بعد أربعة فراسخ من مكة .

(٣) لما جاءا الى الرسول استأذنت أم سلمة الرسول ليدخلا عليه فقال « لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فقد هتك عرضى وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال ما قال بمكة (والله لآمنت بك حتى تتخذ سلماً الى السماء فتعرج فيه وأنا انظر ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك) » فقالت لهما أم سلمة ما قاله الرسول فتألم أبو سفيان وقال « ليأذنن لى أو لآخذن بيد ابنى ولنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . » فلما بلغ ذلك الرسول غفر لهما ورق ثم دعاهما فدخلا عليه وأسلما وقال لهما الرسول « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وشعرت قريش فى ذات الوقت بالخطر الذى يتهددها ، فبعثت أبا سفيان ابن حرب ، وبُدَيل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام ، يستطلعون الأمر ويتنسمون الأخبار . . وبينما العباس يسير على البغلة سمع حديثاً بين أبى سفيان وبديل . .

أبو سفيان — ما رأيت كالليلة ناراً قط ولا عسكرا .

بديـــل — هذه والله خزاعة حَمَشتها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

ونادى العباس أبا سفيان . فلما استجاب هذا لنداء العباس قال له « ويحك يا أبا سفيان !! هذا رسول الله فى الناس ، وأصباح قريش إذا دخل مكة عنوة » فقال له أبو سفيان « وما الحيلة فداك أبى وأمى » ؟ . . . فأخذه العباس ومر به بين جنود جيش المسلمين ، وقد أوقدوا النار ، فلما مر بنار عمر وعلم — أى عمر — أن العباس يريد أن يجير أبا سفيان أسرع إلى الرسول وطلب أن يضرب عنقه « يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه » فقال العباس « إنى يا رسول الله قد أجرته » .

ودار حديث بين الرسول وبين أبى سفيان . . .

الرسول — ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

أبو سفيان — بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد .

الرسول — ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم إنى رسول الله ؟

أبو سفيان — بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً .

وتدخل العباس وطلب من أبى سفيان أن يعلن إسلامه فأسلم[1] ، وقال

---

(١) روى ابن عساكر عن عبد الله بن أبى بكر قال « خرج رسول الله وأبو سفيان جالس فى المسجد فقال أبو سفيان فى نفسه « ما أدرى بم يغلبنا محمد » فأتاه صلى الله عليه وسلم فضرب صدره وقال « بالله نغلبك » فقال « أشهد أنك رسول الله » .

العباس للرسول « يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً » . فأجاب الرسول « نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن . » ثم أمر الرسول العباس أن يأخذ أبا سفيان حتى خَطمَ الجبل[1] حيث تمر به جنود المسلمين ، ومرت القبائل من أمامه ، ثم مر الرسول فى كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار ، فسأل أبو سفيان العباس « سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء » ؟ قال العباس « هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار » ، فلم يتمالك أن صاح قائلا للعباس « ما لأحد هؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » ، فقال له العباس « إنها النبوة » فرد عليه « نعم هى إذن » .

وأسرع أبو سفيان إلى قريش يقول لهم « يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دارى فهو آمن » .

وثارت زوجته هند بنت عتبة ، وصاحت فى القوم أن اقتلوه ، فقال لهم « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن » .

فقالوا له « قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ! ! ! »

فقال « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن » .

ونزلت كلماته على الناس كالصواعق فأسرعوا هاربين إلى دورهم ، وأسرع البعض إلى المسجد ، ووهنت روح الحرب عندهم ، وتملكهم الخوف وأصبحوا يدركون أنه لا قبل لهم بمحمد ، وأنه سيدخل مكة شاءوا أم رفضوا ... سلموا أم قاتلوا . . .

---

(١) مكان يبرز منه الجبل فيضيق الطريق .

ونجحت خطة محمد فى تحطيم أعصاب أعدائه وروحهم المعنوية قبل العمليات الحربية .

خطة الغزو

وصل الجيش الإسلامى الزاحف إلى مكة ذى طوى ، وهناك أصدر الرسول أمره ، بتقسيم الجيش إلى فرق أربع ، وأمر الفرق كلها ألا تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا أكرهت على ذلك . ووضعت خطة دخول مكة كالآتى :

(ا) الجناح الأيسر .

يقوده الزبير بن العوام ، ويدخل مكة من شماليها .

(ب) الجناح الأيمن .

يقوده خالد بن الوليد ، ويدخل مكة من أسفلها .

(ح) جماعة الأنصار .

يقودها سعد بن عبادة ، وتدخل مكة من جانبها الغربى[1] .

(ى) جماعة المهاجرين

يقودها أبو عبيدة بن الجراح ، وتدخل مكة من أعلاها بحذاء جبل هند .

وجعل الرسول قيادته على جماعة من المهاجرين .

تنفيذ الخطة

دخلت جيوش المسلمين مكة حسب الخطة الموضوعة ، ولم تلق الفرق صداً أو مقاومة إلا قوة الجانب الأيمن بقيادة خالد بن الوليد ، فقد كان الحى أسفل مكة أشد قريش عداوة لمحمد ، فأعد رجاله عدتهم للقتال أسفل مكة عند الخندمة ، وكان على رأسهم عكرمة بن أبى جهل وصفوان وسهيل ،

---

(١) قال سعد بن عبادة « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » فأمر الرسول بسحب الراية منه وتسليمها الى ابنه قيس وقال « هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبه . »

فلما دخلت فرقة خالد ألقوا عليها النبال ، ولكن خالداً استطاع أن يتغلب عليهم ويقضى على مقاومتهم ، وولى القادة الثلاثة الأدبار [1] ، ولما علم الرسول بهذا القتال أسف له ، ولكنه عندما وقف على أمر مقاومة الناس لخالد قال « إن الخيرة فيما اختاره الله . »

واستسلمت مكة .

ودخلها محمد مظفراً . . .

وكان أول ما فعله أن سار إلى الكعبة ممتطياً ناقته القصواء وطاف بالبيت سبعاً ، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ووقف على بابها وتكاثر الناس فى المسجد ، فتلا عليهم قوله تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » [2].

وأشار الرسول إلى الأصنام الموجودة بالكعبة ، وقال « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ، وسقطت الأصنام التى بلغ عددها ثلثمائة واحداً وراء الآخر . . . ورأى الرسول صورة لإبراهيم الخليل وبيده الأزلام [3] يستقسم [4] بها فقال :

---

(١) وصف حماس بن خالد — وهو من قبيلة بنى بكر وكان ضمن المشركين الذين قاوموا خالداً يوم الخندمة — الاشتباك فى قوله :

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقى باللوم أدنى كلمه

مؤتمة أى اسطوانة
وأبو يزيد هو أبو يزيد سهيل بن عمر
(٢) الحجرات ١٣
(٣) السهام
(٤) يضرب بها

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »(١).

واستقر الأمر للمسلمين فى مكة فماذا حدث بعد هذا الاستقرار ؟

بعد الغزو

١ - تجمعت قريش فى المسجد الحرام تنظر ما يفعله الرسول بأصنامها ولا تحرك ساكناً ، ثم راحوا ينتظرون حكم الرسول فيهم ، فإنهم فى هذه الساعة قد تذكروا ما فعلوه به وبأصحابه وكيف عاملوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وحاربوهم ، ووقف الرسول يسألهم « يا معشر قريش ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا « أخ كريم وابن أخ كريم » فقال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم قال « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب » . . . ثم قال « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجراً . لم تحلل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحلل لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . »

ونادى الرسول فى أهل مكة « من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يترك فى داره صنما إلا حطمه . »

٢ - بقى الرسول فى مكة ينظم شئونها ، ويفقه أهلها ، ويقبل إسلام الداخلين فى الإسلام من رجالها ونسائها . . وفى هذه الأثناء خيل الأنصار أن الرسول تارك المدينة إلى وطنه الأول ، وقد فتحه الله عليه وقالوا « أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها » ، إلا أن الرسول عندما عرف بمخاوفهم قال « معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم »

(١) سورة آل عمران ٦٧

وبذلك أبر الرسول بعهده الذى قطعه على نفسه فى بيعه العقبة ، ولم ينسه أهله ، ولم تنسه مكة والبيت الحرام وفاءه وبره بمن وقفوا بجانبه وقت شدته ولهذا بقى الرسول بمكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح ، ثم عاد إلى المدينة مع الأنصار .

٣ — كانت أبرز ظاهرة بعد إتمام الفتح ، أن قريشاً لمست فسحة صدر الرسول وعفوه الشامل ، فطمع أهلوها فى الدخول فى الإسلام ، وجاء الكثيرون يطلبون الصفح والعفو ، وكان الرسول سمحاً كريماً مع الجميع ، فقبل إسلامهم ، وعلى رأس هؤلاء ابن أبى السرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وكان قد فر إلى اليمن ، فأسلمت زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، واستأمنت له الرسول فأمنه ، فخرجت إلى اليمن وعادت به ، وصفوان بن أمية ، وهند زوج أبى سفيان التى مضغت كبد حمزة بعد استشهاده فى أحد ، وفضالة بن عمير[1] .

وأمر الرسول بالعفو عن كثيرين ممن كان قد أمر بقتلهم .

ولا ننسى فى هذا المجال أن نذكر أن الرسول أمر بقتل عدد من قريش حتى ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، وكان ذلك لا حقداً عليهم أو غضباً منهم ، وإنما لعظم الجرائم التى ارتكبوها .

٤ — خرج خالد بن الوليد إلى نخلة ليهدم العُزى ، وكانت لبنى شَيبان ، فلما هدمها خرج إلى جذيمة ، فلما رآه القوم ، أخذوا السلاح ، فطلب خالد منهم أن يضعوه ، فخرج رجل منهم ، وصاح فيهم : « ويلكم يابنى جذيمة ، إنه خالد ،

---

(١) بينما الرسول يجهز على الأوثان اقترب منه فضالة محاولا انتهاز الفرصة لقتله ، وعرف الرسول بنظرة إليه طويته فسأله « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » فقال « لا شيء كنت أذكر الله » فضحك الرسول ثم قال له « استغفر الله » .

وبينما فضالة عائداً إلى بيته مر بامرأة كان له معها شأن فلما رأته قالت « هلم إلى الحديث » فانبعث يقول .

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا	يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله	بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا	والشرك يغشى وجهه الإظلام

والله ما بعد وضع السلاح إلا الاسار ، وما بعد الاسار إلا ضرب الأعناق » . ولكن الناس لم يسمعوا له ، ووضعوا سلاحهم ، فقتل خالد من قتل ، فلما علم الرسول بذلك ، رفع يديه إلى السماء ، وقال : « والله إنى أبرأ مما صنع خالد بن الوليد » . وبعث الرسول إليهم بعلى ، وقال له : « اخرج إلى هؤلاء فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . وخرج على وأخذ معه مالا اعطاه إياه الرسول ، فدفع الدية عن الدماء وعما أصاب الناس من أموال .

وأرسل الرسول عمرو بن العاص لهدم سواع ، وهو صنم تعظمه هذيل فهدمه .

وبعث الرسول أيضاً سعد بن زيد الأشهلى لهدم مُناة ، وهو صنم لكلب وخزاعة فهدمه .

إن غزوة الفتح تقدم للتاريخ العسكرى وللعسكريين دروساً هامة نذكر منها :

الدروس المستفادة

١ - التصميم على الغرض .

لاحظنا خلال غزوة الفتح ، أن الرسول وضع نصب عينيه أغراضاً معينة ، وأنه خلال العمليات لم يتحول عن هذه الأغراض ، فمن ذلك أنه كان قد قرر دخول مكة ، فلما جاءه أبو سفيان ، يطلب مد مدة الصلح الذى بينه وبين قريش ، رأى الرسول أن فى ذلك المد تعطيلا للغرض الرئيسى الذى يهدف إليه . ولهذا رفض الرسول دعوة أبى سفيان بمد مدة العقد أو العهد .

ومن ذلك أيضاً أن الرسول قرر عند وضع خطته أن يدخل مكة دون قتال أو إراقة دماء ، وأصدر أوامره هذه إلى قادة الفرق التى أعدت لدخول مكة ، فلما شاهد عليه صلوات الله خالدا وهو يحارب فى الجبهة الجنوبية غضب ودعاه إلى إيقاف الحرب ، حتى إذا علم بما قوبل به خالد من المقاومة قال : « الخيرة فيما اختاره الله » .

ومن ذلك أيضاً أن الرسول كان يسعى إلى نشر الإسلام وقيامه على

أنقاض الوثنية وعبدة الأصنام ، ولهذا فعندما دخل مكة لم ينس الغرض الرئيسى الذى يجاهد من أجله ، ولهذا حطم الأصنام فى الكعبة ، ثم أمر بهدم كل صنم فى داخل البيوت « من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلايترك فى داره صنما إلا حطمه » ولم ينس الرسول الأصنام التى كانت تعبد خارج مكة فبعث السرايا لهدمها وللدعوة لعبادة الله الواحد القهار .

٢ — المفاجأة أو المباغتة .

لوحظ فى هذه الغزوة أن الرسول قرر مباغتة قريش رغبة منه فى عدم إراقة الدماء أو إثارة القتال ، ولهذا فإنه دعا إلى الإعداد للحملة فى سرية تامة ، وذلك بأن دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تعرف شيئا عن تحركاته ، وبأن أصدر أوامره بمراقبة الطرق إلى مكة ، والقبض على من يشك فيه ، ضماناً لعدم نقل أو وصول أخبار تجمعاته وتحركاته إلى قريش .

ولما عرف الرسول برسالة حاطب ، أرسل ثلاثة من رجاله هم على والزبير والمقداد ، فعثروا على الرسالة ، وأعادوا المرأة[1] إلى المدينة .

ولضمان تحقيق رغبة الرسول فى دخول مكة فجأة وبسرعة وبدون قتال ، حشد الرسول قوات كثيرة ليدخل بها مكة ، حتى أنه قيل إن العدد الذى حشد تحت قيادته عشرة آلاف وقيل اثنى عشر ألفاً . . . كما أن الرسول بعث إلى القبائل العربية المجاورة يدعوها للانضمام إليه ، وذلك رغبة منه فى حشد أكبر قوة ممكنة لتحقيق الهدف الأساسى والغرض الأول وهو عدم القتال والدخول دون حرب . . وكان الرسول يرى فى هذا الحشد الكبير تفتيتاً لقوة قريش وإضعافاً لرغبتها فى القتال إن رغبت .

٣ — الحرب النفسية . .

لقد اهتم بها الرسول اهتماماً بالغاً فقد علم عليه الصلاة والسلام أهمية الروح المسيطرة على المحاربين فى الميدان ، ولهذا دفع بالعباس على بغلته البيضاء

---

(١) راجع صفحة ٢١٣ .

ليكون سفيراً له يحمل إلى قريش أنباء الجيش الكبير القادم إليها ، ولما جاء العباس بأبي سفيان طلب منه الرسول أن يأخذه إلى مكان ضيق فى الجبل ، ليرى الجيش وليعرف قوته وليلمس بنفسه ما تجلبه قريش على نفسها لو أنها قررت القتال والمقاومة ، وكان للحشد الهائل الذى أعده الرسول أثر كبير فى نفسية أبي سفيان ، حتى أنه اعترف بالنبوة وأعلن إسلامه ثم أسرع إلى قريش يدعوها إلى التسليم ويقول « من دخل بيتى فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . وهرب القرشيون على أثر ذلك إلى بيوتهم وإلى المسجد ينشدون فيها الأمان .

٤ — الروح السمحة فى الحرب . .

وهذه الروح واضحة فى هذه الغزوة ، فهؤلاء الذين حاربوا الرسول منذ اليوم الأول الذى دعا فيه إلى الدين الجديد . . . حاربوه وآذوه وعذبوه وعذبوا أصحابه ودفعوا بهم إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، هؤلاء لم ينلهم منه أذى ولم يحاول الرسول أن يرد إليهم أعمالهم بل صفح عنهم جميعاً صفحه الجميل الذى سجله له التاريخ .

إن موقف الرسول بالنسبة لأهل قريش كان موقفاً كريماً كما توقعوا هم أنفسهم فى قولهم له « أخ كريم وابن أخ كريم » .

ما من أحد من قريش جاء إلى الرسول يطلب الصفح والأمان إلا ومنحه الرسول الأمان ، وأمنه على نفسه وولده وماله .

ما من أحد من قريش إلا ووجد عند الرسول الروح السمحة والنفس الصافية والعاطفة النبيلة التى تمثلت فى عفوه وصفحه .

وهل هناك روح أكثر سماحة من تلك التى أعلنت فى الجزيرة العربية كلها « اذهبوا فأنتم الطلقاء[1] مثلى ومثلكم كما قال يوسف لإخوانه « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

---

(١) سمى أهل مكة الطلقاء — ابن الأثير ج ٢

إن الروح السمحة لدى الرسول هى التى هدأت من ثورة عمر على حاطب ابن بلتعة حينما قال عمر « دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق » ورد عليه الرسول رداً جميلا . . .

« وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

غزوة حنين

كان الرسول أحد طرفى هذه الغزوة وكان الطرف الآخر هوازن ، وهى قبيلة كبيرة من العرب ، وسميت غزوة حنين ، وهو اسم موضع فى طريق الطائف ، وتسمى هذه الغزوة أيضاً ، غزوة أوطاس ، وهو اسم موقع كانت به الموقعة ، وتسمى كذلك غزوة هوازن .

تقيم هوازن على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقى ، فلما علمت بانتصار المسلمين فى مكة وتحطيمهم الأصنام ، خشيت أن تدور عليها الدائرة ، وأن يوجه إليها الرسول ضربته التالية ، وخافت أن يسير إليها ويغزوها ، فاجتمع رجالها وقالوا « قد فرغ لنا فلا مانع له دوننا فالرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا » .

أسباب الغزوة

(١) من وجهة نظر هوازن :

وقيل إن أهل هوازن كانوا قبل فتح مكة يريدون قتال الرسول ، وروى عن أبى الزناد أن هوازن أقامت سنة تجمع الجموع ، وتسير رؤساءها من العرب تجمعهم معها ، فلما انتصر الرسول فى مكة عزموا على أن يغزوه قبل أن يغزوهم .

وتولى أمر الدعوة إلى محاربة محمد مالك بن عوف ، فاجتمع إليه من القبائل أفراد عديدون وجموع كثيرة ، منهم سعد بن بكر ، وهم الذين كان الرسول مسترضعاً فيهم ، وبلغ عدد الجيش الذى تم إعداده ثلاثين ألفاً ، وتولى مالك قيادة الجيش وكان عمره ثلاثين سنة ، وطلب منه الكثيرون استشارة دريد

ابن الصمة وهو من بنى سعد اجتاز المائة والخمسين من عمره ، وكان ضريراً ، وكانت له دراية فى الحرب .

كان مالك قد أمر القوم بأن يأخذوا معهم نساءهم ومواشيهم وأموالهم حتى يثبتوا فى الحرب ولا يفروا ، فلما علم بذلك دريد قال له « وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك ، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحتَ فى أهلك ومالك » .

(٢) من وجهة نظر المسلمين :

عند ما تجمع أهل هوازن وبنى سعد لمحاربة الرسول ، بعث الرسول عيناً[١] تقف على حقيقة الموقف ، فرجع يخبره بصحة ما بلغه . وأن القوم فى عدد كثير .

بدأ الرسول يعد العدة لمهاجمة هوازن بعد أن وصله خبر تجمعها ووثق منه ، ونادى فى قومه فاجتمع له اثنا عشر ألفاً من المسلمين ومن أهل مكة ، ومعهم أبو سفيان بن حرب .

واستعمل الرسول على المدينة عتاب بن أسيد ، وترك معه معاذ بن جبل يعلم الناس الأحكام والشرائع ، وخرج مع الرسول من المشركين صفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو .

خطة هوازن

وضع مالك الخيل صفوفاً ، وجعل المشاة من خلفها ، ثم جعل النساء فوق الإبل ، ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كله . ثم أمر الناس أن ينحازوا إلى قمم حنين ، وعند مضيق الوادى ، وكانت خطته أنه إذا نزل المسلمون الوادى ، شدوا عليهم شدة رجل واحد ، تضعضع صفوفهم ، فيختلط الحابل بالنابل ، ويفقدون السيطرة على أنفسهم ، ثم تدور عليهم الهزيمة .

---

(١) المقصود بالعين جماعة الكشف وهى التى تستطلع أخبار العدو ، وتعبيراً الكشف والاستطلاع تعبيران حديثان وفى الأزمنة الماضية كانوا يستخدمون لفظى « العيون والعين »

خطة الرسول

عندما بلغ جيش المسلمين (حنيناً) نزلوا على أبواب واديها، وعقد الرسول الألوية فجعل:

١ — لواء المهاجرين لعلى بن أبي طالب.

٢ — لواء الخزرج للحباب بن المنذر.

٣ — لواء الأوس لأسيد بن حضير.

٤ — لواء كل قبيلة إلى زعيمها..

٥ — كان الرسول على بغلته البيضاء فى مؤخرة الجيش.

٦ — سار خالد بن الوليد على رأس بنى سليم فى المقدمة.

الجاسوسية فى المعركة

أرسل الرسول عبد الله بن أبي حدرد بن الأسلمى إلى هوازن، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم ومكث يوماً، وسمع ما يقولونه، ثم عاد إلى الرسول يقول له إنه انتهى إلى خباء مالك وكان عنده مؤتمر من رؤساء هوازن فسمعه يقول لهم، «إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فضعوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم تكون الحملة منكم واكسروا غماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف. واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الحملة لمن حمل أولا».

وفى ذات الوقت، كان مالك قد أرسل بعثة جواسيس من ثلاثة أفراد، ينظرون إلى رسول الله، ويعرفون خبر جيشه، فعادوا إليه وقد تملكهم الفزع، وقالوا رأينا رجالا بيضاً على خيل بلق، فو الله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، وإن أطعتنا رجعت بقومك. فقال لهم «أف لكم بل أنتم أجبن القوم» وحبسهم عنده خوفاً من أن يشيع قولهم فى الجيش.

بينما كان المسلمون ينحدرون من مضيق حنين ، فى واد من أودية تهامة شنت عليهم القبائل هجوماً عنيفاً فاختلط أمر المسلمين واضطرب ، وعملت المفاجأة عملها فاختلت صفوفهم ، وعمت الفوضى ، وتراجع الناس لا يلوون على شيء وولت القبائل الأدبار .

وثبت محمد فى مكانه وأحاط به بعض من المهاجرين ، والأنصار ، وأهل بيته ، وأخذ ينادى فى الجموع الهاربة « أين أيها الناس ! أين » .

وشاهد الرسول هوازن تطارد المسلمين الفارين فثارت حميته ، وحاول أن يندفع ببغلته البيضاء يوقف هذا السيل من الهجوم العنيف ، إلا أن عمه العباس اعترض طريقه وأخذ يصيح « يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا .. يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة .. إن محمداً حى فهلموا » . .

واستجابت الجموع لدعوته ، ودوى فى الميدان النداء الخالد « لبيك . . . لبيك . . . » وارتد المسلمون إلى المعركة فى الوقت الذى أصبح المسلمون وجهاً لوجه ، أمام هوازن فى الميدان .

وبدأ الصراع بين الجبهتين ، واشتد القتال ، ورأى الرسول رجاله وهم يطيحون بخصومهم فنادى « الآن حمى الوطيس ، إن الله لا يخلف وعده » وناوله العباس حفنة من الحصى فألقى بها فى وجوه العدو قائلا « شاهت الوجوه » . ثم قال « انهزموا ورب محمد » .

واستهان المسلمون بالموت ، واندفعوا إلى المعركة فتحول زمامها إليهم وانهزم الأعداء وبدءوا فى الانسحاب ، ثم اشتد ضغط المسلمين عليهم ولم يجد الأعداء مفراً من الفرار ، ففروا تاركين نساءهم وأموالهم وأبناءهم ، وغنم المسلمون اثنين وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشياه ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وبلغ عدد الأسرى ستة آلاف نقلوا تحت حراسة إلى وادى الجعرانة . .

واستمرت المطاردة .

وأعلن الرسول أن من قتل مشركا فله سلبه ، وتبع المسلمون هوازن حتى أو طاسا حيث أنزلوا بهم خسائر فادحة ، وتمكن مالك بن عوف من الفرار إلى الطائف واحتمى بها . . . ونزل قوله تعالى :

« لقَدْ نَصرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كثيرةٍ ويوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعجَبتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكمْ شَيْئاً وضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيتُمْ مدْبرِينَ ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسولِهِ وعَلَى المُؤْمِنينَ وأنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وذلكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ »[1]

الدروس المستفادة

١ — وجود القائد فى أرض المعركة له أهمية كبيرة فى سير المعركة ، فالقائد يستطيع وهو بين جنده ان يلم بتفاصيل المعركة ويستطيع أن يعدل الخطة حسب سير المعركة .

والرسول بوجوده فى أرض المعركة حول الهزيمة إلى انتصار ، وجعل من المسلمين الفارين جنوداً أقوياء ، صمدوا أمام عدوهم حتى قهروه ، فقد ثبت هو فى مكانه ونادى فى قومه فى أثناء انسحابهم ودعاهم إلى الثبات والقتال ، وكان لموقفه هذا أثر كبير ، فتجمع القوم حوله ، وكان لهذا التجمع نتيجة واضحة فى تغيير دفة المعركة .

٢ — استخدام الجاسوسية استخداماً طيباً ، فقد حمل الجواسيس إلى الرسول أخبار العدو ، إذ تمكن الجاسوس من أن يصل إلى داخل مبنى القيادة الخاصة بالعدو ، وأن يحضر مؤتمراً أعده الأعداء لرسم سياستهم ، واستمع فيه إلى حديث مالك مع رؤساء القبائل ، وعرف منه الخطة وتوزيع القوات وحمل هذه المعلومات إلى الرسول .

(١) سورة التوبة ٢٥/٢٦

٣ — وضحت قيمة المفاجأة حينما استخدمها مالك ضد قوات المسلمين فقد كان لمفاجأته إياهم أثر كبير فى اضطراب أحوالهم ، وتفكك وحدتهم وفرارهم منهزمين من المعركة .

كما أن عودة المسلمين ثانية إلى أرض المعركة كانت مفاجأة كبيرة لقوات مالك ، وهى منتصرة ومسيطرة على الميدان ، فأدت المفاجأة إلى هزيمة مرة بعد انتصار كاد يكون أكيداً .

٤ — تلاحظ قوة الروح المسيطرة على المسلمين خلال المعركة ، فالمسلمون كانوا يستهينون بالموت ، يرحبون به فى سبيل نصرة الدين ، وهم مؤمنون بأن الله منجز وعده ، وأن من يستشهد منهم فإنه سيحظى بنصيبه فى الجنة .

بهذه الروح حارب المسلمون ، وبهذه الروح انتصروا على هوازن فى حنين انتصاراً رائعاً لا مثيل له .

غزوة الطائف

بعد هزيمة هوازن هرب قائدها مالك بن عوف[1] إلى الطائف[2] ، حيث احتمى بها ، فقرر الرسول السير إليها ، ولما كانت ذات أبواب تغلق على من فيها وكانت من أمنع الحصون ، فقد أمر الرسول بحصارها .

الحصار :

فى أثناء تحرك المسلمين إلى الطائف هدموا حصناً لمالك بن عوف وحائطا لرجل من ثقيف ، فبعث إليه الرسول يطلب منه أن يخرج منه أو يحرق عليه ، فأبى الخروج وأمر الرسول بحرقه .

(١) ذكرنا ذلك فى صفحة ٢٢٩ .

(٢) قبل هجرة الرسول ذهب إلى الطائف يدعو أهلها للاسلام فسخروا منه وأساءوا إليه وقذفه صبيانهم بالحجارة ، والطائف مدينة محصنة لها أبواب تغلق عليها ، وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار وذوى ثروة طائلة .

كان على رأس المسلمين خالد بن الوليد ، فلما وصل إلى الطائف نزل بمن معه قريباً من الحصن[1] ، فلما شاهد أهل الحصن المسلمين ، نالوهم بالنبال فأصيب عدد كبير وقتل اثنا عشر رجلا .

أمر الرسول عندما تم الحصار ، أن يكون المسلمون بعيدين عن مرمى النبال . . . وأصبح أهل الطائف محاصرين حصاراً وصفه أحد الأعراب فى حديثه عن ثقيف « إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحره لا سبيل إلى إخراجه منه بطول المكث فإن تركته لم يلحقك منه ضر . »[2]

وأقبل خالد ينادى أهل الحصن « هل من مبارز ؟ » فرد عليه أحد المحاصرين « لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم فى حصننا ، فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب ذلك الطعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا . »

ولجأ الرسول إلى بنى دوس إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة ، وكان لهم علم برماية المنجنيق واستخدام الدبابات فى مهاجمة الحصون ، فجاءت طائفة منهم ومعهم المنجنيق والدبابات ، وأخذ المسلمون بمعاونتهم يرمون الحصن بالمنجنيق ، وبعثوا بالدبابات إلى الحصن ، وتحتها نفر من المسلمين يحاولون هدم الجدار .

وقاوم أهل الحصن الدبابات بأن أحموا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فخرقتها ، واضطر المسلمون إلى الفرار من تحتها خوفا من الحرق ، فأصابتهم ثقيف من داخل الحصن بالنبل .

أمر الرسول بقطع كروم الطائف وحرقها[3] ، وتمكن الرسول من

---

(١) فى المكان الذى عسكرت فيه جيوش المسلمين أقيم مسجد الطائف ، إذ أن الرسول كان يؤدى الصلاة فى هذا المكان .

(٢) فى رواية أخرى روى أن الرسول استشار نوفل بن معاوية فقال « يانوفل ، ما ترى فى المقام عليهم ؟ » فقال « يا رسول الله ، ثعلب فى جحر لن أقمت عليه أخذته ، ولن تركته لم يضرك . »

(٣) جزع أهل الطائف جزعا شديدا لقطع الكروم فبعثوا للرسول « دعها لله وللرحم » فقال الرسول « أدعها لله وللرحم . »

القبض على بعض أهل الحصن الذين حاولوا الفرار من الحصار ، وعلم منهم أن بالحصن ذخيرة وطعاماً يكفيان مدة طويلة . . . وعندما قدر الرسول موقفه وجد أن الحصار سيطول ، وأن الجيوش تود العودة لاقتسام الفيء الذى كسبوا ، وأنه إذا أصر على البقاء فقد يؤدى ذلك إلى أن ينفد صبرهم ، وخاصة أن الأشهر الحرم قد آذنت وقربت وفيها لا يجوز القتال . . .

لهذا كله قرر الرسول رفع الحصار بعد شهر من وقوعه ، على أن يعود إلى الطائف بعد انتهاء الأشهر الحرم .

وأعلن الرسول أنه إذا جاءه مالك بن عوف مسلماً رد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل . فلما علم بذلك مالك هرب من الحصن ولحق بالرسول وأعلن إسلامه .

غزوة تبوك

تبوك اسم لعين فى مكان على مشارف الشام ... سميت كذلك لأن الرسول كان قد نهى عن المساس بها فجاء أربعة من المنافقين وعبثوا بها ، فقال لهم الرسول : « مازلتم تبكون بها » والبوك معناه الحفر فى الشيء .

أسباب الغزوة

١ ــ اتجهت أنظار الرسول إلى الشام بعد أن انتصر الإسلام فى الجزيرة العربية . .

٢ ــ للمسلمين دماء على الروم بما أصابوه فى غزوة مؤتة .

٣ ــ علم الرسول أن الروم تتهيأ لغزوه .

التجهيز للمعركة

كان من عادة الرسول أن يكتم وجهته عند الغزو ليفاجىء العدو ويأخذه بغتة ، أما فى غزوة تبوك ، فقد رأى الرسول بعد المسافة وكثرة العدد وشدة الحر ، ولهذا أعلن الرسول أنه سيعد جيشاً إلى بلاد الروم ، وبعث بالرسل

إلى مكة وإلى قبائل العرب يدعوهم إلى القتال معه ، ودعا موسرى المسلمين للمساهمة فى اعداد الحملة . فاستجاب بعضهم ومنهم عثمان بن عفان الذى قدم من ماله عشرة آلاف دينار ، وأمد الجيش بثلثمائة بعير وخمسين فرسا ، مما دفع بالرسول إلى أن يقول : « اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه » . وقدم أبو بكر كل ما يملك وهو أربعة آلاف درهم فسأله الرسول : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » قال : « لهم الله ورسوله » . وتبرع عمر بنصف ماله ، وتسابق المهاجرون والأنصار فى التبرع ، حتى النساء تبرعن بحليهن .

وانتحل بعض المسلمين الأسباب الواهية ليتخلفوا عن الحملة وأنزل الله فيمن اعتذر لشدة الحر :

« وقالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الحَرِّ قُلْ نارُ جَهنَمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانوا يَفْقهونَ »[1].

وفيمن اعتذر لأنه رجل[2] يخشى الفتنة إذا وقع نظره على نساء الروم لأنه محب للنساء :

« ومِنهُمْ مَنْ يقولُ ائذَنْ لى ولَا تَفْتِنِّى ألَا فِى الفتْنةِ سقَطوا وإنَّ جَهنمَ لَمُحيطَةٌ بالـكافرينَ »[3]

وعلم الرسول أن بعض المنافقين يجتمعون فى بيت أحد اليهود يحملون الناس على عدم الجهاد والاشتراك فى الحرب ، فأمر الرسول طلحة بن عبيد الله وبعض الصحابة بأن يحرقوا البيت عليهم .

وبلغ عدد الجيش أكثر من ثلاثين ألفا . وكانت الخيل عشرة آلاف

---

(١) سورة التوبة ٨١ .

(٢) هو رجل من بنى سلمة جاء الرسول وقال له « يارسول الله أو تأذن لى ولاتفتنى فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى وانى أخشى لان رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر » ويقصد ببنى الأصفر الروم فأعرض عنه الرسول حتى نزلت الآية .

(٣) سورة التوبة ٤٩ .

فرس ، واستعمل الرسول على المدينة محمد بن مسلمة . وترك على بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم وقال : « خلفتك لما تركت ورائى ، فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى[1] » .

وسلم الرسول لواء الجيش إلى أبى بكر وأعطى راية المهاجرين للزبير بن العوام ، وراية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج للحباب بن المنذر .

وتخلف فى أثناء سير الجيش بعض الأفراد ، فكان الرسول إذا قيل له إن فلاناً تخلف يقول : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

فى تبـــوك

نزل الرسول فى أرض لا عمارة بها ، فى مكان هو أول مشارف الشام من الجنوب . أطلق عليه تبوك ، واستطلع الرسول المنطقة فلم يجد أثراً لجيش الروم[2] ، وطلب منه أهالى المنطقة[3] الصلح فأجابهم إلى طلبهم ، وكتب لهم بذلك ، وفرض عليهم فروضاً إما ثماراً وإما عينا .

وبعث الرسول بخالد بن الوليد إلى ملك دومة[4]. وهو أكيدر بن عبدالملك،

(١) عند ما خلف على الرسول على أهله أرجف المنافقون فقالوا « ما خلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه . » فلما سمع ذلك على أخذ سلاحه ولحق بالرسول على مسافة ثلاثة أميال من المدينة وقال للرسول « يانبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى استثقالا وتخففاً » فأمره الرسول بالعودة وقال « كذبوا ... ولكننى خلفتك ... » إلى آخر ما جاء بقول الرسول

(٢) قيل إن الروم عند ما علموا بقوة جيش الرسول وعدده آثروا الانسحاب إلى داخل حدودهم ليحتموا فى حصون الشام .

(٣) من هؤلاء يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة .

وأهل الجرباء وهى قرية من أعمال عمان بالبلقاء فى أرض الشام .

وأهل أذرح وهى بلد قريب من الجرباء وفى أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز .

(٤) هى المعروفة باسم دومة الجندل .

وكان نصرانياً ، ووقع أسيراً فى أيدى المسلمين[1] فقدموا به إلى الرسول فحقن دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله .

وبقى الرسول بتبوك بضع عشرة ليلة ، ثم استشار أصحابه ، هل يتقدم إلى الشام أو يرجع إلى المدينة ؟ فقال له عمر بن الخطاب : « إن كنت أمرت بالسير فسر » . فقال الرسول : « لو كنت أمرت بالسير لم أستشر » فقال عمر : « يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام وقد أفزع الروم دنوك منهم ، فلو رجعنا فى هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً » .

فأخذ الرسول برأى عمر ، وأمر بالعودة إلى المدينة .

* * *

وكانت هذه الغزوة هى خاتمة غزوات النبي . وبانتهائها تمت كلمة الله فى شبه الجزيرة ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفودا ، يقدمون الطاعة ، ويعلنون الدخول فى الإسلام .

وكان من أثر انتشار الدعوة الإسلامية بجزيرة العرب ، أن وجدت رابطة دينية قوية بين أقطارها التى دخلت فى الإسلام ، وقد مهدت هذه الروابط الدينية إلى قيام وحدة سياسية تجمع شمل العرب .

وظهرت بوادر هذه الوحدة حينما أخذت القبائل العربية تفد إلى الرسول معلنة إسلامها ، وفى ذلك يقول ابن هشام : « لما افتتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه » .

وعن ابن إسحاق أنه : « لما افتتحت مكة ودانت للرسول قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله كما قال الله — عز وجل — أفواجاً يضربون إليه من كل وجه ، ويقول الله تعالى لنبيه :

---

(١) كان معه شقيقه حسان وقتل وساق خالد من دومة بعد أن دخلها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق وأربعمائة درع .

« إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ وَرأيْتَ النَّاسَ يَدْخُلونَ فِي دينِ اللهِ أفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ واستَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ تَوَّاباً »[1].

وعرفت سنة تسع هجرية بعام الوفود ، لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالى المدن ، أخذت توفد إلى الرسول من قبلها وفوداً تعلن خضوعها وحرصها على دخول الإسلام ، وقد ذكر ذلك ارنولد فى كتابه : « الدعوة إلى الإسلام[2] » .

(١) سورة النصر ١/٣

(٢) Arnold : *The preaching of Islam.*

الباب الخامس

(١)

مبادئ الحرب

- الاستكشاف
- الحشد
- المفاجأة
- التعرض
- التطويق
- المطاردة
- المحافظة على الغرض
- السرية وسلامة القوات
- النظام والضبط والربط
- الشورى
- الأسرى
- الروح السمحة في الحرب

الاستكشاف

إن الثقة فى نجاح العمليات الحربية والاطمئنان إلى سير هذه العمليات سيراً سليما طيبا ، يتوقف على الخطة التى وضعها القائد للعملية المنتظرة ، والخطة تخضع دائماً لأمور فى غاية الأهمية بالنسبة للقوتين المتقابلتين ، ويعتبر العسكريون الاستكشاف أو الاستطلاع أحد هذه الأمور بل أكثرها أهمية وأكبرها قيمة وأخطرها شأنا .

وبمراجعة جميع العمليات التى تمت فى مختلف الحروب وفى مختلف العصور يتضح لنا أن النصر كان حليفاً للخطة التى وضعت على أساس سليم ، والتى كان الاستكشاف هو الخطوة الأولى والأساسية التى اتخذت عند وضعها .

وما من قائد يطمع فى إحراز النصر إلا ويبدى غاية اهتمامه وبالغ عنايته بالاستكشاف ، وبناء على ما يحصل عليه من المعلومات ، يضع الخطة ، وكلما كان المحصول من الاستكشاف طيبا ، كانت الخطة أقرب إلى الكمال ، وكان النصر مؤكدا .

ولقد تقابلت وجهات القادة جميعاً فى هذه الناحية ، ولقد جعل قادة الغرب للاستكشاف أهمية كبرى كما جعلها له قادة الشرق .

* * *

والمقصود بالاستكشاف الحصول على المعلومات التى تفيد القائد فى أثناء العمليات . . . المعلومات عن الأرض التى ستدور عليها المعركة . . . وعن العدو ، وعدده وأسلحته وخططه (وتكتيكاته) وروحه المعنوية وأساليبه فى الحرب . . . المعلومات عن الجو الذى يصاحب العملية . . . المعلومات عن القوى الشعبية الموجودة خلف القوات المقاتلة .

والمعروف أن العمليات تتأثر تأثراً كبيراً بطبيعة الأرض التى تدور عليها

المعركة . فالقتال فى الأراضى الصحراوية يختلف عنه فى الأراضى المليئة بالمغاور ، وعنه فى الأراضى المكسرة ، وعنه فى الأراضى الجبلية .

كما أن العمليات تتأثر تأثراً كبيراً بطبيعة الجيش الذى ستوجه إليه الضربة ، فقتال جيش منظم معد ذى روح معنوية عالية ، يحتاج إلى تجهيزات وترتيبات ، ويتطلب تدريباً منظما وتعليما حديثا ، كما يتطلب وضع خطة تتفق مع طبيعة الجيش المعادى .

وكذلك تتأثر العمليات بحالة الجو الذى يسود المعركة ، فالقتال فى الجو الحار يتطلب إعداداً يختلف فى جوهره عن الإعداد للقتال فى الجو البارد .

وكذلك أيضاً تتأثر العمليات بطبيعة القوى الشعبية التى تسند الجيش المقاتل ، والقوى الشعبية تختلف فى قواها المعنوية ، واستعدادها لمساندة الجيش ، وتسلحها وإيمانها ، وهذه العوامل كلها تحتاج إلى مواجهتها .

ومما لا شك فيه أن المعلومات التى يحصل عليها القائد من استكشافه هى الزاد الذى يجعله يعد خطة موفقة تقوده إلى نصر أكيد .

* * *

والرسول الكريم ظهر فى عصر لا يعرف فيه عن الحرب سوى الكر والفر والإقدام والإحجام . . . لم تعرف الحرب فيه كفن ، ولهذا لم تخضع الحرب عند العرب لمبادئ أو أصول .

ولما جاء الرسول وبدأت غزواته لم تعد الحرب على تلك الصورة التى كانت عليها قبل بعثته ، فقد كان الرسول يفكر بعقلية رجل الحرب ذى العقل المدبر والتفكير السليم والرأى الصائب والنظر البعيد .

وكان الحصول على معلومات عن العدو من أهم النواحى التى عنى بها الرسول ، فهو لم يلتق مع جيش من جيوش أعدائه إلا بعد أن درس حالة الجيش وعدده وتسليحه ، وبعد أن وضع الخطة التى تتناسب مع هذه الدراسة وتتفق مع ما لديه من معلومات عن جيش عدوه .

كان الرسول يبعث بعيونه للاستطلاع فكان يختار من رجاله من يكون موضع ثقته ، حتى يطمئن إلى ما يأتون به من معلومات .

كما كان الرسول يقوم بنفسه فى كثير من الأحيان بهذه العملية ليحصل على المعلومات وذلك تقديراً منه لعامل الاستكشاف وأهميته . . .

* * *

فى غزوة بدر بعث الرسول طلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد ينتظران عودة العير ، فبقيا فى منزل كشد الجهنى بالحوراء ، حتى وصلت العير فأسرعا إلى الرسول يبلغانه الأمر .

* * *

وعندما نزلت قوات الرسول موقعاً قريباً من بدر ، أسرع الرسول ومعه أبو بكر وقيل فى رواية أخرى معاذ بن جبل ، يجمعان المعلومات عن قريش فوقفا على شيخ يقال له سفيان ، وسأله الرسول عن قريش وعن محمد — منكراً نفسه من الرجل — فقال له « بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا فى يوم كذا فإن صدق الذى أخبرنى به ، فهم اليوم بمكان كذا ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا فإن كان الذى أخبر به صدقاً ، فهم اليوم بمكان كذا » . . ولما كان الموقع الذى قال عنه الشيخ إن محمداً به صحيحاً ، فقد علم الرسول أين توجد قريش من كلام الشيخ .

* * *

وبعث الرسول بعثة استطلاعية من على والزبير وسعد إلى بدر يتلمسون الخبر ، فأصابت البعثة غلامين لبنى الحجاج وبنى العاص ، فحملتهما إلى الرسول وسأل الرسول الغلامين « كم تنحرون كل يوم » ؟ قالا « يوماً تسعاً ويوماً عشراً » . فعرف الرسول من ذلك أن عـــدد قريش يتردد بين التسعمائة والألف .

* * *

وفى غزوة أحد بعث الرسول جماعات استطلاع لتأتى له بأخبار قريش. فخرج آنس ومؤنس إبنا فضالة فوجداها قد قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب .

* * *

وخرج الحباب بن المنذر بن الجموح وعاد بمعلومات لا تختلف عما أرسله العباس عم الرسول فى كتابه الذى أبلغه فيه نبأ تحرك قريش إليه .

* * *

وكانت بعثة سلمة بن سلامة هى البعثة الثالثة الاستطلاع فى هذه الغزوة وأبلغت هذه البعثة الرسول أن طليعة قريش قد قاربت المدينة .

* * *

وعندما بلغ الرسول أن خالد بن نبيح الهذلى يجمع الناس فى موطنه عُرنة ليغزو بهم ، بعث الرسول عبد الله بن أنيس ليستطلع الأمر ، فسار عبد الله إلى هناك حيث التقى بخالد ودار بينهما حديث عرف منه عبد الله أن خالداً ينوى مهاجمة الرسول فراوغه ثم فاجأه وقتله .

* * *

ونمى إلى الرسول أن يهود بنى قريظة قد نقضوا ماتعاهدوا عليه مع المسلمين ، فاستدعى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة (سيدا الأوس والخزرج) وعبد الله ابن رواحة ، وبعث بهم إلى بنى قريظة ليوافوه بأخبارهم وقال لهم « انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه » . ولما رأوا غدر اليهود عادوا وأخبروا الرسول .

* * *

وفى خلال حصار خيبر ، عثر عمر فى أثناء طوافه للحراسة حول الحصن ، على أحد اليهود ، فجاء به إلى الرسول ، فطلب منه الرسول أن يقدم ما لديه من المعلومات ، فى مقابل فك أسره وإنقاذ رقبته من سيف عمر ، فوافق

الرجل وقال للرسول « إن القوم قد أجهدهم الحصار ، وهم يرسلون الأطفال إلى حصن آخر إذ قرروا أن يناجزوكم غداً » . ثم وعد الرسول بأنه إذا فتح الحصن فسيدله على بيت فيه منجنيق ودبابات وسيوف ودروع مخبأة فى داخل الحصن .

***

وأرسل الرسول عبد الله بن حدرد بن الأسلمى إلى هوازن ، وأمره أن يدخل بينهم وأن يسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فدخل ومكث معهم يوماً وسمع ما يقولونه ، وحضر مؤتمراً عقد فى خباء مالك ، واستمع إليه يقول لرجاله « إذا كان السحر ، فضعوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا غماد سيوفكم ، فتلقونه بعشرين ألف سيف ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الحملة لمن حمل أولا » .

***

وفى خلال حصار الطائف ، وفد على الرسول عشرون من أهل ثقيف ، وسألهم الرسول عن الموقف داخل الحصن ، فقالوا له إن المحاصرين معهم طعام غزير وذخيرة كثيرة ، وأنهم قد أعدوا أنفسهم لحصار طويل ... ولما كان طول الحصار معناه أن الأشهر الحرم ستأتى دون أن يكون الحصن قد تم الاستيلاء عليه ، فإن الرسول قرر رفع الحصار ، على أن يعود بعد أن تنتهى الأشهر الحرم .

الحشد

الحشد معناه جمع أكبر عدد من القوات المقاتلة وتوجيهها إلى الغرض الرئيسى للعملية . . . وبقراءة تاريخ الحروب نجد أن النصر كان دائماً حليفاً للجيش الذى تم حشده وحسن تنظيمه . . . فألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) حشدت جيوشها على حدود فرنسا وتمكنت من دخول الأراضى الفرنسية والوصول إلى حدود باريس .

وأمثلة الحشد فى التاريخ الحربى كثيرة متعددة[١] .

ولقد أدرك الرسول قيمة الحشد ، فبذل جهداً كبيراً فى حشد قواته خلال العمليات المختلفة ، تقديراً منه لمبدأ الحشد ، واعترافا بفضل هذا المبدأ فى الحصول على النصر .

* * *

فعند ما بدأت غزوة بدر ، كان عدد المسلمين قليلا ، ومع هذا ، دعا الرسول قومه إلى الاستعداد لمواجهة قريش ، برغم جموعها الكثيرة وسلاحها العديد ، وخرج فى هذه الغزوة من المسلمين ثلثمائة وخمسة .

* * *

وفى غزوة أحد ، خرج الرسول فى سبعمائة من المقاتلين الأشداء ، ومنع الرسول ، صغار السن ، من الاشتراك فى الغزوة .

* * *

وفى غزوة بدر الآخرة ، خرج الرسول ومعه ألف وخمسمائة .

---

(١) من أمثلة الحشد فى العصر الحديث ، الحشد الهائل الذى أعده مونتجمرى فى موقعة العلمين (٢٣ من أكتوبر ١٩٤٢) ضد قوات ألمانيا بقيادة روميل ، إذ بلغت قواته ١١٠٠ دبابة ، ٨٥٠ مدفعاً ، ٥٠٠ طيارة ، وكان الجيش الثامن يتكون من سبع فرق من المشاة وفرقتين مدرعتين

وعندما استقر الرأى على حفر الخندق حول المدينة ، دعا الرسول قومه إلى الحفر ، وحشد لذلك جميع قوى المسلمين ، وتم حفر الخندق فى سبعة أيام ، وأتى الرسول بالنساء والأطفال إلى المنازل المحصنة ، وبلغت قوة المسلمين ثلاثة آلاف .

***

وفى غزوة ذى قرد ، سمع الرسول صيحة سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى « واصباحاه » ، فأغاثه بطليعة تحت قيادة المقداد بن عمرو ، ثم سار الرسول ، بعد المقداد ، لمعاونة سلمة ، رغبة منه فى الوقوف أمام العدو فى أكبر حشد ممكن .

***

وفى غزوة الفتح ، أراد الرسول أن يدخل مكة دون حرب ، وكانت وسيلته فى ذلك ، حشد أكبر قوة ، ليفت بذلك فى عضد قريش ، فتجنح إلى السلم ، ولهذا أيضاً ، بعث الرسول إلى من حوله من العرب ، مثل أشجع ، وعقار ، وسليم ، وطلب انضمامهم إلى جيش المسلمين ، وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . » ، واستجابت الجموع الغفيرة لدعوة الرسول ، وتدفقت الجموع على المدينة ، وبلغ الجيش الإسلامى بقيادة الرسول عشرة آلاف ، وقيل فى رواية أخرى ، اثنى عشر ألفاً ، حتى إن أبا سفيان حينما شاهد الجيش واستعرضه ، تولاه الخوف والفزع ، وقال للعباس عم الرسول « ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . » ، كما قال لقريش « يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . » .

***

وعندما قرر الرسول السير إلى تبوك ، بعث بالرسل إلى مكة ، وإلى

قبائل العرب ، يدعوهم إلى السير معه ، كما دعا موسرى المسلمين للمساهمة فى إعداد الحملة ، فاستجاب له الكثيرون ، وأمدوا الجيش بالمال والخيل والبعير ، حتى إن عثمان بن عفان وحده ، أمد الجيش بثلثمائة بعير وخمسين فرساً ، وبلغ عدد جيش المسلمين — برغم بعد المسافة وشدة الحر ، وما سيتعرض له الجيش من متاعب فى اجتيازه الصحراء إلى مشارف الشام — أكثر من ثلاثين ألفاً ، وكان عدد الخيل عشرة آلاف .

المفاجأة

نعتبر المفاجأة عنصراً قائماً بذاته ، لما لها من التأثير المعنوى الذى يؤدى إلى إحداث الارتباك والرعب فى صفوف الأعداء ، ويرى القادة فى المفاجأة خطراً كبيراً على الجيش المهاجم ، إذ تجعله فى ظروف لاتمكنه من أن يستخدم قواته وموارده حسب مايتطلبه الموقف ، كما أنها تضطره إلى أن يتنازل عما كان قد أعده من خطط لمواجهة المعركة .

ولو أن المفاجأة فى الحروب الحديثة ، يبدو أثرها واضحاً بالنسبة لكثرة الأسلحة وموارد النيران ، إلا أنها فى عهد الرسول : كان لها أثر كبير أيضاً على القوات التى يهاجمها ، برغم بساطة الأسلحة المستعملة فى تلك الحروب .

ولقد كان الغرض الذى يرمى إليه الرسول من استخدام المفاجأة ، هو الغرض الذى تستخدم من أجله المفاجأة فى حروب اليوم ... فقد كان الرسول يهدف إلى إضعاف قوة وعزيمة العدو وإرادته بإدخال الخوف فى نفوس أفراده حتى يصبحوا غير قادرين على التحمل والمقاومة والقتال .

وواضح من دراساتنا لحروب الرسول ، أنه كان يحارب دائماً بجيش قليل العدد ، أى أن التفوق العددى ، والتفوق فى التسليح ، كانا دائماً فى الجبهة المعادية له ، ومع هذا فإن المعارك كلها انتهت فى جانب الرسول ، حيث العدد البسيط والعدة القليلة ، ومعنى هذا أن مفاجأة الرسول لأعدائه لم تكن مفاجأة عددية (أى توجيه الهجوم بقوة كبيرة) بل كانت مفاجأة لأغراض «استراتيجية وتكتيكية» .

ومن أمثلة المفاجأة فى الحروب الحديثة ، مفاجأة الجنرال فون هوتر[١] القوات الروسية خلال هجومه على ريجا (١٩١٧) ، ومفاجأة ألمانيا فرنسا بالهجوم عليها عن طريق بلجيكا وشمالى فرنسا (١٩١٤ — ١٩٣٩) .

(١) Von Hutier

بلغ الرسول أن بنى أسد تعد العدة لمهاجمته ، فقرر أن يفاجئهم قبل أن تكتمل عدتهم ، وتقوى شوكتهم ، وأعد سرية قوامها مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار بقيادة أبى سلمة بن عبد الأسد ، وأمره أن ينزل أرض بنى أسد فيهاجمهم ...

ومن أهم الأوامر التى أصدرها الرسول إلى أبى سلمة أمره إياه بالسير ليلا ، والاستخفاء نهاراً ، وسلوك طرق غير مطروقة حتى لايعرف عدوهم بمسيرهم إليه ، ولا يطلع على تحركاته أى فرد من عدوه ...

وبهذه الأوامر نجح أبو سلمة فى أن يفاجىء القوم عند قطن قبل أن يستعدوا ، وأحاط بهم ، فأذهلتهم المفاجأة وتركوا منازلهم ، وهربوا نتيجة لحالة الخوف والذعر التى انتابتهم نتيجة لمفاجأتهم بالهجوم .

***

ولعل عبد الله بن أنيس قد نجح فى قتله خالد بن سفيان الذى كان يجمع الناس فى موطنه « عرنة » ليغزو بهم الرسول نتيجة مفاجأته لخالد بعد أن أمنه واستسلم له وجلس معه فى خبائه ، وقد انصرف أصحابه وأعوانه ولولا مفاجأته إياه لما نجح فى تنفيذ أمر الرسول « إذا أتيته فاقتله » .

***

ولقد فوجئت قريش عندما وصلت إلى أطراف المدينة بالخندق كوسيلة حديثة ، استخدمها الرسول ضدهم ، فإنه لم يكن لهم سابق معرفة بحرب الخنادق ولهذا كانت المفاجأة سبباً فى هدم خطتهم ، وتشتيت قوتهم ، وضياع فرصة الانتصار من أيديهم ، فظلوا أمام الخندق حتى اضطروا إلى العودة من حيث أتوا .

***

ولما فكر الرسول فى أن ينتقم لخبيب بن عدى وأصحابه ممن قتل بنو لحيان عند ماء الرجيع ، لم يجهر الرسول بقصده ، خوفاً من أن يعرف

العدو ، فيتخذ الحيطة لنفسه ، ولهذا أظهر الرسول أنه يريد بلاد الشام ، وأخذ قواته ، وتحرك بها إلى الشمال ، ولما اطمأن إلى أن أحداً من عدوه لا يعرف مقصده ، عاد إلى ناحية مكة وأسرع فى السير . حتى وصل منازل بنى لحيان بعُسْران[1] .

* * *

وعلم الرسول ان بنى المصطلق يحرضون عليه ويريدون قتله ، فقرر أن يأخذهم على غرة ويفاجئهم ، وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة ، وتحرك اللواءان حتى ماء قريب من بنى المصطلق ، يسمى المريسيع ، وفوجىء القوم ، بقوات محمد تهاجمهم ، فسقط فى أيديهم ، ولم يجدوا للخلاص طريقاً سوى الفرار .

* * *

وعندما قرر الرسول غزو خيبر ، خرج فى ألف وستمائة مقاتل ، ومائة فارس ، وقطع المسافة بين المدينة وخيبر فى ثلاثة أيام ، وكانت سرعة عجيبة حتى أن أهالى خيبر فوجئوا بقوات محمد أمام المدينة ، فهربوا يتصايحون ، « هذا محمد والجيش معه » . واستبشر الرسول من حالة الذعر التى وجدهم عليها ، فقال « خربت خيبر إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

***

وكانت رغبة الرسول أن يدخل مكة دون قتال أو إراقة دماء ، ولهذا وضع خطة التقدم إلى مكة على أساس أن يتم تنفيذها فجأة ، حتى لا تجد قريش الفرصة للمقاومة فتسلم دون قتال ، ولهذا أخفى الرسول تحركاته ، حتى إنه دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تعرف شيئاً عن تحركه .

---

(١) تشبه هذه الخطة خطة روميل عند احتلاله طبرق ، إذ أوهم الانجليز أنه سيطارد قواتهم المنسحبة ثم عاد بعد مطاردة قصيرة فهاجم طبرق قبل استعدادها واستولى عليها .

وبلغ من حرص الرسول أنه أمر بحراسة الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يستراب فيه ، خوفاً من أن يعرف أى فرد من عدوه نيته ، فيبلغ أهل مكة ما اعتزمه ، فتضيع بذلك المفاجأة .

ولقد حاول حاطب بن أبي بلتعة أن يتصل بقريش ، فبعث بخطاب مع امرأة تدعى سارة ، فعلم الرسول بأمر الكتاب ، وأرسل وراءها عليا والزبير والمقداد ، فلحقوا بالمرأة عند روضة خاخ ، ورجعوا بها وبالكتاب . . . وبذلك تحققت فى هذه الغزوة مفاجأة الرسول لقريش وأهل مكة .

التعرض

التعرض معناه الهجوم أو المبادأة .

ومن المعترف به أن الحرب تكتسب بالعمل الإيجابي لا بالعمل السلبي .

ومن المعترف به أيضاً أن الهجوم القوى هو خير وسيلة للدفاع .

ومما لا شك فيه أن القيام بالهجوم يعطى الثقة التامة للقوات المحاربة ، كما أنه يمنح الفرص لإحراز النصر .

والحروب الكثيرة التى حدثت فى التاريخ تنبىء بأن العمليات الهجومية تنتهى غالباً بالنصر[1]

وبدراستنا لحروب الرسول الكريم ، نجد أنه كان دائماً يتخذ خطة المبادأة والتعرض ، وأنه كان دائماً المفاجئ فى الحرب والبادئ بالهجوم .

* * *

ففى بدر ، خرجت قريش لتهاجم قوات المسلمين ، فهاجمها الرسول وأنزل بها خسائر فادحة ، دفعتها إلى أن تطلب الثأر من جديد ، فأعدت العدة لغزوة أحــــد .

وكان الرسول هو المهاجم أيضاً فى هذه الغزوة — غزوة أحد — فقد انتصر الرأى القائل بالخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج (الهجوم) ، وأنهم تحصنوا بالمدينة (أى اتخذوا خطة الدفاع) . جبناً من لقاء العدو ، وقال فى ذلك أحد المسلمين « إنى لا أحب

---

(١) من أمثلة ذلك (فى العصر الحديث) :

(ا) هاجمت روسيا تركيا عام ١٨٧٨ واضطرتها الى توقيع معاهدة سان ستفانو .

(ب) هاجمت ألمانيا فرنسا فى عامى ١٤ و ٣٩

(جـ) انتصر مونتجمرى على روميل فى صحراء مصر الغربية بعد قيامه بهجوم عام شامل بعد إعداد وتجهيز .

أن ترجع قريش إلى قومها ، فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرئة لقريش . . . . .

***

وعندما وقع الشر بين المسلمين وبنى القينقاع ، أمر الرسول بتجهيز جيش لمهاجمة حصونهم ، فقبع بنو قينقاع خلفها حتى انتصر الرسول عليهم وأمر بإجلائهم عن المدينة .

***

وكان الرسول هو البادىء بالهجوم ضد بنى ثعلبة ومحارب عندما تجمعوا يريدون إصابة أطرافه .

***

وعندما حاولت قريش أن تحول طريق تجارتها عن طريق العراق ، بعث الرسول زيد بن حارثة فى مائة راكب ، وقضى على تجارتهم عند القردة .

***

وبعث الرسول بسرية على رأسها أبو سلمة بن عبد الأسد ليهاجم بنى أسد الذين تجمعوا لمحاربته ولمهاجمة المدينة .

***

وهاجم عبد الله بن أنيس خالد بن سفيان ، وقضى عليه فى موطنه عرنة .

***

وأمر الرسول أصحابه بالتهيء للحرب ودعا محمد بن سلمة وقال له « اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله ارسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشراً فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . » ورفض بنو النضير ما دعاهم إليه الرسول فأمر بمهاجمتهم .

وعندما لوح أبو سفيان بأنه قادم إلى الرسول فى العام التالى لعام بدر ، دعا الرسول المسلمين إلى مواجهته حتى انه قال « والذى نفسى بيده لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى » . وسار الرسول فعلا على رأس ألف وخمسمائة (موقعة بدر الأخيرة) .

***

وفى غزوة ذات الرقاع وفى غزوة دومة الجندل وفى قتال بنى المصطلق كان هو البادئ بالهجوم أيضاً وفى كل الغزوات انتصر الرسول .

* * *

وصبيحة جلاء الأحزاب أوحى الله إلى الرسول أن يغزو بنى قريظة وأمر الرسول بلالا أن ينادى « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » . وتم حصارهم حتى سلموا .

* * *

وهاجم محمد بن مسلمة بنى بكر بن كلاب وكانوا يُضَارُّونَ الله ورسوله والمسلمين .

وغزا الرسول بنى لحيان ففروا منه فى الجبال .

وفى غزوة ذى قرد دعا الرسول « يا خيل الله اركبى » .

وهاجم المسلمون بنى أسد وبنى سليم وبنى كلب .

وهاجم الرسول خيبر .

وقام الرسول بهجمات وحملات تأديبية إلى بعض من هوازن ، وبنى مرة ، وبنى الملوح .

وبرغم انهزام المسلمين فى مؤتة فإنهم كانوا البادئين بالهجوم .

وقام المسلمون بعمليات ضد قضاعة وكانت العمليات هجومية ، الأولى : بقيادة أبى عبيدة ، والأخرى : بقيادة عمرو بن العاص .

وكان الرسول هو المهاجم فى غزوة الفتح الكبرى ، برغم أنه لم تحدث اشتباكات كبيرة .

وانتصر المسلمون فى حنين ، وكانوا هم المهاجمين أيضاً ، حتى إذا انتهوا منها ، هاجموا الطائف ، وظلوا بها حتى اضطروا إلى فك الحصار حتى تنتهى الأشهر الحرم .

***

إذن ، فالمسلمون فى حروبهم ، اتخذوا مبدأ الدفع أو التعرض أساساً لهم فى عملياتهم ، وكان لهذا أكبر الأثر فى نتائج المعارك ، فكانت كلها أو أغلبها فى جانبهم .

التطويق

ويسمى أيضاً الحصار .

والانتصار الحاسم يكتسب دون حاجة إلى المطاردة عندما تطوق القوات جيش العدو تطويقاً تاماً ، وتجبره على الخضوع والاستسلام .

والتطويق فى فن الحرب ، هو أسهل وأسرع وسيلة للقضاء على العدو ، ولقد فهم ذلك القادة العسكريون فى جميع العصور ، وأدركوا أنه وسيلة فعالة سريعة للوصول إلى النصر .

والتطويق له آثار كبيرة ، يسهل لمسها ومعرفتها بالنسبة للقوات التى تقوم به ، كما أن له آثاراً كبيرة على الجيوش المعادية ، إذ تشعر هذه الجيوش انها قد صارت فى وضع ذليل ، لا تستطيع الخروج أو التخلص منه ، إلا بحالة واحدة ، هى التسليم والخضوع لمشيئة المحاصر .

ومهما كانت المتاعب التى يلاقيها الجيش الذى يتولى عملية التطويق ، إلا أن مزايا التطويق بالغة الخطورة ، حتى انها تقلل من شأن هذه المتاعب (١)

واحتلال نابليون أولم سنة ١٨٠٥ ، دليل كبير على نجاح التطويق .

واستخدم الألمان التطويق فى سنة ١٩١٤ ، فعزلوا الجيوش الفرنسية عن القوات البريطانية التى كانت تنزل فى ذلك الوقت فى ميناء الهافر .

وسمعنا خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) عن حركات الكماشة التى استخدمها الألمان استخداماً ناجحاً .

---

(١) هذه المتاعب هى :

(١) قد تضطر الجيوش التى ترغب فى القيام بعملية التطويق إلى الفتح على مساحات كبيرة

(ب) قد يستطيع العدو الاستفادة من الوقت الذى يقضيه الجيش المحاصر فى تنظيم تحركات وحداته .

(ج) كثرة القوات المنفصلة لحراسة خطوط المواصلات ونقصان تعداد القوة اللازمة للمقاومة تبعاً لانفصال هذه القوات .

وبرغم تباعد العصور التى تمت فيها هذه العمليات ، والعصر الذى نشأ فيه الرسول ، فإن الرسول الكريم أدرك أهمية التطويق وخطورته ، وعرف أنه وسيلة سهلة سريعة للقضاء على جيش العدو ، ولهذا استخدم الرسول التطويق أو الحصار فى غالب عملياته .

***

فعندما علم يهود بنى قينقاع بتحرك الرسول إليهم ، دخلوا حصونهم ، فأمر الرسول بمحاصرتهم ، وظل الحصار خمسة عشر يوماً لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل عليهم أحد . . . وقل ما عندهم من زاد وشراب خلال هذه المدة ، فاضطروا إلى النزول على حكم الرسول وسلموا بقضائه .

***

وحاصر الرسول بنى النضير ، ولما طال الحصار ، سألوا الرسول أن يخرجوا من بلادهم ، فقبل الرسول ذلك ، وخرجوا من المدينة ونزل قوله :

« ولولا أن كتبَ اللهُ عليهم الجلاءَ لعذَّبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرةِ عذابُ النار » .

***

وعندما اقترب الرسول من حصون بنى قريظة أمر بحصارها ، فقال لهم أسيد بن حضير ، بعد أن تمت عملية التطويق ، « يا أعداء الله لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعاً ، إنما أنتم بمثل ثعلب فى جحر . »

واشتد الحصار وطالت مدته ، فطلبوا من الرسول أن يبعث إليهم أبا لبابة ابن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم ، وكان حليفاً لهم ، فطلب منهم التسليم ، وأن ينزلوا على حكم الرسول ، وتم ذلك ، فألقى الرسول القبض عليهم ، ونفذ فيهم حكم سعد بن معاذ .

وفى عمليات الرسول ضد خيبر ، حاصر الرسول حصن ناعم سبعة أيام ، وكذلك باقى الحصون ، وكان المسلمون يرمونها بالمنجنيق ، ويهاجمونها

بالدبابات ، ويمنعون عنها الزاد والماء ، حتى سلمت واستولى المسلمون على ما بها من سلاح وذخيرة وزاد ، حتى قيل إن المسلمين لم يملئوا بطونهم من طعام إلا بعد فتح خيبر .

***

وحاصر الرسول الطائف ، وهاجمها بالمنجنيق والدبابات ، ولما طالت مدة الحصار ، وقربت الأشهر الحرم ، قرر الرسول فك الحصار ، على أن يعود إلى الطائف بعد انتهاء هذه الأشهر .

المطاردة

قال نابليون ، وهو صاحب مدرسة لها نظمها وآراؤها فى الحرب، «الإنتصار لا يعد شيئاً ، إذ يجب إتمام وتعزيز هذا النصر ، وإن سر الحرب هو أن تمشى إثنى عشر فرسخاً [1] ، وتخوض غمار المعركة ، ثم تمشى إثنى عشر فرسخاً أخرى للمطاردة » .

والمطاردة يقصد بها أن الجيش المنتصر لا يترك الفرصة للجيش المنهزم ، فيعيد من جديد تنظيم قواته واستعادة تنظيماته ، ثم يعود إلى الميدان فيكون شوكة ،فى جانب الجيش المنتصر يجب إزالتها ولو بمعركة أخرى .

ومما لا شك فيه أن الجيش المنهزم ، يفقد الكثير من روحه المعنوية ، ومن قدرته على حمل السلاح ، وتفتر عنده الرغبة فى الحرب ، ولهذا فإن أية ضربة ، حتى ولو كانت بسيطة وضعيفة ، تقضى عليه قضاء مبرماً ، لا يستطيع بعدها تجمعاً ، ولا يتمكن من إعادة تنظيم نفسه ، أو استعادة الرغبة فى الحرب من جديد .

لمس هذا كله القادة ، وصوره نابليون تصويراً واضحاً فى قوله الذى ذكرناه فى أول حديثنا وطبقه تطبيقاً موفقاً فى حروبه :

ويسجل التاريخ الحربى صوراً كثيرة من أعمال المطاردة [2] .

---

(١) الفرسخ = ٣ أميال

(٢) من أمثلة المطاردة : (ا) مطاردة الألمان للحملة البريطانية المتقهقرة من مونز للمارن (١٩١٤) .

(ب) مطاردة ولنجتون لقوات صوات (١٨٠٩) وقولت مسينا (١٨١١)

(ج) مطاردة اليابانيين لقوات روسيا بعد معركة ليويانج (١٩٠٤)

(د) مطاردة مونتجمرى لقوات رومبل بعد العلمين (١٩٤٢)

وغزوة السويق ، كانت الغزوة الأولى التى طارد فيها الرسول القوات المعادية ، واتخاذه صلى الله عليه وسلم المطاردة كوسيلة للقضاء على عدوه فى هذه الغزوة ، يعطينا فكرة واضحة عن عبقرية الرسول كقائد عسكرى ممتاز ، قدر قيمة المطاردة ، وعرف أثرها ونتائجها .

***

فبعد انهزام أبى سفيان فى بدر ، رفض أن يعيش تحت ذل الانكسار ، ورغب فى أن يعيد إلى الأذهان قوة قريش ، وأن يذكر الناس بأن قريشاً ما زالت لها قوتها وعصبيتها وقدرتها على الحرب والقتال ، فجمع بعضاً من رجال مكة ، وخرج على رأسهم إلى مكان يسمى العريض ، حيث قتل رجلا من الأنصار ، ثم حرق بعض النخيل ، فلما سمع بذلك الرسول ، سار إليه ، وعلم بالمسير أبو سفيان ، فاكتفى بهذا النصر الرخيص ، وأسلم ساقيه للريح ، فقرر الرسول أن يتبعه ويطارده ، واستمرت المطاردة حتى قرقرة الكدر .

***

وفى غزوة أحد ، دعا الرسول المؤمنين إلى طلب العدو ومطاردته ، فخرج المسلمون وراء جيش أبى سفيان ، ووقع فى روعه أن الرسول يطارده بمدد جديد من المدينة ، فخاف لقاءه ، وأسرع يعدو إلى مكة ، واستمرت المطاردة حتى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة .

***

وفى حنين نادى الرسول فى قومه « إن الله لا يخلف رسوله وعده » وتناول حفنة من الحصى ، وألقى بها فى وجوه أعدائه قائلا « شاهت الوجوه » واندفع المسلمون يقاتلون أعداءهم فى شدة وبأس ، حتى رأت هوازن وثقيف أن مقاومتهما لهذا السيل الجارف غير مجدية ، وأنهم مساقون إلى حتفهم ،

فروا من الميدان تاركين أموالهم ونساءهم ، وهنا أصدر الرسول الأمر بالمطاردة وقال « من قتل مشركاً فله سلبه . »[1] .

وتبع المسلمون هوازن فى تقهقرها وفرارها حتى أوكاسا فقضوا عليهم ، وسلبوا من احتملوا من النساء والأموال ، ولما علم الرسول أن مالك بن عوف فر مع بعض القوم إلى الطائف أمر بمطاردتهم وجهز لذلك جيشاً ظل يطاردهم حتى وصل الطائف فحاصرها .

---

(١) يقال أن ابن الوغنة أبصر جملا عليه هودج ، ظن به لمرأة ، طمع فى سلبها ، فأناخ الجمل ووجد به شيخاً كبيراً فقتله ، وكان هذا الشيخ هو دريد بن الصمة .

المحافظة على الغرض

قلنا إن الرسول ، كان يميل إلى السلم ، وإنه كان يعزف عن الحرب ، حتى أنه قضى الفترة الأولى من حياة دعوته وهو بمكة ، محتملا العذاب والقسوة والشدة التي تعرض لها هو وأصحابه .

حتى إذا ما أذن له بالقتال ، جعل للقتال أهدافاً معينة ، وأغراضاً خاصة وكانت هذه الأهداف وتلك الأغراض تدور حول معنى واحد ، هو صيانة الدعوة ، وإعطاء الفرصة للمسلمين ، ليعبدوا ربهم ، في جو من الطمأنينة ، وحمايتهم حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم بسبب عقيدته ، ودخوله في الدين الجديد .

***

عندما أرسل الرسول عبد الله بن جحش إلى نخلة ، مرت به قافلة لقريش يقودها عمرو بن الحضرمي ، وكان الوقت في رجب ، وتشاور عبد الله مع أصحابه ، هل يترك القافلة تمر ، لأن هذا الشهر حرم فيه القتال ، أو ينفذ ما أمر به ليقضي على قوافل قريش . . . ووافقت الغالبية على القتال محافظة منهم على الغرض الذي خرجوا من أجله ، وهو الوقوف في وجه تجارة قريش ، ونجحت السرية في أداء مهمتها ، ونزل قول الله تعالى يؤيد عبد الله .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا »(١) .

***

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

وضايق يهود بنى قينقاع ازدياد قوة الرسول بالمدينة ، فأخذوا يتحرشون بالمسلمين حتى إنهم قالوا للرسول « يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب وأصبت منهم ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا » .

وكان قول اليهود تهديداً واضحاً للرسول .

وكان ازدياد قوة يهود بنى قينقاع بالمدينة خطراً على الدعوة الجديدة ، ولهذا قرر الرسول الخروج إليهم ومحاربتهم ، حتى يؤمن دعوته من هؤلاء الأشرار .

***

ولعل عدم محافظة المسلمين على غرضهم فى موقعة أحد من أسباب انهزامهم ، فإن الرماة الذين وضعهم الرسول على الجبل ، لم يحافظوا على الغرض من بقائهم فى مكانهم ، وتركوه تحت تأثير الرغبة فى الحصول على نصيبهم من الغنيمة ، وأدى ذلك إلى لمح خالد خلاء الجبل وقلة أهله ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل . . . ثم كانت كارثة أحد .

***

كان تأمين الدعوة من أهم أغراض الحروب التى خاضها الرسول ، ولهذا نجده عليه الصلاة والسلام بعد غزوة الخندق يوجه بعض السرايا والغزوات إلى بنى قريظة وبنى بكر وبنى لحيان وبنى أسد وذى قرد وبنى سليم وبنى كلب بقصد تأمين نفسه من شر اليهود والقبائل التى كانت ضمن الأحزاب ، ونجح فى هذه العمليات ، وأخضع هؤلاء جميعاً ، وأصبح آمناً ، وبذلك حقق أهم الأغراض التى كان يسعى إليها . .

***

وفى خلال غزوة الفتح ، وضع الرسول أغراضاً معينة نصب عينيه ، ولم يتحول عنها ، فمن ذلك مثلا أنه قرر دخول مكة ، فلما جاءه أبو سفيان

يطالب منه مد أمد الصلح بينه وبين قريش رفض طلبه لأنه يتعارض مع غرضه .

وقرر الرسول أن يدخل مكة دون إراقة دماء ، وأصدر أوامره بذلك إلى قادة الفرق ، فلما علم أن سعد بن عبادة قال « اليوم يوم الملحمة » . عزله وعين مكانه ابنه قيس ، ولما علم أن خالداً قاتل فى جبهته غضب ، ودعاه إلى إيقاف الحرب .

ولم ينس الرسول الغرض الذى دخل من أجله مكة ، ألا وهو القضاء على عبادة الأوثان والأصنام ، ونشر الإسلام . . فعندما تم له فتح مكة أمر بهدم جميع الأصنام الموجودة ، ودعا الناس « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنما إلا حطمه » .

ولم ينس الرسول أيضاً الأصنام التى كانت تعبد خارج مكة فبعث السرايا لهدمها . . سار خالد إلى نخلة لهدم العزى ، وعمر لهدم سواع ، وسعد بن زيد لهدم مناة .

السرية وسلامة القوات

من أهم الواجبات الملقاة على عاتق القادة خلال العمليات الحربية مراعاة سلامة القوات والمحافظة عليها ووقايتها . . وهذا الواجب يحتل مكان الصدارة من تفكير القادة عند وضعهم الخطط .

ولضمان الحصول على هذه السلامة وتلك الوقاية يلزم أن تكون السرية هى الأساس الذى يقوم عليه عمل القائد . . . والتاريخ ملىء بما يؤكد حرص القادة على سلامة قواتهم ، وحروب نابليون تؤكد لنا أنه كان يعنى عناية كبيرة بالمحافظة على سلامة قواته وحمايتها .

وجاء فى المأثور عن رسول الإسلام « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » ولقد حرص الرسول فى غزواته على كتمان أمرها حتى لا تذاع أخبار تجمعاته وتحركاته وتكتيكاته ، وحتى لا تتعرض قواته لما يهدد سلامتها أو يكشف خطتها .

***

فى العام الثانى للهجرة بعث الرسول عبد الله بن جحش فى سرية من المهاجرين ، ، ودفع إليه بكتاب أمره ألا يفضه إلا بعد مسيرة يومين ، وحين يطالع عليه يمضى بما أمره به وينفذ مايجده فى الكتاب من أوامر ، وفتح عبد الله الكتاب فإذا به، «إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها » .

إذن فسرية عبد الله خرجت دون أن تدرى شيئاً من مهمتها أو تعلم الدور الذى ستقوم به[1] ، فكأن الرسول أراد أن يخفى وجهة هذه السرية حتى

---

(١) تتفق هذه الحادثة مع حادثة أخرى فى العصر الحديث . . فإن نابليون — نابغة الحرب وصاحب المدرسة العسكرية الأصيلة فى فنون الحرب وتكتيكاته — عندما خرج بجيوشه من فرنسا قاصداً مصر ، أخفى نبأ اعتزامه غزو مصر عن الجميع ، ولم يعلم به أحد إلا بعد أن =

لا يعلم بها أحد فتعلم قريش بأمر تحركها وتتخذ ما من شأنه أن يعرض السرية للفشل فى مهمتها .

وفى خلال عمليات بدر ، أمر الرسول جنده « إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم على بعد فإن الرمى مع البعد غالباً يخطئ » . والرسول يقصد بهذا أن تظل قواته فى مواقعها لا يعلم بأمرها عدوها ، وأن تحتفظ بهدوء أعصابها ، وأن تضبط نبلها ، حتى إذا أصبح العدو على مرمى النبل ترميه بها فتصيبه .

ومن الطبيعى أن العدو فى خلال تقدمه يستمر فى هذا التقدم ، طالما أنه لم يسمع للعدو صوتاً ، ولم يعرف له مكاناً ، وطبيعى أن يستمر هذا التقدم ، حتى إذا أصبح على مرمى النبل ، وألقيت عليه النبال أصابت منه مقتلا ، وحققت للقوات المختفية عن عيونه انتصاراً بجانب سلامتها من نبله .

***

عندما استعدت قريش للهجوم على الرسول . فى غزوة أحد ، وبعث العباس عم النبي إلى الرسول بكتاب مع رجل غفارى ينبئه بتجمعات قريش ، وتحركها إليه ، فوصل الغفارى إلى المدينة ووجد الرسول بقباء فسلمه الكتاب ودفع به الرسول إلى أبَىّ بن كعب فقرأه عليه ، واستكتمه الرسول ما فيه ثم أبلغ الرسول خبر الكتاب أيضاً إلى سعد بن الربيع واستكتمه إياه . . .

ترى ما الهدف الذى كان يرمى إليه الرسول من أن يستكتم الرجلين أمر الكتاب ؟ .

= أصبحت قواته فى وسط البحر وعلى مسافة بسيطة من سواحل مصر ، ولعل تكتمه هذا التحرك ، راجع الى خوفه من أن يتسرب أمر الحملة إلى نلسن عدوه اللدود الذى كان يجول فى البحر بحثاً عنه ليقضى على قواته . وعلى مشروعه فى غزو مصر ، وإنشاء امبراطورية فرنسية فى الشرق .

وحدث فعلا أن عثر نلسن على أسطوله فى أبى قير فهاجمه وقضى عليه ، ولكن بعد أن غادرته القوات الفرنسية ... ولو أنه عثر عليه فى البحر الأبيض والقوات مازالت به لكانت كارثة فادحة استطاع نابليون بعقليته الجبارة وتفكيره العميق أن يتجنبها .

وبدأ الرسول يعد العدة للمحافظة على سلامة قواته فأمر بحراسة المدينة طول الليل خوفاً من أن تفاجئها قريش بالهجوم ، ثم أمر بإيفاد جماعة استطلاع لتقف على أمر قريش ، ولعله بإرسال هذه الجماعة كان يريد أن يعرف مدى تحركات قريش ، حتى يعد العدة لمواجهتها ، محافظة منه على قواته ، وحاولت كتيبة من اليهود بقيادة ابن أبي أن تشترك مع الرسول فى محاربة قريش ، إلا أن الرسول رفض ذلك قائلا « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يسلموا » . ولعل الرسول قد رأى هذا الرأى لعدم اطمئنانه إلى وقوف طائفة من أهل الشرك ، بجانب المسلمين ، ليحاربوا طائفة أخرى من أهل الشرك ، ولعل الرسول قد خاف أن ينقلب الأمر خلال العملية فتنضم هذه الكتيبة من أهل الشرك إلى العدو ، وهو أيضاً من أهل الشرك ، ويتفق الطرفان على القضاء على الدين الجديد .

إذن فهذا الرفض من جانب الرسول يتفق مع محافظته على سلامة قواته . ورغبته فى حمايتها خلال العمليات .

***

ورد الرسول بعضاً من المسلمين الخارجين فى معركة أحد لصغر سنهم وفى هذا الرد حكمة أرادها الرسول ... فإنه عليه الصلاة والسلام خاف أن تروع قلوب هؤلاء ، ويفقدوا أعصابهم خلال الحرب ، فيخافوا ويتولاهم الذعر وينقلبوا على أعقابهم ، ويؤدى هذا إلى أسوأ النتائج بالنسبة للعملية كلها ، ولهذا شاء الرسول أن يحمى قواته من الأثر الذى قد يتركه هؤلاء المحاربون الأصاغر فردهم إلى دورهم .

***

وعندما بدأت غزوة أحد أقام الرسول خمسين رجلا من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير بن النعمان على جبل صغير مرتفع وقال لهم « احموا ظهورنا لئلا يأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل ... إنا لا نزال غالبين ماثبتم فى مكانكم ... »

وللرسول حكمة بالغة فى وضع هذه القوة لتحمى ظهر قواته خلال اشتباكها مع العدو ، فلا تستطيع بذلك قوة للعدو أن تهجم من الخلف وتوجه طعنة إلى ظهر الجيش المقاتل ، فينهار . . وأمر الرسول هذه القوة ألا تترك مكانها مهما كانت الظروف ، ورسم لها خطوط عملها فى حالة الانتصار وفى حالة الانهزام ...

والمتتبع لسير هذه العمليات يرى أن هؤلاء عندما خالفوا أمر الرسول وافتقدوا الهدف الأسمى الذى وضعهم الرسول من أجله فى مكانهم ، وتركوا مكانهم وأسرعوا يشتركون فى أخذ الغنائم مع الغانمين ، فاجأهم خالد بن الوليد من الخلف ، ومن المكان الذي وضعهم فيه الرسول . وانقلبت المعركة من جانب المسلمين إلى جانب قريش ، حتى أن النبى شج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنتيه .

إذن فالرسول أدرك قبل الموقعة ، عند تقديره للموقف ، قيمة المؤخرة فى المحافظة على سلامة القوات وفى حمايتها ، ولكن لم تنفذ قوة الجبل أوامره ، فذاقوا ومعهم قومهم هوان الهزيمة وذل الانكسار .

***

وبعد أن انتهت موقعة أحد قام اثنان من بنى أسد ، هما طليحة وسلمة ابنا خويلد ، يحرضان قومهما ، ومن أطاعهما لمهاجمة الرسول فعقد الرسول لواء سرية من مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار لأبى سلمة بن عبد الأسد وأمره بالإغارة على بنى أسد ، وكانت تعليمات الرسول إلى أبى سلمة ، هى أن يسير بقواته ليلا ، ويختفى نهاراً ، وأن يسلك فى تحركاته طرقاً غير مطروقة ...

وهذه التعليمات نفسها هى التى اتبعها الرسول فى غزوة دومة الجندل . . .

وهذه التعليمات هى ذات التعليمات التى يصدرها قادة الحروب الحديثة ، وفكرة السير ليلا والاختفاء نهاراً . وسلوك الطرق غير المطروقة هى ذات الفكرة السائدة الغالبة فى خطط اليوم وعمليات الحروب الحديثة .

***

وفى غزوة ذات الرقاع خاف الرسول أن يعود بنو غطفان فيهاجموا المسلمين ، ولهذا أمر بإعداد الحراسة ليلا وقاية لقواته ومنعاً من مفاجأة العدو لها .

فقد قال الرسول « من يكلؤنا ليلتنا هذه » ؟ فقام من المهاجرين عمار ابن ياسر ، ومن الأنصار عبادة بن بشر فقالا « نحن يارسول الله » . ولما خرج الإثنان إلى موضع الحراسة . قال عبادة لعمار « أى الليل تحب أن أكفيكه : أوله أو آخره » ؟ قال « بل اكفنى أوله » .

***

وعندما انتصر عمرو فى عملياته ضد قضاعة ، منع قواته من أن تطارد العدو المتقهقر ، وتنزل بهم خسائر فادحة ، قد تؤدى إلى تحول النصر إلى هزيمة شنيعة ، ومنع قواته من إيقاد النار ، وغضب لذلك جنوده وأسرعوا عند عودتهم يشكونه إلى النبي ، فسأله الرسول عن سبب عدم مطاردته العدو وعدم السماح بإيقاد النار ، فقال عمرو قولا يتفق تماماً مع مبدأ سلامة القوات والمحافظة عليها ، فقد قال « كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد » .

***

وفى غزوة حنين استفاد الرسول من الخطأ الذى وقعت فيه قوات الجبل فى أحد ، ولهذا جعل عند توزيع قواته خالد بن الوليد على رأس بنى سليم فى المقدمة ، وتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة ، وكان لوجوده على رأس هذه القوة أثر كبير فى تحول هزيمة المسلمين إلى انتصار عظيم فى هذه الغزوة ، إذ ثبت الرسول فى مكانه وحوله رجاله حينما هاجمت قوات مالك بن عوف قوات المسلمين بقسوة وعنف خلال اجتيازهم وادياً من أودية تهامة ، وشاعت الفوضى ، وولى المسلمون الأدبار . . . ووقف الرسول ومعه رجاله من قوة المؤخرة ، ينادى الجموع الهاربة : « أين أيها الناس ! أين ! » ، وتجمعت قوات المسلمين من جديد حول الرسول ، وعاد القتال فاشتد ، وانتصر المسلمون . .

ونفسر وجود الرسول مع قوات المؤخرة بتقديره لأهمية واجب هذه القوة فى حماية ظهر المقاتلين ، فلولا وجوده لكانت هزيمة المسلمين فى حنين هزيمة شنيعة قاسية .

***

ولا تقتصر السلامة على مجرد وقاية القوات المتحاربة ، وهذه تسمى السلامة الحربية ، بل تشمل أيضاً وقاية الدولة ، وهذه تسمى السلامة الأهلية .

والسلامة الأهلية فى حياة الرسول ، تتعلق بسلامة الدعوة ، ووقاية الدين الجديد الذى كان يدعو إليه . . .

ولعل محافظة الرسول على دعوته الجديدة هى التى دفعت به إلى محاربة اقتصاديات قريش ، لأنه وجد فى تدهور اقتصادياتها بقضائه على تجارتها ، تدهوراً لحالتها السياسية ، وتدهوراً لقوتها الحربية ، فتضعف ولا تستطيع محاربة قواته أو الوقوف فى وجه دعوته .

ولقد وقعت غزوة بدر نتيجة لذلك ، وكذا وقعت الغزوات التى تلت بدراً . .

وكان من نتائج انهزام الرسول فى غزوة أحد ، أن أثار هذا الانكسار القبائل العربية ضده ، كما أثار اليهود أيضاً ، وفكرت كل القبائل فى النيل من الرسول ، وأحس عليه الصلاة والسلام بهذا كله ، فقرر أن يعمل على سلامة دعوته ، ولهذا أعد العدة لغزوات كبيرة ، وأرسل السرايا لتقضى على القبائل المتمردة الراغبة فى قتاله .

وانتصار الرسول على بنى أسد ، وبنى النضير ، وبنى غطفان ، وبنى قينقاع ، وانتصاره أيضاً فى السويق ، وحنين ، والطائف ، وتبوك ، تأكيد لعمل الرسول على صيانة السلامة الأهلية لدعوته ولدينه الجديد ، فبانتصاراته هذه أمن دعوته من غدر هؤلاء ، وأضاع عليهم الفرصة ليقضوا على الدين الجديد ، الذى جاء وانتشر على أنقاض أديانهم جميعاً .

النظام والضبط والربط

إن الضبط والربط لازمان للجنود لزوم الماء والغذاء .

وإن جيشاً لا يسوده النظام لا يقوى على مواجهة عدوه ولا يحقق أى نصر ، ولا يسود فى أية معركة .

ولقد عرف الرسول هذا كله .

***

عندما تقرر خروج المسلمين من يثرب لمواجهة العدو ، قال أسيد ابن حضير لمن رأى الخروج إلى قريش دون التحصن بالمدينة ، كما كان يرى الرسول « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة ، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فاطيعوه ... » وندم هؤلاء عندما سمعوا قول أسيد ، لأنهم أشاروا بغير ما أشار به الرسول ، فأسرعوا إلى الرسول يقولون « ما كان لنا يارسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدالك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك » .

ترى ماذا كان موقف الرسول وهو يعلم أن التردد خصم عنيد للضبط والربط ؟

لقد قال الرسول لقومه « أنظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم » . وهكذا أبى الرسول أن يعدل عن رأيه الذى قرره بعد دراسة وبحث وتمحيص ، فجعل النظام والضبط والربط أساس عمله كقائد .

وبلغ من شدة حرص الرسول على النظام ، أنه كان يشرف بنفسه على ترتيب أوضاع نساء المسلمين اللائى اشتركن فى العمليات ، وكان يجعل عملهن قائماً على أساس طيب من النظام الدقيق ، حتى لا يحدث هرجاً ومرجاً فى أثناء

العمليات ، فيضيع بذلك الضبط والربط اللازمان لها ، والواجب توافرهما خلالها . . .

وقيل إن الرسول فى غزوة أحد كان يعد مكان النساء بنفسه ، خوفاً من الإخلال بالنظام .

***

قلنا إنه بعد أن فر بنو محارب وبنو ثعلبة فى غزوة ذات الرقاع ، خشى الرسول أن يعودوا ثانية إليها ، فأمر بعض رجاله بتناوب الحراسة ، وكان يشدد فى ضرورة مراعاة النظام والضبط والربط فى أثناء الحراسة ، خوفاً من مفاجأة العدو لهم ، ولو أن العدو كان يعلم أن الرسول لن يهتم بالحراسة ، لعاد إليه ، ولحدث ما حدث فى غزوة أحد حينما فقد الجنود الرماة الضبط والربط والنظام ، فتركوا أماكنهم طمعاً فى الغنيمة التى سال لعابهم لها على أثر قول أحدهم « لم تقيمون ها هنا فى غير شىء ، وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » .

لقد فقدوا الضبط والربط ، وتجاهلوا النظام العسكرى وتركوا أماكنهم ، فهاجمهم خالد ، وتحول نصر المعركة إلى هزيمة مرة فى جانب المسلمين .

***

وجعل لنا الرسول من فتح مكة صورة حية للضبط والربط والنظام ، فقد أصدر أوامره بعدم القتال وإراقة الدماء ، وكان سعد بن عبادة على رأس فرقة أهل المدينة ، وكان عليه أن يدخل مكة من الغرب ، فلما سمع الرسول أنه قال « اليوم يوم الملحمة . . . اليوم تستحل الحرمة » . أقاله وولى مكانه ابنه قيس ، لأن فى هذا القول إزالة للضبط والربط من مسرح العملية ، وفيه خروج على النظام العسكرى ، الذى يوجب على المحارب أن يطيع أمر قائده ، وأن ينفذه دون تغيير او تبديل .

الشـــورى

إن القائد الذى ينفرد برأيه قد لا يستطيع أن يدرك الموقف كله على حقيقته ، فيضع خطة ناقصة لا تصل به إلى النصر الذى يبغيه ، ولهذا أنشئت بقيادات الجيوش هيئات أركان الحرب ، فتجتمع هذه الهيئات لبحث الموقف ودراسة العوامل ، وتقرير الخطة اللازمة التى يرى غالبية الأفراد أنها أصلح الخطط وأحسنها للتنفيذ .

وكان الرسول الكريم برغم تقدم العصر الذى عاش فيه ، لا يحب الانفراد أبداً برأيه فى العمليات ، بل كان يحاول دائماً أن يستخلص الرأى ممن حوله من أصحاب الآراء الطيبة ، والأفكار الصحيحة ، والنظر البعيد ، والرأى الصائب والخطة السليمة ، والفكرة المفيدة . . .

كان الرسول يعلم تماماً أن رأى الجماعة مهما كان ، فهو خير من رأى فرد واحد ، وهذا هو ما أشار إليه القرآن دستور محمد وأساسه فى الحياة ، ولهذا لا يعد عجباً أن يجمع النبي أصحابه ليتشاور معهم كلما كانوا على وشك الدخول فى عملية حربية .

* * *

عندما خرج الرسول لمقابلة قافلة أبي سفيان القادمة من الشام ، علم أن القافلة قد أفلتت بعد أن غيرت طريقها ، وعلم أيضاً أن قريشاً قد خرجت جميعا ، فجمع أصحابه وتشاور معهم فى الأمر ، هل يعودون إلى المدينة ، وقد أفلتت منهم القافلة أو يواجهون جيش قريش ، وتحدث من الموجودين أبو بكر وعمر . ثم تحدث بعدهم المقداد بن عمرو فقال « يارسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . . . ولكن اذهب أنت وربك

فقاتلا إنا معكما مقاتلون ... ووالله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا ».

ثم قال الرسول لأصحابه « أشيروا على أيها الناس .. » ، فوافقوه جميعاً على الخروج.

ونزل المسلمون بأدنى ماء ، وكان بينهم الحباب بن المنذر وهو عليم بالمكان ، فلما رأى حيث نزل الرسول قال « يا رسول الله أرأيت المنزل ؟ أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فقال الرسول « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال الحباب « يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا ».

بعد أن نزل الرسول عن رأيه وافق على ما أشار به الحباب ، وأعلن أن الشورى لازمة لهم ، وأنه بشر مثلهم ، وأنه لا يقر رأياً دونهم ، وأنه يقبل المشورة الحسنة منهم.

***

ولما كانت طليعة خيل قريش تقترب من المدينة ، جمع الرسول قومه ، وأخذوا يتشاورون ماذا يفعلون وكيف يتدبرون ؟

رأى الرسول أن يتحصن المسلمون داخل المدينة ، وأن يتركوا قريشاً خارجها ، فإذا حاولت اقتحام المدينة ، كان المسلمون أقدر على دفعهم والتغلب عليهم ، أى أن الرسول كان يرى اتخاذ خطة الدفاع ، وأيده فى ذلك عبد الله ابن أبى الذى قال « لقد كنا يارسول الله نقاتل فيها ، نجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصون من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو ، رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك . . . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ، ما فضت علينا قط ، ولا دخل علينا فيها عدو إلا أصبناه »

وكان هناك رأى آخر يقول بالخروج والهجوم ، فقد يعلل العدو الدفاع بالضعف ، وهم قوم ملأ الإيمان قلوبهم ، وجعل منهم قوة لاتغلب ، وقال أحدهم « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ليقولوا حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه جرئة لقريش ، وهاهم أولاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ، حتى نزلوا بساحتنا . . . أفيحبسوننا فى بيوتنا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ! لئن فعلنا لازدادوا ، ولشنوا الغارات وأصابوا من أطرافنا ، ووضعوا العيون على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا » .

وسادت الروح العسكرية الإسلامية هذا النقاش ، وكانت تدعو إلى الجهاد ، فإما نصر عزيز للمسلمين وخذلان لأعدائهم ، وإما نصر لعدوهم ، واستشهاد كريم لهم ، ويقول فى هذا خيثمة أبو سعدة « . . . عسى أن يظفرنا بهم ، أو تكون الأخرى فهى الشهادة » ولما كانت أمنية المسلمين جميعاً الجنة .

« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً »[1]

فقد انتهى الأمر بالخروج وبمهاجمة العدو ، برغم أن هذا الرأى يخالف رأى الرسول . . . ولكن الشورى — وقد كانت الأساس فى حياة الرسول العسكرية — هى التى أوجبت ذلك .

***

وسارت قريش فى عشرة آلاف تحت قيادة أبى سفيان ، متجهة إلى المدينة وكان عدد قواتها فى هذه المرة كبيراً خطيراً . . . وأحس الرسول بخطورة الموقعة القادمة ، فجمع قومه وسألهم الرأى والمشورة ، وقدم سلمان الفارسى مشورته إلى الرسول فى صورة خندق يحفر حول المدينة ، ويتحصن المسلمون داخله « يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا » . وأخذ

---

(١) سورة الواقعة ٢٥ .

المسلمون برأى سلمان ، ونفذت فكرته ، وحفر الخندق وانتهت غزوة الخندق بهزيمة الأحزاب وعودتها إلى مكة دون أن تصيب محمداً ورجاله .

***

وعندما اشتد خوف المسلمين من انضمام بنى قريظة إلى قريش وحلفائها الذين حاصروا المدينة ، فاوض الرسول قائدى بنى غطفان فى قبول ثلث غلة المدينة على أن يكفا عن الحصار ، فقبلا .

ولما علم بأمر ذلك الاتفاق سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، قالا « يارسول الله إن كنت أمرت بشىء فافعله وإن كان غير ذلك فو الله ما نعطيهم إلا السيف ، فقال الرسول « لم أومر بشىء ، وإنما هو رأى أعرضه عليكما » ، فقالا « يا رسول الله ماطمعوا بذلك منا فى الجاهلية ، فكيف اليوم وقد هدانا الله بك » فقال الرسول « فأنتم وذاك » ، وتناول سعد ابن معاذ الصحيفة ومحا ما فيها من كتاب .

وهكذا كان الرسول دائماً يتشاور مع رجاله ، ويتناقش معهم فى أمورهم .

***

ومرة أخرى أمام حصون خيبر يتشاور الرسول مع أصحابه ، فيقول له الحباب ، وقد رأى الرسول يواجه حصون النطاة : يارسول الله إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم ، وإن كان هو الرأى تكلمنا ، فقال له الرسول « هو الرأى » فقال الحباب « يا رسول الله إن أهل النطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى منهم ، ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم .. تحول يا رسول الله » .

ونزل الرسول على رأى الحباب وتحول إلى حصن ناعم .

الأسرى

لم يكن هناك نظام ثابت لمعاملة الأسرى حتى بعد غزوة بدر، إلا أن الرسول شرع نظاماً معيناً للأسرى ينحصر في أمور ثلاثة: الافتداء والاسترقاق والقتل.

ولم يلجأ الرسول إلى القتل إلا إذا كان الأسير أحد هؤلاء الذين اشتدوا في إيذائه وإيذاء أهله وأصحابه، وكان خطراً على دعوته وعلى رسالته، ومن أمثلة ذلك قصة الأسيرين النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط [1]، فقد وقعا معاً في الأسر بعد بدر. وكان الإثنان شراً مستطيراً على المسلمين في أثناء وجودهم في مكة، وكانا يبحثان في أفظع وسائل التعذيب لمحمد ولقومه، ولهذا ارتعد النضر عندما نظر إليه الرسول في أثناء استعراضه للأسرى، وصور ذلك في قوله لرجل إلى جانبه «محمد والله قاتلي لقد نظر إلي بعينين فيهما الموت» [2] ودعا النضر مصعب بن عمير وقال له «قل لصاحبك أن يجعلني كرجل من رجالك فهو والله قاتلي إن لم تفعل»، وكان رد مصعب «إنك كنت تقول في كتاب الله

---

(١) أشار الدكتور هيكل في كتاب حياة محمد إلى قتل الأسيرين وإثارة المستشرقين لقتلهما فقال «يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النضر وعقبة ويتساءلون «أليس في ذلك مايدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ظمأ لولاه ما قتل الرجلان ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردوا الأسرى وأن يكتفوا بالفدية التي غنموا علماً بأن هذا التساؤل مايلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنا بين مقتل النضر وعقبة ومايجرى اليوم وما سيجرى اليوم دائماً ما دامت الحضارة الغربية التى تتشح بوشاح المسيحية متحكمة فى الأرض، فهل تراه يوازى شيئاً إلى جانب ماينبع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها؟ وهل تراه يوازى شيئاً إلى جانب ماوقع من مجازر الحرب الكبرى؟».

وأضيف إلى إشارة الدكتور هيكل فى هذا المجال «هل هذا يوازى شيئاً مما حدث وما يزال يحدث فى الجزائر؟ وهل هذا يوازى شيئاً مما حدث فى فلسطين العزيزة».

(٢) قال له الرجل الذى بجانبه «ما هذا والله منك إلا رعب».

كذا ، وفى نبيه كذا ، وكنت تعذب أصحابه . »[1]

وحاول المقداد أن ينقذ النضر فقال « النضر أسيرى » فرد النبى « أضرب عنقه »[2] .

وأما عقبة بن أبى معيط فقد صاح فى النبى عندما أمر بقتله « فمن للصبية يا محمد ؟ » فرد النبى « النار »[3] .

***

وكان موضوع الأسرى بعد غزوة بدر موضع نقاش واستشارة بين المسلمين ، ولم يشأ النبى كما هى عادته أن ينفرد بالرأى .

روى الطبرى أنه لما جيء بأسرى بدر وكانوا أربعة وأربعين ، وقيل سبعين ، قال الرسول لأصحابه « ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ » فقال أبو بكر « يا رسول الله ! قومك وأهلك استبقهم واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم » فقال الرسول لعمر بن الخطاب « ما ترى يا بن الخطاب ؟ » فقال « لا والذى لا إله إلا هو ، ما أرى الذى رأى أبو بكر يا نبى الله ، ولكن أرى أن تمكننا منهم ، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده » وقال عبد الله بن رواحة « يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم » وسكت الرسول ولم يجبهم . فقال ناس يؤخذ بقول أبى بكر . وقال ناس يؤخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج عليهم الرسول وقال « إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبرهيم قال :

---

(١) قال النضر لمصعب « لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حى » فرد مصعب « والله انى لا أراك صادقاً »

(٢) قيل إن علياً هو الذى قتله .

(٣) قيل إن قاتله هو على وفى رواية أخرى قيل إنه عاصم بن ثابت

« فَمَنْ تَبِعنى فَإنَّهُ مِنِّى ومَنْ عَصَانى فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[1].

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال :

« إنْ تُعَذِّبهُمْ فَإنَّهمْ عِبادُكَ وإنْ تَغفِرْ لهُمْ فإنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحكيمُ »[2].

ومثلك يا عمر مثل نوح قال :

« رَبِّ لَا تذَرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّاراً »[3].

ومثلك مثل موسى قال :

« رَبَّنا أطْمِس عَلَى أمْوالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنوا حَتَّى يَرُوا العَذَابَ الأليم[4] » .

ثم قال رسول الله « أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق » فقال عبد الله ابن مسعود « إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام » فسكت رسول الله ثم قال « إلا سهيل بن بيضاء » وأنزل الله عز وجل هذه الآية

« مَا كانَ لنَبيٍّ أنْ يَكونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرْض تُرِيدونَ عَرضَ الدُّنيا وَاللهُ يريدُ الآخِرةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكيمٌ[5] » .

وروى الطبرى وابن هشام أن الرسول بعد أن فرق الأسرى على أصحابه قال لهم « استوصوا بالأسرى خيراً » .

***

---

(١) سورة ابراهيم ٣٦
(٢) سورة المائدة ١١٨
(٣) سورة نوح ٢٦
(٤) سورة يونس ٨٨
(٥) سورة الأنفال ٦٧

وهذا الذى انتهى إليه المسلمون فى معاملة أسراهم هو آية كبيرة يتجلى فيها مظاهر الرحمة والرأفة والحسنى ، ولا عجب فى ذلك فقصة الشاعر أبو عزة عمرو بن عبد الله[1] هى أوضح برهان على ما تملك المسلمين من سيل فياض من الرحمة والرأفة ، إذ تقدم هذا الشاعر إلى النبي وصاح « لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن يا محمد وإنى معطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً » فما كان من الرسول إلا أن أمنه على نفسه وفك أسره دون فداء . وكان الفداء عند المسلمين يتردد بين أربعة آلاف درهم وألف درهم للرجل وكان النبي يمن بالحرية على من لا يملك شيئاً . وهذا هو غاية الحكمة وبالغ الرحمة .

***

ولقد كسب المسلمون باتخاذهم الفداء وسيلة فى معاملة الأسرى ، إذ أن كثيراً من الأسرى كانوا يعلنون إسلامهم عن عقيدة وإيمان . . . وها هو ذا أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبى ، يقع فى الأسر ، وكان النبي قد فرق بينه وبينها ، عندما رفض اعتناق الإسلام ، وما أن علم بوجود زوجته السابقة حتى انحدر إليها ليلا ، ودخل عليها فاستجارها وأجارته ، ورد إليه المسلمون ماله ، وخرج إلى قريش وأعطى كل ذى حق عنده حقه[2] ، ثم صاح فيهم « إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت » . وعاد إلى المدينة وردت إليه زينب وعاش تحت ظلال الإسلام .

***

---

(١) يقال انه بعد أن فك أسره فى هذه المرة عاد لحارب ضد الرسول فى غزوة أحد فلما أسر أمر النبي بقتله .

(٢) قيل انه كان فى تجارة لبعض رجال قريش فلما رد المسلمون له ماله انطلق بعده بدوره الى قريش ثم قال « هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ » قالوا « لا ! جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيا كريماً »

كان الأسرى بعد فتح مكة خمسة عشر أسيراً . عفا النبي عن أحد عشر منهم ، ولم ينظر إلى ما كان منهم في حال كفرهم ، لأنهم كانوا يعيشون قبل الإسلام في جهل وضلال ، متأثرين بأحوال بيئتهم ، فلهم في ذلك شيء من العذر ، وأخذهم بالعفو أولى وأجدر . والإسلام دين هداية ورحمة لا دين تشف وانتقام .

ومما لا شك فيه أن الإسلام قد ضرب مثلا صالحاً في معاملة الأسرى ليعلم الناس أن الأولى أخذهم بالعفو بعد القدرة عليهم .

***

وفتح مكة يعطينا صورة واضحة عن معاملة النبي لأسراه ، فعندما دخل واجتمع بين يديه أهل قريش أسرى — وكان على رأسهم أبو سفيان — هؤلاء الذين ائتمروا عليه ليقتلوه ، وعذبوه وأصحابه وقاتلوه في بدر وحاصروه في الخندق ، وأثاروا عليه العرب ، وحاولوا أن ينالوا منه مقتلا . . هؤلاء جميعاً أسرى بين يديه يتطلعون في قلق إلى مصيرهم . . . وتحركت شفتا الرسول .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[1] »

ثم « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم » قالوا « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم » ، وتحركت الشفتان من جديد لتقرر مصير هؤلاء الأسرى « إذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وصدر بذلك العفو الشامل الكامل عن قريش دون فداء .

***

وكان ضمن الأسرى بعد فتح مكة عبد الله بن خطل[2] ، وعندما شعر بأنه

---

(١) سورة الحجرات ١٣

(٢) قيل إنه ركب فرسه يوم فتح مكة ولبس درعه وأخذ بيده قناة وصار يقسم « لا يدخلها محمد عنوة » فلما رأى خيل المسلمين أدركه الخوف فذهب إلى الكعبة وتعلق بأستارها .

سيقع فى الأسر ، ذهب إلى الكعبة وتعلق بأستارها ، ظناً أن ذلك سينجيه من القتل الذى كان يتوقعه على يد الرسول ، وعندما رآه النبي وهو متعلق بأستار الكعبة قال « اقتلوه . . فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب » وقيل إن قاتله كان أبو برزة الأسلمى .

وفى يوم حنين كان عدد الأسرى ضخما إذ بلغ ما يناهز ستة آلاف أسير ومع هذا أطلق النبي صلى الله عليه وسلم سراحهم جميعاً منة منه وفضلا .

***

ونحن فى حديثنا عن الأسرى فى حروب الرسول لا يفوتنا أن ننوه بما يناله الأسرى فى الحروب الحديثة من معاملة سيئة قاسية عنيفة ، برغم وجود النظم الدولية الخاصة بالأسرى ، والتى تحدد كيفية معاملتهم ومعيشتهم داخل الأسر ، وما يقومون به من أعمال ، وكيفية إخراجهم من الأسر وإعادتهم إلى وطنهم . . إلا أن الدول فى العصور الحديثة جعلت من هذه النظم حبراً على ورق ، ولم تحترم عهداً من العهود أو ميثاقاً من المواثيق ومن بينها مواثيق معاملة الأسرى ، ومازالت السجون مليئة بأسرى الحرب العالمية الأخيرة ، برغم مرور إحدى عشرة سنة عليها ، وما يزال الأسرى يلاقون العذاب والمهانة والذل ، ويعاملون معاملة سيئة لا تمت إلى الإنسانية بصلة . . معاملة قاسية عنيفة تعيد إلى الأذهان صور الرقيق ، وما كانوا يلاقونه من عذاب الهون ، ويعانونه من الضيم .

وكم نتمنى ونحن ننشر هذه الصفحات الكريمة من حياة الرسول العسكرية أن يطلع المسئولون فى القوات المسلحة فى جميع أنحاء العالم على المعاملة الطيبة التى كان يعامل بها الرسول الكريم أسراه ، وعلى مظاهر الإنسانية الرفيعة التى كانت تكون العلاقة بين القائد العسكرى وبين أسرى الحرب .

الروح السمحة فى الحرب

إن مسرح الحرب لا يخلو برغم شدة الطلقات والانفجارات ، ودوى الرصاص والمدافع ، والقتل والطعن ، والضرب والنزال ، من بعض مظاهر الرحمة والعطف الإنسانية .

وهذه حالة وضحت تماماً ، وظهرت لكل قارىء أو لكل باحث فى تاريخ الحروب الإسلامية .

قلنا إن الحرب كانت فى الإسلام تهذيباً لفكرة الحرب ، حتى أنه اختفت فى حروب الرسول ، جميع مظاهر العنف والشدة والقسوة التى كانت تسود الحروب ، والتى صورها عمرو بن معد يكرب :

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها ... عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة للشم والتقبيـــل

ونحن قبل أن نعرض لهذه الناحية الإنسانية النبيلة فى حروب الرسول الكريم ، فإننا لا ننسى أن نشير هنا إلى الفضيحة الكبرى المخزية التى أثارها الحلفاء على مسرح العالم بعد الحرب العالمية الثانية حينما انتقموا من أعدائهم ، ونقصد بها محاكمات مجرمى الحرب التى أوضحت كيف عامل منتصرو القرن العشرين أعداءهم ، كيف قدموهم إلى المحاكمات الصورية ، ثم كيف أدانوهم وأعدموهم ، وكانت هذه المحاكمات نقطة سوداء بل صفحة داكنة فى جبين الإنسانية والحضارة ، وأيدت هذه المحاكمات القول القائل « الويل للمغلوب » .

***

لم ينس الرسول الكريم خلال غزوة بدر الأعمال الطيبة التى قامت بها بعض القبائل نحوه وهو فى مكة .

لم ينس لبني هاشم منعهم إياه مدى ثلاثة عشر عاماً من يوم بعثته إلى يوم هجرته حتى أن عمه العباس كان معه ليلة العقبة . .

ولم ينس لغيرهم موقفهم النبيل ، يوم دعوا إلى نقض الصحيفة التي اضطرته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب .

لم ينس الرسول هذا كله بل اعتبره معروفا يجب ان يقابل بالمعروف ، ولهذا أصدر أوامره في غزوة بدر إلى رجاله بعدم التعرض لبني هاشم ولغيرهم من سادة قريش وهم أصحاب الفضل على دعوته ، برغم أن هؤلاء الذين وصى عليهم ، ماكانوا ليتركوا مسلما يقع في أيديهم حياً ، بل كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله .

***

وبلغت الروح السمحة أروع منازلها بعد غزوة بدر إذ اجتمع بين يدي محمد عدد كبير من الأسرى ، ففرقهم الرسول على أصحابه ووصاهم بهم خيراً إذ قال « استوصوا بهم خيراً . »

***

وحدث أن عز على عمر بن الخطاب أن يفتدى سهيل بن عمرو ، وينجو دون أن يصيبه مكروه ، وكان مكرز بن حفص يبغي فداه فقال عمر للرسول « يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل ، فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً » فكان جواب الرسول بالغاً غاية السمو تظهر من بين ألفاظه الرحمة والإنسانية « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً »

***

وتبدو الروح الإنسانية النبيلة المسيطرة على الرسول وهو يحارب في الميدان ، عند ما هدده دعثور رئيس غطفان بالقتل ، حتى إذا وقع دعثور بين

يدى الرسول ، منحه الصفح والحرية وكان فى استطاعته قتله ، وكان لهـذه المعاملة الكريمة أثرها فى نفس دعثور فأعلن إسلامه ودعا أهله إلى الدخول فى الإسلام .

***

ومن أهم مظاهر الروح السمحة الكريمة فى الإسلام تحريم القرآن قتل المرضى والشيوخ والنساء ، وهذا التحريم تهذيب واضح وصريح لفكرة الحرب التى كانت ومازالت لا تفرق بين المحاربين فى الميدان ، والقابعين فى البيوت ، فها هو ذا أبو دجانة يلتقى فى الميدان هند بنت عتبة وهى تدور بين الصفوف فى غزوة أحد ، تشجع المحاربين وتثيرهم ضد جنود الإسلام ، ففكر فى قتلها ، ثم أبعد الفكرة وهو يقول « كرهت أن أضرب بسيف رسول الله امرأة لا ناصر لها » .

***

وتبلغ الروح السمحة لدى الرسول أسمى درجاتها فى محادثة أبى سفيان قبل غزوة الفتح الكبرى ، فقد دار بينه وبين النبى حديثاً (سبقت الإشارة إليه) ، وتدخل العباس عم الرسول ودعا أبا سفيان إلى الدخول فى الإسلام ، وقال للرسول « يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً » فقال الرسول « نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . . . »

وهكذا أنهى الرسول بروحه السمحة الكريمة موقفه مع أبى سفيان ، الذى كان قد أنذر بعد بدر ألا يمس ماء رأسه حتى يغزو محمداً .

***

ومن المعروف أن للنصر فى المعارك الفاصلة التى تنتهى بها الحروب العامة ، نشوة تغرى بالطغيان فى التشفى إذا كان المنتصر ظالما ، وبالانتصاف والتأديب إذا كان عادلا ، ولا يتيسر الصفح الجميل والعفو النبيل فى مثل هذه المواقف إلا لصفوة الله من خلقه :

والقائد الحكيم هو الذى يحسب ليوم نصره حسابه ، ويعد له عدته ،

خيوطن نفسه على كبح جماحها عند الغلبة ، وصد النشوة عن امتدادها كيلا تطغى ، وغاية السمو هنا أن تمتد يد المنتصر بالإصلاح ومداواة الجراح عند أعداء الأمس .

بهذا الإصلاح يسترق هؤلاء الأعداء ، فطالما استعبد الإنسان إحسان وها هو ذا موقف الرسول الكريم وهو فى أوج انتصاره يوم الفتح الأعظم بالنسبة لقريش وأهل مكة الذين عارضوه وسفهوه وعذبوه وأخرجوه من داره بغير حق ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل العدوان الباغى ، والتشفى الرخيص ، والبغى اللئيم إلا فعلوها معه .

إن صيحة سعد بن عبادة يوم الفتح ، وإسراع عمر وعثمان وابن عوف إلى الرسول يقولون « إنا لا نأمن سعداً أن تكون منه فى قريش صولة » . وإنشاد ضرار بن الخطاب القرشى على مسمع من رسول الله شعراً يستعطفه به :

إن سعداً يريد قاصمة الظهـــر بأهل الحجون والبطحاء

إذ ينادى بذل حى قريش وابن حرب بذا من الشهداء

ومناجاة أبى سفيان للرسول « يارسول الله أأمرت بقتل قومك فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا ، أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم » .

كل هذا دفع بالرسول إلى أن يعزل سعداً من قيادة الفرقة ، ويولى ابنه قيساً مكانه ، ويقول « اليوم يوم المرحمة . . . اليوم أعز الله فيه قريشاً[1] » .

***

وبعد انتهاء الفتح أعلن الرسول صفحه الجميل الكريم وهتف فى قريش هتافه الخالد . « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وكانت أبرز ظاهرة بعد إتمام الفتح أن قريشاً لمست فسحة صدر الرسول وعفوه ، فطمع أهلوها فى الدخول فى الإسلام ، وجاء الكثيرون يطلبون

---

(١) كانت صيحة سعد « اليوم يوم الملحمة ... اليوم أذل الله قريشا » .

الصفح والعفو ، وكان الرسول سمحاً كريماً معهم جميعاً ، فقبل توبتهم وإسلامهم ومن هؤلاء ابن أبي السرح وعكرمة بن أبي جهل[1] وزوجه أم حكيم وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان .

***

وكان الرسول قد أمر بقتل عدد من المشركين ولكنه عاد فصفح عنهم جميعاً ما عدا أربعة أمر بقتلهم حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة[2] .

***

وعندما فتح الله مكة لنبيه ، جاءه هبار بن الأسود وقال له : « يا رسول الله كنت هممت أن أفر إلى بلاد فارس ولكني تذكرت عفوك العام وصفحك الشامل فجئتك معترفاً بجميع ما بلغك من ذنوبي » . فشمله الرسول بعفوه وفتح له باب رحمته .

***

خرج وحشي قاتل حمزة من الطائف ، بعد فتحها ، هارباً يلتمس مكاناً آخر يختبيء به ، فلما أظل سلطان الإسلام هذا المخبأ ، قال له قائل : « إنك لا تعلم ما نعلم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، إنك لن تجد لنفسك مأمناً إلا عنده » فحضره وحشي خائفاً ، فلما وقع عليه نظر النبي عليه السلام ، غض عنه بصره وتذكر عمه حمزة فذرفت الدموع من عينيه الشريفتين . . .

ها هو ذا القاتل أمامه ويستطيع الرسول بقوته وبنفوذه وبسلطانه أن يقتص منه . . . ولو كان فعل لكان ذلك حقاً وعدلا ، ولكنه عليه الصلاة والسلام عفا عنه ، واكتفى بأن صرفه قائلا : « إليك عني ، فإني إذا رأيتك تذكرت عمي حمزة وشهادته » .

***

---

(١) كان عكرمة قد فر إلى اليمن وكانت زوجته قد أسلمت فذهبت إلى اليمن وعادت به إلى المدينة فلما بلغ الرسول قدومه سارع يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال له « مرحباً بالراكب المهاجر . . »

(٢) من الأربعة الحويرث الذي أغرى بزينب بنت النبي حين رجوعها إلى المدينة ، ورجلان أسلما ثم ارتكبا جريمة قتل بالمدينة وفرا راجعين إلى مكة مرتدين إلى الشرك .

وها هو ذا كعب بن زهير تضيق به الأرض ولا يجد له مجيراً فيأتى إلى المدينة بعد عودة الرسول إليها من مكة ويدخل عليه فيعلن إسلامه وينشد قصيدته فى مدح الرسول ولا ينسى أن يذكر فيها الروح السمحة الكريمة التى امتاز بها الرسول والتى عومل بها أعداؤه .

أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

***

ومن قصص العفو التى لا مثيل لها بين الناس ، عفو رسول الله عن زعيم المنافقين عبد الله بن أبىّ ، فقد كان عبد الله عدواً لدوداً للمسلمين يتربص بهم الدوائر ، ويحالف عليهم الشيطان ، ويحيك لهم المؤامرات ، ولا يجد فرصة للطعن عليهم والنيل منهم إلا انتهزها ، وهو الذى أشاع قالة السوء عن أم المؤمنين عائشة ، وجعل المرجفين يتهامسون بالإفك حولها ، ويهزون أركان المجتمع الإسلامى هزاً بهذا الاتهام الدنىء .

وعندما اكتسح الإسلام أرض الجزيرة انكمش أعداؤه ومنهم ابن أبىّ الذى مرض ومات .

وجاء ولده إلى رسول الله يطلب منه الصفح عن أبيه فصفح الرسول ، ثم طلب منه أن يكفن فى قميصه فمنحه إياه ، ثم طلب منه أن يصلى عليه ويستغفر له ، فوقف الرسول أمام جثمان الطاعن فى عرضه يستدر له المغفرة ويعفو عنه .

هذه هى الوسيلة المهذبة الكريمة فى معاملة الأعداء وفى العفو عنهم .

وهذا هو ما حققه محمد صلى الله عليه وسلم وضرب به المثل فى السماحة التى لا عهد بمثلها للعالم وللإنسانية وللمحاربين . . . السماحة التى تعنى كرم العفو ، وجلال الصفح ، ودماثة الخلق ، وسعة الصدر ، وكرم المعدن . . .

هذه هى سماحة الرسول يتقدم بها إلى الإنسانية عامة ليكون لها فيه خير أسوة وأعظم قدوة . . .

مبادئ الحرب

(٢)

القوى المعنوية

- العوامل التي تؤثر على الفرد منفردًا
- العوامل التي تؤثر على الفرد مجموعًا
- العوامل التي تؤثر على الأفراد منفردين ومجتمعين

من أهم العوامل التى تعمل على نجاح الحروب وتسبب الانتصار العوامل المعنوية ، وهذه تشمل صفات الجنود وأخلاقهم وحسن نظامهم وشجاعتهم وإخلاصهم وقوة احتمالهم وقدرة قادتهم وكفايتهم واعتقادهم بأحقية الغرض الذى يحاربون من أجله ثم إرادة الأمة المتحاربة وقوة إيمانها . .

ويتوقف نجاح الحروب على الصفات المعنوية أكثر من توقفه على الصفات المادية فلا العدد ولا التسلح ولا موارد الدولة ولا المهارة تقوم مقام الشجاعة والإقدام والرغبة فى إحراز النصر . . . فتوافر الصفات المعنوية فى نفس الجندى من أهم عوامل إقدامه على الحرب بروح قوية وعزم أكيد وعقيدة راسخة .

ويقول كلاوزفتز « إن القوة المعنوية بمثابة الروح التى تسيطر على مجموعة عمليات الحرب » .

وقسم الكولونيل فللر Col· Fuller العوامل المعنوية ثلاثة أقسام :

١ — العوامل التى تؤثر على المرء منفرداً كالقيادة والشجاعة والإيمان والمهارة .

٢ — العوامل التى تؤثر على الفرد مجموعاً كحب الوطن والإخلاص والافتخار بالوحدة .

٣ — العوامل التى تؤثر على الأفراد منفردين ومجتمعين كقوة العقيدة والثقة .

وفى ضوء هذه الأقسام الثلاثة للعوامل المعنوية سنتحدث عن القوى المعنوية فى حروب الرسول .

العوامل التى تؤثر على الفرد منفردا

١ — الإيمان

(ا) ذهب وفد إلى أبى طالب عم الرسول يقول له « يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » . وسار أبو طالب إلى ابن أخيه يقول له « أبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق » .

واستمع الرسول إلى قول عمه ، ثم تطلع إلى رسالته فرأى أنها رسالة حق واختبر مدى إيمانه بها فوجده إيماناً لا مثيل له ولم يجد بداً من أن يواجه عمه ويقول له فى صراحة وإيمان « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » .

ولم يملك أبو طالب إلا أن يقول « اذهب يا بن أخى فو الله لا أسلمك لشىء أبداً » .

(ب) وبعثت قريش عتبة بن ربيعة سفيراً لها إلى محمد يقول له « يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها . . إن كنت تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفا سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » .

---

(١) مس من الجن .

وبعد أن استمع الرسول إلى ما عرضه عليه سفير قريش ، قرأ عليه قول الله تعالى .

« ألم . تَنزِيلُ الْكِتابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ العَالَمِينَ . أمْ يقُولونَ افتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أتاهُمْ مِنْ نَذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدونَ »(١)

وأخذ عتبة بما سمع وأذهله هذا الإيمان العميق الذى لمسه من محمد وعجب أن تنهار كل الإغراءات التى قدمها أمام صدق إيمانه بدعوته وبنصر ربه له .

(ح) ولم تقم دعوة الرسول على مجرد إيمانه النبى اتضح من القصتين السابقتين وإنما قامت أيضا على مدى إيمان رجاله بالدين الجديد ، فقد خلق هذا الدين فى نفوس رجاله نوعاً راقياً من الإيمان جعلهم لا يترددون فى تنفيذ أى أمر من أوامر الرسول ... أمرهم بالهجرة إلى الحبشة وترك ديارهم وأوطانهم وقبائلهم ، فقبلوا عن طيب خاطر ، وكان لأمنهم عند النجاشى ولسكينتهم إلى دينهم بين قومه اثره فى نفس قريش فأعجبوا بهذا الإيمان الذى سما بنفوسهم فوق الأذى والظلم حتى أصبحوا يرون فى الصبر على البأساء قرباً لله .

ولقد دخل الإيمان قلب عمر وهو يهم بتعذيب أخته وزوجها فلما قرأ القرآن تطهرت روحه وتملكته المشاعر السامية والمبادئ العالية التى يدعو إليها القرآن فخرج من بيت أخته يعلن إسلامه على الملأ .

ومكن الإيمان جنود محمد من الانتصار على أعدائهم انتصاراً ساحقاً حتى أنهم كانوا إذا أعدوا سرية أو تجهزوا لغزوة ، وسمع العدو بتحركهم إليه يترك بلده وخيره ويفر فى الجبال خوفاً منهم . . . فعندما سار الرسول إلى غزوة دومة الجندل وعرفت القبائل سيره - وتصورت كيف يجعل الإيمان

---

(١) سورة السجدة ١ /٣

رجاله يستبسلون برغم قلتهم ويحاربون حربا لاهوادة فيها ، وكل واحد منهم يأمل الاستشهاد ويود أن يسبق الآخرين إلى الجنة — فرت وتركت غنائم كثيرة .

وبماذا نصور إيمان أم حبيبة زوج الرسول وابنة أبي سفيان ؟ لقد ذهب إليها أبوها قبل غزوة الفتح وأراد أن يجلس على فراش الرسول فطوته أم حبيبة وقالت له « هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ولا أحب أن تجلس عليه » . . . لقد أهانت أم حبيبة أباها من أجل الدين الجديد الذي يدعو إليه زوجها ، ووصفت أباها بأسوأ الصفات لأنه مازال مشركا لم يعترف برسالة زوجها ولم يشهد كما شهدت بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

***

القيادة الحكيمة

(١) القيادة الحكيمة من العوامل التي تؤثر في الفرد منفرداً . . والرسول الكريم كان خير مثل للقائد الحكيم ، ووقفته في بدر الآخرة خير دليل على ماتذهب إليه ، إذ بلغه أن أبا سفيان قد أعد جيشاً لمقاتلة المسلمين ولاحظ الرسول أن المسلمين يريدون أن يتجنبوا الخطر إذ أظهر كثيرون الرغبة عن النهوض والسير إلى بدر فغضب الرسول وأقسم أن يذهب وحده وقال « والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي » .

(ب) وفي غزوة حنين هاجمت قوة مالك المسلمين وهم يجتازون وادياً من أودية تهامة ، فاختلط أمر المسلمين وكان للمفاجأة أثرها فاختلت صفوفهم وتراجعوا وولوا الأدبار . . . أما الرسول القائد فقد ثبت في مكانه ومعه بعض أصحابه وأخذ ينادي في الجموع « أين أيها الناس ؟ أين ؟ » واندفع ببغلته البيضاء يوقف الهجوم العنيف الذي شنته قوات مالك ، وشاهد ذلك عمه العباس فأخذ ينادي في المسلمين ويدعوهم إلى الرسول ، واستجابت الجموع لدعوته ودوى في الميدان النداء الخالد « لبيك ... لبيك . . » ، وانتصر المسلمون بفضل ثبات قائدهم ورسولهم .

ويقول على بن أبى طالب « كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(حـ) وفى غزوة الخندق اشترك الرسول فى الحفر . . . لم يشأ أن يترك ذلك لرجاله على أساس أنه قائد له أن يصدر الأمر ثم يراقب تنفيذه ، وإنما أراد أن يضرب لجنده المثل فشاركهم فى الحفر وكان يحمل معهم التراب مما حفر جنده فأقبلوا على الحفر حتى تم كله فى ستة أيام .

***

٣ ـــ الشجاعة

(ا) وكانت شجاعة المسلمين وما زلت مثلا للمحاربين ورائداً للعسكريين خلال قتالهم ففى غزوة أحد كان الرسول يمر بين الصفوف يثير الحماسة ويحض على القتال ويعد جنوده بالنصر . . . وحدث أن مد الرسول يده بسيف وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام أبو بكر وعمر والزبير وعلى فأمسكه الرسول عنهم ، ثم أعطاه لأبى دجانة ، فقال أبو دجانة سائلا الرسول « وما حقه يا رسول الله ؟ » قال « أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى » ، وعصب أبو دجانة رأسه بعصابة حمراء وحمل السيف وخرج يمشى مختالا فقال الرسول « إنها مشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

(ب) وفى حصار خيبر خرج قائد يهود بنى خيبر يقول : « لقد علمت خيبر أنى مرحب . . . شاكى السلاح بطل مجرب . . إذا الحروب أقبلت تلهب » فبرز له على ، وهجم عليه مرحب وضربه فطرح ترسه من يده ، فتناول على باباً وجده عند الحصن وتترس به ، وظل يقاتل به حتى فتح عليه الحصن ثم ألقاه وراء ظهره ، وكان طول الباب ثمانين شبراً ولم يستطع سبعون رجلا تحريكه من يده إلا بعد جهد .

(حـ) ولقد سمعت القبائل بشجاعة المسلمين فى قتالهم ، فكانوا يفرون من وجوههم ولا يلقونهم أبداً فى قتال ، كما حدث عندما بعث الرسول بسراياه

إلى بنى سليم وبنى ثعلبة ومحارب وبنى أسد ، وكما حدث فى غزوة السويق ، وغزوة بدر الآخرة ، وغزوة ذات الرقاع ، ودومة الجندل .

وتبدو شجاعة المسلمين فى الاشتباك مع حاملى لواء مكة فى أحد ، فقد برز طلحة بن أبى طلحة ليبارز عليا ، فهاجمه على وضربه وقطع رجله فناشد طلحة علياً « يا بن عم أنشدك الله والرحم » . فامتنع على عن قتله ، حتى أمره الرسول بقتله فامتثل ، وحمل اللواء من بعده عثمان بن أبى طلحة ، فحمل عليه حمزة وقتله ، ثم أخذ اللواء أخوهم سعيد ، فقتله سعد بن أبى وقاص ، ولما حمل اللواء مسافع بن طلحة ، قتله عاصم بن ثابت ، فحمله أخوه الحرث وقتله عاصم أيضاً .

العوامل التى تؤثر على الفرد مجموعاً

أمر القرآن بالجهاد ، وطلب إلى الجميع التضحية فى سبيل الله بكل عزيز ، وأوضح كذلك أجر المجاهدين المقاتلين فى سبيل الله بالنفس والمال ، وذكر أن هذا الأجر لا يقف عند حد ولا يدركه إلا عالم الغيب والشهادة :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

فهم المسلمون هذا وعرفوه وأدركوا أن وعد الله حق . . لهذا حاربوا بروح قوية وعزيمة لا نهاية لها ، وكان رائدهم فى القتال إما الفوز وفى ذلك انتشار لدعوة الإسلام ، وإما الاستشهاد . وكانوا يستهينون بالموت ويتسابقون إليه طمعاً فى الجنة .

بعد أن انتهت غزوة بدر ، استمع المسلمون فى جوف الليل إلى صوت

الرسول يقول « يا أهل القليب ! يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية ابن خلف ، يا أبا جهل بن هشام (واستمر يذكر من فى القليب) يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

واستشهاد أبطال الإسلام الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة فى مؤتة ، من أعظم الأمثلة التى تذكر فى باب الاستشهاد حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال « لقد رفعوا إلى من فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه » ، فلما سأله المسلمون عن السبب قال « مضيا وتردد عبد الله ثم مضى » ، وفهم المسلمون من ذلك أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو أن يخاف الموت فى سبيل الله ، بل يجب أن يحمل حياته على كفه وأن يلقى بها فى وجه من يقف فى سبيله ما دام يجاهد من أجل الله .

وإخلاص المسلمين لدعوة نبيهم ولرسالته بلغ حداً لا مزيد عليه ، فقد امتلأت جوانحهم وقلوبهم بحب الإسلام ، حتى أنهم كانوا لا يترددون فى سبيل هذا الإخلاص فى الإتيان بأعظم الأعمال ولو كلفتهم حياتهم .

ولقد بلغ إخلاص سالم بن عمير حداً جعله يغضب عندما سمع أبا عفك[1] يرسل الأشعار يطعن بها على الرسول ، وعندما سمع عصماء بنت مروان تعيب الإسلام وتحرض على النبى ، فقضى عليهما .

ولما أقبل بعض من أهل هذا وأهل هذه يسألونه « يا عمير أنت قتلتهما ؟ » أجاب « نعم فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، فو الذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قال أو قالت لضربتكم بسيفى حتى أموت أو أقتلكم » .

ونسجل أيضاً موقف عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وكان من المسلمين . إذ علم أن الرسول قرر قتل أبيه ، فذهب إلى الرسول وقال له « يارسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فرنى به ،

---

(1) من بنى عمرو بن عوف .

فأنا أحمل إليك رأسه ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعني أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، وأقتل رجلا مؤمناً بكافر فأدخل النار »

وصورة أخرى من الإخلاص العميق للدعوة المحمدية وللدين الجديد ، نراها فى حديث دار بين الرسول وبين حذيفة بن عتبة . فقد لقيه الرسول كئيباً قد تغير لونه فقال له :

— لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟

فقال أبو حذيفة :

— لا والله يا رسول الله ما شككت فى أبى وفى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف فى أبى رأياً وحلماً وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجوه له أحزننى أمره .

إذن فهذا رجل يتطوع لقتل أبيه لأنه لم يدخل الإسلام ، ولأنه أساء إلى نبيه إساءات بالغة ، وهو يخشى التفرقة والفتنة بين المسلمين إذا قتل أحدهم أباه ، فيضطر هو إلى قتله ، وهو لا يطلب من الرسول العفو عن أبيه ، وإنما يطلب السماح له فيقتله هو . . .

وذاك رجل يحزن حتى يتغير لونه ، لا لأن أباه قد قتل ، ولكن لأنه قتل وهو كافر ، فلم يؤمن برسالة محمد برغم أنه كان ذا رأى وفطنة .

وبلغ من إخلاص العباس عم الرسول ، أنه كان قد أسلم قبل أن يتأهب الرسول لغزو مكة ، ولكنه ظل يكتم إسلامه ، وظل يعيش فى مكة وسط قريش ، حتى يبعث للرسول بأخبار قريش وأمرها واستعداداتها وتحركاتها التى كانت موجهة ضده وضد دعوته .

العوامل التي تؤثر على الأفراد منفردين ومجتمعين

أهم هذه العوامل الثقة المتبادلة بين القائد وجنده . . .

١ — الثقة

توجه أبو الهيثم بن التيهان إلى الرسول قبل البيعة الكبرى وقال له : « يارسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا نحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا » فتبسم الرسول وقال « بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

والثقة المتبادلة بين الرسول وجنده هى التى جعلت الجند يحيطون به ، ويجتمعون حوله وقت الشدة ، فى أحد وفى حنين ، حتى حولوا الهزيمة التى كان المسلمون معرضين لها إلى نصر ساحق .

ولقد كانت ثقة الرسول بربه كبيرة لا حد لها ، ولهذا كان الرسول فى أوقات شدته ، يلجأ إلى ربه ، يطلب العون ، وكانت عناية الله تتدخل فى اللحظات الحاسمة لا لتحمى الرسول وحده ، بل لتحمى الدعوة كلها ، فها هو ذا الرسول فى غزوة بدر الكبرى يرى بعينى رأسه كثرة قريش وقلة رجاله ، وقوة عدتهم ، وضعف عدته ، فيستقبل القبلة ، ويتجه بنفس مطمئنة ، واثقة إلى ربه ، ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى » وأخذ يردد هذا القول مراراً وتكراراً حتى أثار ذلك أبا بكر فصاح « يا نبى الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك » ، وبعد قليل خرج الرسول إلى قومه وقال « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » وسرت هذه الموجة من الثقة الغالية بين الله ورسوله إلى نفس الجنود فضاعفت من ثقتهم وقوت من عزيمتهم وسواعدهم وجعلتهم

يقدمون على القتال بحماسة واطمئنان وثقة من نصر الله، حتى نالوه، وهم موقنون بالآية الكريمة « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ».

٢ — العقيدة

فالعقيدة من العوامل التي تؤثر في الأفراد، منفردين ومجتمعين، وإذا توافرت العقيدة في نفوس أفراد الجيش من القادة، والجنود، فلا بد لهذا الجيش من الفوز والنصر.

والقرآن أمر المسلمين بالجهاد في سبيل الله، ولكن ثبت من حوادث التاريخ أن الانسان لا يسعى إلى جهاد إلا إذا كان يعتقد في صحة وسلامة ما يجاهد من أجله وفي سبيله، وهذه العقيدة هي الرابطة الروحية التي تربط المرء بربه وهي أثمن عند الفرد من المال، والجاه والسلطان، والحياة كلها.

ولقد بلغت العقيدة في نفوس المسلمين منزلة تسمو على صلات الرحم، والقرابة، فكان الرجل منهم — في سبيل الله وفي سبيل الدين — لا يتردد في قتل أبيه أو أخيه أو عمه أو قريبه من المشركين لا تأخذه شفقة أو رحمة.

وها هو ذا أبو بكر يقول لابنه عبد الرحمن، وكان ضمن المشركين في غزوة بدر « والله لو كنت أهدفت لي ماصدفت عنك ».

والعقيدة هي التي تملكت على بن أبي طالب، فجعلته يتحدى قريشاً بأجمعها يوم الصفا إذ نادى النبي في القوم « أيكم يوازرني على هذا الأمر؟ »، فردت عليه قريش ساخرة، وهي تبتعد عنه « لا أحد.. لا أحد.. »، ولكن عليا خرج على أمرها، وتحدى رجالها، وبرز من بينهم يقول وسط هذه الجموع « يا رسول الله أنا عونك، أنا حرب على من حاربت ».

وعندما بعث الرسول بسرية عبد الله بن جحش قال عبد الله لجنده بعد أن قرأ كتاب الرسول « أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره منكم أحداً فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره فليرجع ».

ودفعت العقيدة بجميع جنود سرية عبد الله ، فساروا معه ، ومضوا إلى تنفيذ أمر الرسول ولم يرجع منهم أحد .

والعقيدة هي التي أثارت الراغبين فى الخروج لملاقاة قريش فى أحد ، وكانوا وهم ينادون بالخروج يطمعون فى أحد أمرين إما النصر ، وهذا هو وعد الله لهم ، وإما الهزيمة التي لن تأتى إلا بالاستشهاد ، وهم فى هذه الحالة فائزون بالجنة .

والعقيدة هي التي جعلت سعد بن أبي وقاص يقول « ما حرصت على قتل رجل قط ، حرصى على قتل أخى عتبة حين صنع برسول الله ما صنع » .

وتتجلى العقيدة الراسخة فى صورة من صور موقعة الخندق فقد استطاع عمرو بن عبدود أن يجتاز الخندق فوق فرسه ثم نادى « من يبارز ؟ » ، فخرج له على ، فلما عرفه عمرو قال له « يا بن أخى من أعمامك من هو أشد منك ، فإنى أكره أن أريق دمك ، وإن أباك كان صديقاً لى ووالله ما أحب أن أقتلك » وهاجم على عمراً وتمكن منه وقتله ، وقال للرسول وقد سأله « كيف وجدت نفسك معه ؟ » ، « وجدت أن لو كان أهل المدينة فى جانب ، وأنا فى جانب لقدرت عليهم » .

الباب الرابع

الرسول القائد

(١)

الصفات الشخصية للرسول كفرد

- المظهر العام
- الخلق
- الإيمان
- الثقة بالنفس

القيادة هى المقدرة على معرفة الرجال ، ولو أن الكثيرين يصفونها بأنها الفن فى تملك زمام الغير وتوجيهه نحو هدف معين ، ومهما اختلفت الأقوال فى وصفها ، فهى ولا شك فن يبحث فى الطبيعة البشرية له مبادىء وأصول .

ومما لا شك فيه أن القيادة ليست مقصورة على الناحية العسكرية ، بل تتعداها إلى الكثير من نواحى الحياة ، ولقد اختلف الناس فى ملكة القيادة اختلافا بيناً ، فالبعض يقول إنها تولد مع الأشخاص وأنها لا تكتسب ، والبعض الآخر يقول إنها غريزة من الغرائز موجودة فى سائر الناس على السواء وإن اختلف مقدارها ، ولو أن نابليون كان يرى أن المقدرة على القيادة تأتى بالدراسة والبحث ، وكان ينصح أتباعه دائماً « إذا أردتم أن تتعلموا القيادة فعليكم بدراسة تاريخ الحروب واستزيدوا من دراستها » .

ولقد ثبت بالبرهان القاطع أن القوات تتأثر لدرجة كبيرة بسلوك قائدها وبالمثل التى يضربها لها ، ولهذا يجب أن يكون القائد واسع الاطلاع قوى الإرادة ، شديد الثقة بالنفس ، سريع التصرف ، كما يجب أن يتحلى بصفة إنكار الذات ، أى يجب أن تتوافر لديه الصفات البارزة ، والمواهب التى تساعده على إدراك ما يوده ويرمى إليه ، وذكر السير هاملى هذه الصفات فقال إنها « الشجاعة والنشاط والحزم والمثابرة وقوة التحمل وإنكار الذات والنظام والطاعة » .

وبدراستنا لشخصية الرسول القائد ، يتضح لنا أنه كان يجمع بين هذه الصفات كلها ، ولا شك فى أن الله قد اختاره ليؤدى أعظم وأنبل وأخطر رسالة إلى العالم ، لأنه تعالى رأى فيه الرجل الوحيد الذى يصلح لعظم الرسالة وخطرها ، ووجد فيه من الصفات ما يجعله قائداً كبيراً يحتل أسمى مكانة بين قادة العالم أجمعين .

وعلينا عند دراستنا لشخصية الرسول القائد أن نتعرض لمجموعة الصفات التى امتاز بها والتى تتكون منها شخصيته كفرد ثم كقائد .

الصفات الشخصية للرسول كفرد

١ — المظهر العام

كان الرسول وسيم الطلعة ، ربعة فى الرجال ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ذا شعر رَجِلٍ شديد سواده ، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين ، وواسع العينين أدعجهما تشوب بياضهما فى الجوانب حمرة خفيفة ، تزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك ، مستوى الأنف دقيقه ، مفلج الأسنان ، كث اللحية طويل العنق جميله ، عريض الصدر ، رحب الساحتين ، أزهر اللون ، غليظ الكفين والقدمين ، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام ، مسرع الخطو ثابته ، تبدو على ملامحه دلائل التفكير والتأمل ، ويبدو فى نظرته سلطان الآمر الذى يخضع الناس لأمره .

سأل الحسن بن على هند بن أبى هالة عن أوصاف النبى . فوصف له بدنه ، فكان مما قال « يمشى هوناً ، ذريع المشية[١] إذا مشى كأنما ينحط من صبب[٢] ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام[٣] » .

ووصف على رضى الله عنه الرسول فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شثن الكفين والقدمين[٤] ضخم الكراديس[٥] ، مشرباً وجهه حمرة ، طويل المسرَبة[٦]

(١) واسع الخطو

(٢) يهبط بقوة .

(٣) كتاب فقه السيرة .

(٤) غليظ .

(٥) ألواح الأكتاف .

(٦) الشعر ما بين السرة واللبة .

إذا مشى تكفأ تكفؤاً[1] كأنما ينحط من صبب ، أدعج العينين[2] ، سبط الشعر[3] ، سهل الخدين[4] .

ويقول المرحوم الأستاذ هيكل « إن هذه الصفات كلها جعلت السيدة خديجة تجمع بين حبه والإذعان له برغم أصالة نسبها وكثرة ما لها ، وارتفاع مكانتها بين قومها » .

كان الرسول متواضعاً جم التواضع عظيم الذكاء حسن الإصغاء لا يلوى عن أحد وجهه ولا يكتفى بإلقاء السمع إلى من يحدثه بل يلتفت إليه بكل جسمه .

وكان الرسول قليل الكلام كثير الإنصات ميالا للجد من القول وكان إذا تحدث يقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى ويفتتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه ، وقيل إنه ربما حرك رأسه وعض شفتيه فى أثناء كلامه ، وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء أشد حياء من العذراء ، نضاح المحيا إذا كره شيئاً عرف ذلك من وجهه ، وإذا رضى تهللت أساريره وتبين رضاه .

وكان يضحك حتى تبدو نواجذه فإذا غضب لم يظهر عليه من أثر الغضب إلا نفرة عرق بين حاجبيه ، ذلك أنه كان يكظم غيظه ولا يظهر غضبه لما جبل عليه من سعة الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس والبر والجود وكرم العشرة ، ولما كان عليه من ثبات العزيمة ، وقوة الإرادة ، وشدة البأس ومضاء التصميم وعدم التردد . . .

جاء فى وصف هند بن أبى هالة لمنطق الرسول « كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل

---

(١) يميل إلى الإمام .
(٢) شدة السواد والبياض
(٣) غير ملبد .
(٤) غير مرتفع الوجنتين .

السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، دمثاً ليس بالجافي ولا المهين . . . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، كان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى على أحد منهم بشره » .

كل هذه الصفات اجتمعت في شخصية الرسول الكريم ، فكانت لها آثار كبيرة عظيمة في علاقاته بالناس ، وفي ذلك يقول الأستاذ عباس العقاد « إن النبي كان مثلا نادراً لجمال الرجولة العربية كلها كشأنه في جميع شمائله مستوفياً الصفة من جميع نواحيها ، فرب رجل وسيم غير محبوب ، ورب رجل وسيم غير مهيب ، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء . . . أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس ، فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه وكان نعم المسمى بالمختار » .

وكان الرسول نشطاً قوياً يصرع الرجل القوى ، وكان يركب الفرس عاريا فيروضه على السير ، وكان يداعب من يحب بالمسابقة في العدو . . قالت عائشة « خرجت مع النبي في بعض أسفاره وأنا لم أحمل اللحم فقال للناس « تقدموا » فتقدموا ثم قال « تعالى حتى أسابقك » فسابقته فسبقته فسكت حتى إذا حملت اللحم قال صلى الله عليه وسلم للناس « تقدموا » فتقدموا ثم قال « تعالى أسابقك » فسابقته فسبقنى فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول « هذه بتلك » .

* * *

٢ — الخلق

الخلق أول عناصر الشخصية ، فحسن الخلق عماد الشخصية ، وهو المقدرة على مواجهة الحقائق ، والشخصية التي لا تؤسس على الخلق لن تقود إلى نجاح والرجل الذى لا يستطيع أن يسوس نفسه لن يكون أكثر نجاحا في سياسة غيره .

والرسول كان على خلق عظيم ، أهله للتفوق على أقرانه وأنداده ، والقرآن ـ أصدق سجل لحياة الرسول ـ عبر عن سجاياه فى أفصح تبيان إذ يقول :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[١] »

ولما كان مسلك الرسول فى حياته هو مسلك الحريص المتحفظ فى حذر مما حواليه ، فقد اصطفى خلانه من صفوة رجال شهد لهم الجميع بالخلق الحميد والسجايا الطاهرة والطباع الرفيعة .

ولم يكن الرسول شغوفاً بأن يرى ما يفعله فسّاق قومه من فسق وفجور ولا أن يسمع ذلك ، وقيل إنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ، ألقى الله عليه النوم فى كل منهما ، حتى طلعت الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً .

كان الرسول أميناً ، حتى أنه كان فى عنفوان شبابه ملقبا لدى معاصريه بالصادق الأمين ، لما كان عليه من سلوك سوى وخلق طاهر نقى .

والتاريخ يؤكد صدقه وأمانته ، عندما اختلفت قريش ، أىّ القبائل يكون لها فخر وضع الحجر الأسود فى مكانه بعد إعادة بناء الكعبة . . . فقد استمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه ، وتحالف بنو عبد الدار[٢] وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، فلما رأى أبو أمية ابن المغيرة المخزومى ، ما صار إليه القوم ، وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال لهم « اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا » فلما رأوا محمداً أول من دخل ، قالوا « هذا الأمين ، رضينا حكمه » وأقرت قريش[٣]

---

(١) سورة القلم ٤ .

(٢) جاء بنو عبد الدار بجفنة مملوءة دماً وأدخلوا أيديهم فيه توكيداً لحلفهم ولذلك سموا « لعقة الدم » .

(٣) كان حكم الرسول هو أن أتى بثوب ونشره وأخذ الحجر ووضعه بيده فيه ثم قال « ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب » فحملوه جميعاً الى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ثم تناوله الرسول من الثوب ووضعه فى موضعه .

حكمه، ورضيت به، وهذا دليل على مكانته السامية فى نفوس أهل مكة، وتقدير لما عرف عنه من الصدق، والأمانة، والنزاهة.

ويصف وليم موير William Muir خلق الرسول «تجمع كل مراجعنا وأسانيدنا، فيما ينسب إلى محمد فى شبابه، من سيرة التواضع والاحتشام، وطهارة الخلق، على صورة نادرة الوجود بين المكيين»... ثم يقول «وبما وهب له من عقل راجح، وذوق رقيق، وحرص دقيق، وعمق فى التأمل، عاش منطوياً على نفسه طويلا، متخذاً من تأملاته العقلية دون ريب شاغلا لوقت الفراغ الذى كان يقتله غيره من ذوى الطابع الخسيس باللهو السمج والفجور الماجن والسلوك الخليع، ولقد وقع خلق ذلك الشاب القويم، ومسلكه الورع العف، موقع الحمد والثناء من قلوب قومه جميعاً، وبإجماعهم عن طيب خاطر نال لقب الصادق الأمين».

قيل فى وصف سيرة الرسول عليه صلوات الله وسلامه[1] «كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، ومالا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه.»

لما بلغ أبا بكر أن محمداً صديقه يدعى نزول الوحى عليه من السماء أيد أنه لابد صادق فى دعواه، نرجل لم يكذب على الناس مطلقاً، لا يمكن أن يفترى على الله الكذب، وكان قد نادى فى الأيام الأولى من الرسالة عندما جاءه الأمر — « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[2] » — مختلف بطون قريش من فوق الصفا، فلما التأم الجمع قال مخاطباً إياهم «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا

---

(١) كتاب فقه السيرة.
(٢) سورة الشعراء ٢١٤

تخرج من سفح هذا الجبل لتفاجئكم بهجوم عنيف أما كنتم تصدقون ؟ ، فقالوا جميعاً فى صيحة واحدة « بلى ما جربنا عليك كذباً قط[1] » .

وبعد ذلك والقرشيون متهافتون على الحرب مع النبي ، والعداوة على أشدها دعا هرقل[2] أبا سفيان زعيم المقاومة القرشية ، وكان فى سورية وقتئذ فى تجارة وسأله أسئلة كثيرة عن محمد ، وجاء ضمن هذه الأسئلة « أكنتم تأخذون عليه قول الكذب قبل أن يقول إنه نبي ؟ ، فكان جواب أبى سفيان صريحاً واضحا ، لا لبس فيه ولا غموض ، قال « كلا » .

وكان الرسول لصدقه يصف الصدق ويقول فيه « إن الصدق طريق الفضيلة والفضيلة طريق الجنة ، ولا يزال الرجل ينطق بالحق حتى يصبح صديقا خالصا ، وإن الكذب طريق الفساد ، والفساد طريق النار ، ولايزال الرجل يقول الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ووقف جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى امبراطور الحبشة يصف النبي وتعاليمه فقال « بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ،وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار . »

وعلى الرغم من أن الرسول عاش فى مكة حيث اعتبر أهلها السكر العلنى أمراً عادياً ، فإن شفتيه لم تبللهما قطرة من خمر ، وكان الميسر مبعث الغبطة فى أوساط مكة ، ومع ذلك لم يشارك الرسول قومه فى هذا اللون من اللهو ، وعاشر الرسول قوماً انغمسوا فى الحرب انغماسهم فى الخمر والميسر ، ولكنه ظل حياته فيهم نافراً من الحرب نفوره من الخمر والميسر ، ويقول موير « ومع أنه قد بلغ سن العشرين ، لم ينطبع فى قلبه أثر لحب السلاح ، وعلى الرغم من

---

(1) رواه البخارى .
(2) عاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية .

اشتراكه فى حرب الفجار[1] التى دامت بين هوازن وقريش أربع سنوات ، فإنه لم يعمل أكثر من جمع السهام وإلقائها إلى أعمامه » .

ومن مظاهر خلق الرسول أنه كان يكره الثراء ، ولم يلجأ إلى التجارة سعياً وراء المال ، أو حباً فى الثراء ، ولكن تقديراً منه لعمه أبى طالب ، ويقول فى ذلك موير « لم يولع محمد بالثراء أبداً ، ولم تبد منه فى أية فترة من فترات حياته عناية بطلب المال حباً فى المال ، ولو أنه خلى بينه وبين نفسه لفضل على الأرجح حياته الرتيبة الهادئة الوادعة ، على جلبة الرحلة وضوضاء التجارة وهموم السفر ، ولم يكن محمد يفكر من تلقاء نفسه فى مثل هذه الرحلة ، ولكنه ما أن اقترح عليه ذلك ، حتى استشعرت نفسه الكريمة على الفور ضرورة البذل لما فى وسعه من جهد مساعدة لعمه » .

وبرغم أن الرسول تزوج من خديجة ، وهى على جانب من الثراء ، إلا أنه كان يزهد فى نعمة العيش وهى بين يديه .

وقد ثبت أن الرسول لم يستمتع بدنياه . ولم يشبع ثلاثة أيام تباعاً ، حتى مضى لسبيله ، وقالت عائشة « لقد كنت أبكى رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع ، وأقول « نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقوتك ، فيقول « ياعائشة ، مالى وللدنيا . . إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ماهو أشد من هذا » .

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته فى بيتها ليلة عرسها « فإذا جرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب ، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه » .

ورآه عمر وقد أثر فى جنبه حصير فقال « يا رسول الله ، قد أثر فى جنبك هذا الحصير ، وفارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله » . فاستوى

---

(١) سبق الإشارة إلى هذه الحرب فى الباب الأول .

الرسول جالساً وقال « أفى شاك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طلباتهم فى الحياة الدنيا » .

وتتميز حياة الرسول الخاصة فى فجرها المبكر بخاصة نادرة الوجود فى ذلك الوقت ، وعلى الأخص فى الجزيرة العربية ، وهى الحنو والعطف على اليتيم والفقير والأرامل والبائس والضعيف والرقيق ، فقد كان فى أول شبابه أحد المتقاسمين على نصرة المظلوم ، وأحد الأطراف فى حلف نصرة[1] المظلومين .

ولما تزوج من خديجة وأصبح قادراً على الإنفاق ساعد ذوى العسرة وأهل الضنك والفاقة ، وما دخل عبد داره إلا أعتقه ، ويصفه عمه أبو طالب بأنه « حامى اليتامى والأرامل » ، وقالت له زوجه خديجة حينما جاءته الرسالة « أبشر فلن يخزيك الله أبداً إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر » .

أعتق الرسول زيد بن حارثة ولم يعطه الحرية فقط ، ولم يعطه المساواة فى العيش فقط ، وإنما رفعه إلى المنزلة الاجتماعية للسادة ، فزوجه بسيدة من خير السيدات ، وحفظ الرسول البر الأبوى لابنه أسامة ، فولاه جيش الشام وهو دون العشرين ، وجعل تحت قيادته طائفة من أكابر الصحابة .

وكانت أخلاق الرسول تتميز بالبساطة والإخلاص ، وكان يصر على أن يعمل كل شىء بيديه ، يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، وينظف بيته ، ويتعهد بعيره بنفسه ، ولقد اتخذ الرسول من العمل قوة دافعة ، وخص الكد والكدح فى العمل بالاحترام والتقدير ، ووضع أساس المبدأ القائل « ليس لمن لا يعمل حق فى أن يأمل جنى الثمار ، على حين أن الجزاء الأوفى لا يكون إلا لمن هو عامل كادح » .

---

(١) حلف الفضول وسبق الإشارة إليه فى الباب الأول .

« وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعى ، وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الأَوْفَى »(١) « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وإِنَّا لَهُ كاتِبونَ »(٢) « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ، فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى ، وصَدَّقَ بالْحُسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسرى »(٣) « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ ، لِسَعيِها راضِيَةٌ »(٤) « ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عما يَعْمَلونَ »(٥)

وكان الرسول لا يترفع عن أى عمل لأنه نبي ، فقد اشتغل عاملا فى بناء المسجد ، واشتغل فى حفر الخندق حول المدينة ، وكان يذهب إلى السوق ليشترى بنفسه حاجاته ، وكان يقضى أيضاً حاجات جيرانه وأصدقائه .

وكان الرسول يمتاز بالبساطة والتواضع ، لم يرض أبداً أن يقوم أصحابه له وقوفاً إذا مر بهم ، ونهاهم عن ذلك فى قوله « لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم » ، وشفع ذلك بأنه عبد الله يأكل الطعام كغيره من الناس ، ويقعد مقعد الناس وكان يقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » ، وفى ذات مرة كان مع أصحابه فى الغابة وحل وقت تجهيز الطعام ، واختص كل واحد من الجماعة بطرف من العمل ، فكان نصيبه جمع الوقود .

وكان الرسول يكره أن تقبل يداه مخافة أن تجرى العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع . . عن أبى هريرة قال « دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوازن « زن وأرجح »

(١) سورة النجم ٣٩/٤١
(٢) سورة الأنبياء ٩٤
(٣) سورة الليل ٤/٧
(٤) سورة الغاشية ٨/٩
(٥) سورة الأنعام ١٣٢

فوثب الوازن إلى يد الرسول يقبلها فجذب يده وقال « هذا تفعله الأعاجم بملوكها[1] ولست بملك إنما أنا رجل منكم » ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

وكان الرسول عليه السلام متواضعاً ، يبعد بنفسه عن مظاهر السلطان ، ويأبى أن يعامل كما كان يعامل الحكام والملوك فى عهده . . . حضر عدى الطائى — وكان سيد طيء — مجلس الرسول ذات يوم ، وهو على المسيحية ، وشاهد إعظام الصحابة للرسول ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان ، وتساءل فى نفسه « أهذا ملك من الملوك أم رسول من رسل الله ؟ » وفيما هو كذلك جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، امرأة فقيرة وقالت له « أريد يا رسول الله أن أسرّ إليك شيئاً » . فقال لها « انظرى فى أى سكك المدينة شئت أخلو لك » ثم نهض معها وقضى لها حاجاتها ، فلما رأى عدى هذا التواضع العظيم ، انجلى عنه ظلام الباطل ، وتبين له الحق ، وأيقن أن هذا الأمر من رسالات الله ، فعمد إلى صليبه فنزعه ، ودخل مع أصحاب رسول الله فى نور الإسلام .

وليس للنبي مثيل فى ميدان البر والإحسان ، فإنه لم يرد سائلا خائباً وما زال يطعم الطعام على حبه ، ولم يترك مالا يملكه فى منزله إطلاقاً ، وعندما كان على فراش الموت طلب كل ما عساه أن يكون فى بيته من مال ، ثم فرقه على الفقراء وقال « إذا كنت مديناً لأحد بشيء فليطالب به ، وإذا كنت قد أسأت إلى أحد فليستخلص حقه منى » .

وكان قلب الرسول يذوب رحمة وعطفاً ومودة ، ولا عجب فى ذلك فقد قال تعالى « وما أرْسلناكَ إلا رَحمةً للعالمينَ » وقال الرسول « لا تنزع الرحمة إلا من شقى . . . » كان الرسول محباً للناس ولهذا أحبه الناس ، وكان عطوفاً يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام .

---

(١) وفى رواية أخرى « ذلك فعل الأعاجم مع ملوكهم »

حضنته فى طفولته جارية عجماء ، فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، حتى أنه قال لأصحابه « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن » وبلغ من عطفه أن قال انس « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ولا قال لشىء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته لم تركته ؟ » .

وحدث أن مر بلال بصفية وابنة عم لها ، على قتلى قومها من اليهود بعد انتهاء غزوة خيبر ، فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهى تصيح وتبكى فقال له الرول « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » .

وكان شديد العطف على الحيوان يقول لأصحابه « إذا ركبتم الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين . . اتقوا الله فى البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » .

وقال ما معناه : إن الله غفر لامرأة مرت بكلب يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك » . وقال أيضاً « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

وسأله أصحابه « أيثاب على فعل الخير مع الحيوان ؟ » فقال « فى كل حيوان له كبد جدير بحياة مثوبة » . وسئل الرسول « إن لنا فى البهائم أجراً ؟ » فقال « فى كل كبد رطبة أجر » .

وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ ، ويقوم على تمريض ديك مريض ، ويمسح لجواده بكم قيصه ، وحدث أن ركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة فجعلت تردده ، فقال لها : « عليك بالرفق » .

والوفاء كان من أهم الصفات التى يمتاز بها الرسول . . . كان وفياً لأصحابه

وفاء نادراً ، ومن أمثلة وفائه أن عائشة قالت له مرة « هل كانت إلا عجوزاً[1] بدلك الله خيراً منها[2] ؟ » فقال لها مغضباً « لا والله ما بدلني خيراً منها . . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وأخيراً كان تقويم الخلق أحد الشواغل الأولى التي كرس لها النبي نفسه وجهوده ، وكان الرسول وهو يسعى إلى رفع المستوى الخلقي للإنسان يبدأ دائماً بنفسه ، فجمع من الصفات ما ذكرنا بعضها ، وأصبح هو مثلا أعلى لأصحابه ولقومه وللعالم الذي جاء بعده يأخذون عنه هذه الصفات ويتمثلون به في سلوكه وينسجون على منواله في حياته العامة وحياته الخاصة فكان خير مثل لخير أمة أخرجت للناس .

* * *

٣ — الإيمان

ما سر النجاح الذي أحرزته شخصية الرسول في التاريخ ؟

وكيف تهيأت العقول لهذا التحول الكبير في حياة العرب ؟

وكيف انبعثت حياة قشيبة جادة في نفوس قوم عاشوا في جو من الخرافة والقسوة والرذيلة ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تنحصر في جواب واحد هو قوة الإيمان بالله . . قوة إيمان الرسول بربه وبرسالته وبدعوته .

كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن لله إرادة في أن يرتفع العالم إلى الكمال ، وأن تنقذ الإنسانية المحطمة المنهارة ، وأن تسمو القيم الأخلاقية .

وكانت رسالة خطيرة من السماء ألقيت على عاتق الرسول وكان لابد من الإيمان الكامل بعظمها وبخطورتها وآمن محمد بها .

---

(١) تقصد خديجة .

(٢) تقصد نفسها .

وبدأ هذا الإيمان يوم جاءه الوحى يوحى إليه .

« يَأيُّها المُدَّثِّر قُمْ فأنذِرْ وربَّكَ فكبِّرْ ، وثيابكَ فطهِّرْ ، والرُّجزَ فاهْجُرْ ، ولاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ولِرَبِّكَ فاصْبِرْ »(١).

وأحس محمد بخطورة الرسالة ، ولكن إيمانه كان عميقاً وقوياً وشديداً فذهب إلى زوجه خديجة وقال لها « انقضى ياخديجة عهد النوم والراحة فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى عبادة الله » .

وبدأ محمد يدعو إلى دينه الجديد وثارت قريش ، فهذا دين جديد يقوم على أنقاض دينها ودين آبائها وهو أمر غير مرغوب لديهم . . . ولهذا ثارت قريش وبدأت فى معارضته وتسفيه دعوته فلما لم يرجع نعتوه بالجنون وهزئوا به ولكنه ظل يدعو إلى دينه الجديد .

ولما استجاب له البعض ثارت قريش ، فعذبته وعذبت معه أصحابه ، ولكنه صمد وهم من ورائه صامدون .

وتطورت وسائل المعارضة إلى هــذا كله : تعذيب وإهانات وغضب ووحشية وقسوة . ولكن إيمان محمد خفف أثر ذلك عليه ، فظل يعانى وأصحابه غضب قريش فى صبر وجلد .

واضطر إلى السماح لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة قائلا لهم(٢) « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم إلى جواره أحد حتى يجعل الله مخرجاً مما أنتم فيه » .

كان إيمان الرسول عميقاً . . كان يؤمن بأن الشدائد سوف تنقشع ، ولهذا صمد فى وجه قريش يعذبونه فلا يترك دينه ولا يرجع عن الدعوة التى كلفها .

توعدوه بالقتل واجتمعوا لتنفيذ ذلك وذهب وفد منهم إلى أبى طالب

---

(١) سورة المدثر ١ ــ ٧ .

(٢) فى روايه أخرى « هناك أرض لا يظلم فيها أحد وهى أرض صدق فامكثوا فيها حتى يجعل الله لكم مخرجاً من كربكم »

يهدده ويتوعده إن لم يرجع ابن أخيه عما يدعو إليه ، واعترف له أبو طالب بأن لا طاقة له بمقاومة قريش مجتمعة «أبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق» ، وكان رد الرسول فيه إيمان ثابت زعزع تهديد قريش وأضاع آثاره فى نفس أبى طالب «والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» . ولم يجد أبو طالب إزاء هذا الإيمان الفريد إلا أن يقول لابن أخيه «إذهب يابن أخى فقل ما أحببت فوالله ما أسلمك لشىء تكرهه أبداً» .

ولما خاب أمل قريش فى أبى طالب أن يخلى بينهم وبين الرسول ، لجئوا إلى الإغراء عله ينفع حيث فشل التهديد ، فاتصلوا بالرسول وعرضوا عليه عروضاً مغرية .. عرضوا عليه المال والملك وهو رجل فقير، ولكنهم فوجئوا به يرفض المال ويأبى الملك ويقول لهم «ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئت به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم» .

وازدادت المقاومة عنفا .

ولجأ الرسول إلى القرآن يستمد منه القوة الدافعة والإيمان الراسخ :

«لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»[1] .

وكان القرآن أهم باعث للإيمان عند الرسول ، ونزلت آياته تخفف عنه ما يلاقيه وأصحابه من قريش وحلفائها ووعده الله فى كتابه بالنصر والفوز :

«واصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ . وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ، وَذَرْنِي

(١) سورة الحشر ٢١

وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً »[1]. « وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ، فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ، فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ »[2].

وكان إيمان الرسول قوياً فى انتصاره وانهزام أعدائه ، وفى انهيار المقاومة لرسالته ، وفى فشل المحاولات لتقويض الدين الذى يدعو إليه :

« كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ ، أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »[3].

وفى بدر التقى الرسول على رأس ثلثمائة من رجاله بجيش كبير العدد كثير العدة قوامه ألف مدججون بالسلاح فصمد وقاتل ونازل بدافع من إيمانه العميق الذى وضح فى مناجاته ربه : « اللهم أسألك كما وعدتنى . . . اللهم إن تهلك هذه الفئة فإنك لن تعبد بعدها . . . يا حى يا قيوم تداركنا برحمتك » .

ثم خرج إلى المعركة ممتلىء النفس بالإيمان بأن الله منجز له وعده .

ويوم زحفت جموع قريش إلى المدينة تبغى الثأر من بدر كان إيمان الرسول مطلقاً من كل قيد . . . كان مؤمناً بأنه مبعوث للإنسانية جمعاء ، وأن نجاح رسالته لمصلحة الإنسانية أمر مفروغ منه ، وكان مؤمناً بأن دينه الجديد الذى يدعو إليه سيرتفع لواؤه فى بلاد العرب بل وفى أبعد من بلاد العرب وبهذا الإيمان وحده انتصر فى أحد .

---

(١) سورة المزمل ١٠/١١

(٢) سورة المدثر ١٠

(٣) سورة القمر ٤٢/٤٦

لقد وقف الرسول فى أحد ، ومن خلفه أصحابه فى صفوف ، وقال مناشداً ربه : « اللهم لك الحمد كله . اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لمن منعت ، ولا مانع لمن اعطيت ، ولا مقرب لما أبعدت ، ولا مبعد لما قربت . . . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . . . اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . . . اللهم إنى أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، وشر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان ، وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، واجعلنا من الراشدين » . . .

وإذا كان الإيمان العميق هو السبب فى نجاح الرسول فى غزوتى بدر وأحد ، فهو أيضاً مرجع النصر فى غزوة الخندق ، وهو مبعث القوة فى يوم الفتح ، وهو سبيل العزة أمام المشركين أجمعين .

وبذل الرسول الجهد فى سبيل غرس الإيمان بالله فى أغوار قلوب الناس من حوله ، ولهذا أخذ يعلمهم أن الله هو خالق كل شيء ، وأنه رب كل شيء ، هو الظاهر ، هو الواحد القدوس ، هو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، هو الرحمن الرحيم ، الودود الشفيق ، الغفور العاطى ، المنان المنعم ، الوهاب سميع الدعاء ، المحب للخير المبغض للشر .

وعن طريق هذا كله سار الإيمان إلى قلوب رجاله ، وتغلغل فى أعماق قلوبهم ، وامتلأت أفئدتهم بهذا الإيمان الفياض ، وأصبح الله للمسلم لب الحقيقة فى حياة البشر ، ومن ثم يكون اتجاه الإنسان إلى الله يتلمس منه المعونة والهداية .

وبلغ من إيمانه وأصحابه بالله أنهم كانوا يلجئون إليه وقت الشدة ويضرعون إليه ويرجون منه الهداية والعون : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى » .

ولقن الإيمان الرسول وصحبه أن يتوكلوا على الله فى كل الظروف والأحوال حتى لا يتطرق إلى أنفسهم اليأس عند الشدة أو الفشل :

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً »(١) « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً »(٢).

وأدرك الرسول وصحبه أن الله ناصرهم على أعدائهم :

« اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »(٣) ، « وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً »(٤)

وطبع الرسول على قلوب أصحابه الإيمان بالله . فها هم المسلمون الأوائل يقضون نهارهم فى أعمالهم ، ثم ينطلق الدعاء للصلاة ، فيتركون أعمالهم ويسرعون إلى المسجد ، يحنون الرءوس بين يدى الله وقوفاً جنباً إلى جنب ، لا فرق بين سيد وخادم ، أو أمير وصغير ، أو غنى وفقير ، وأصبح الخضوع لله نتيجة الإيمان العميق هو الأساس للحياة فى الإسلام .

ومن صور الإيمان العميق هذا القول الذى توجه به خيثم أبو سعد إلى رسول الله « لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت حريصاً عليها ، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول « الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً » . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ، ورقت عظمى ، وأحببت لقاء ربى » .

---

(١) سورة الفرقان ٥٨
(٢) سورة الطلاق ٣
(٣) سورة البقرة ٢٥٧
(٤) سورة النساء ٤٥

وتحمل بلال العذاب الشديد الذى أوقعه به أمية بن خلف وكان مبعثه إيمان بلال العميق بالله وبمحمد وبرسالته وبالدين الجديد .

وهذه صورة للإيمان العميق الذى ملأ قلب أبى بكر الصديق ، فإنه رضى الله عنه كان قد اتخذ له مسجداً بفناء داره ، وأخذ القوم ينسلون إلى بيته لسماع القرآن ، فنهاه المشركون عن ذلك واضطروه إلى أن يهاجر ، فهاجر ولقى فى طريقه ابن الدغنة - سيد قومه - فسأله عن سبب هجرته ، فأخبره بالأمر فأجاره وأعاده إلى مكة فى حمايته ، وطلبت قريش منه أن يأمر أبا بكر فيعبد ربه فى داره ، وحدث أن ابتنى أبو بكر مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن . فكان يأتيه القوم ، وأفزع ذلك المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة وقالوا « إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه فى داره ، وقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً فى فناء داره وأعلن الصلاة والقراءة فيه . وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك(١) ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان » ، وذهب ابن الدغنة إلى أبى بكر وقال « قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له » ، فقال له أبو بكر « فإنى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل »

والإيمان هو الذى دفع بعمر إلى أن يدخل فى الإسلام ، ولم يشأ أن يكون إسلامه خافياً عن الناس ، بل أعلن إسلامه على الجميع دون خوف أو تردد وأنى له الخوف والتردد وقد أسلم عن إيمان عميق .

وفى إسلام خالد صورة حية للإيمان الذى دخل قلبه وملأ فؤاده . فقد وقف وسط جموع من قريش وأعلن بينها « لقد استبان لكل ذى عقل أن

---

(١) اخفره أى نقض عهده وأبطله

محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه ، وجاء عكرمة بن أبي جهل فزعا :

عكرمة — هل صبأت يا خالد ؟

خالد — لم أصبأ ولكنى أسلمت .

عكرمة — والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت .

خالد — ولم ؟

عكرمة — لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله لا أسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد . . أما رأيت قريشاً يريدون قتله ؟

خالد — هذا أمر الجاهلية وحميتها ، والله أسلمت حين تبين لى الحق .

لقد كان إيمان الرسول بربه وبرسالته ، من أهم مظاهر الشخصية عند الرسول ، وانتقل هذا الإيمان من الرسول إلى رجاله وأصحابه .

وبهذا الإيمان وحده قضى على الباطل فى كل بلاد العرب المترامية الأطراف .

* * *

٤ — الثقة بالنفس

من أهم عناصر تكوين الشخصية القوية الثقة بالنفس ، والاعتماد عليها ومتى وجدت الثقة بالنفس ، فمن السهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن ، وفى التغلب على مصاعب الحياة .

وتتولد الثقة نتيجة لعلم الفرد ومعرفته ومقدرته ، والشخص الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور ، الواثق بقوله وفعله ، يستطيع أن يقف وحده يؤيد رأيه ويدافع عنه ، ويبرهن على سداده وصوابه .

وثقة الرسول بنفسه كانت على درجة كبيرة . . فالرسول هذبه الله فأحسن تهذيبه وتأديبه ، وعلمه الحكمة والقول السديد ، وآتاه من العلم الكثير .

وثقته بنفسه بعيدة كل البعد عن الغرور . فهو برغم كونه نبياً مرسلا إلا أنه كان يردد دائماً « إنما أنا بشر » ، « لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً » ، « أنا عبد الله » ، وهذه الترديدات التى كان يسمعها المسلمون الأوائل من الرسول الكريم ، تثبت بل وتؤكد أن ثقته بنفسه كانت لا تحتمل الغرور .

ولا يختلف اثنان فى أن الرسول كان يثق فى قوله وفعله ، ولهذا صمد فى دعوته برغم ما لاقاه من صعاب ومتاعب وأذى . . صمد لأنه كان يثق فى أن ما يقوله حق ، وأن ما يدعو إليه يتعلق بسلامة الإنسانية ورقيها والارتفاع بمستوى البشر .

ومما يؤكد هذه الثقة أنه صلى الله عليه وسلم عندما تم له الفتح وأقبل عليه الناس بروح وشغف ورغبة ، حتى أن المشركين الذين كانوا حتى اللحظات الأخيرة باقين على دينهم ، دخلوا فى الإسلام ، وطلقوا عبادة الأوثان ، وألقوا وراء ظهورهم بعاداتهم وتقاليدهم التى كانوا عليها فى الجاهلية ، وظهر فى الجزيرة العربية وعى جديد نظيف ، قام على احترام رغبات الناس وحرياتهم ، وكان أساس هذا الوعى الحرية والإخاء والمساواة والعدل ، وعبادة الله من دون الأصنام ، وتهذيب النفوس والسعى وراء الرزق الحلال ، وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والاعتراف بأن الدين هو الإسلام ، وأن العبادة مقصورة على الله ، وأنه لا إله إلا هو وأن محمداً رسوله ونبيه .

ترى لو أن النبى لم يكن يثق فى نفسه . . هل كان فى استطاعته أن يواجه هذه الحملات العنيفة التى أثارتها قريش ضده ؟ وهل كان يستطيع وهو فرد أعزل أن ينادى بدين جديد ، يسفه به دين آبائه وأجداده ، وأن يستمر فى دعوته فيجمع حوله الناس فرداً وراء آخر ، وهو صابر على دعوته ، يجد فى سبيل تنفيذها وتحقيقها ؟

إن ثقة الرسول بنفسه هى التى دفعته إلى أن يحتمى وأهله وأصحابه فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، يعانون الحرمان ألواناً ولا يجدون فى بعض

الأحايين وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم حينما تعاقدت قريش فى الصحيفة على مقاطعتهم .

ولم يكن يتاح للرسول أن يختلط بالناس إلا فى الأشهر الحرم حين يفد العرب إلى مكة حاجين ، وحين تضع الخصومات أوزارها ، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام . . فى هذه الأشهر كانت ثقة محمد بنفسه تدفعه إلى أن ينزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم بعذابه . . وكان ما أصابه شفيعه عند كثيرين فأقبلوا على دعوته مؤيدين .

وخرج محمد بدافع من ثقته بنفسه إلى الطائف وحيداً لا يعلم بأمره أحد يلتمس من ثقيف النصر والمنعة بهم ويدعوهم إلى الإسلام ولكنه رجع من عندهم بشر جواب إذ اغروا سفهاءهم ان يسبوه ، وخاطب الرسول ربه قائلا « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى . . إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى . . . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك . . »

إن هجرة الرسول من مكة إلى المدينة خير دليل على ثقته بنفسه ، فلو أنه كان ضعيف الثقة فى نفسه لأوقفه عذاب قريش عند حد قبول إغراءاتهم ولكنه ضرب بهذه الإغراءات عرض الحائط واندفع ينفذ رسالة ربه ، حتى إذا ما عجز عن البقاء فى مكة فى بيته ووسط أهله ترك مكة بأجمعها للمشركين وغادرها ليلة ائتمروا على قتله ورحل إلى المدينة وبقى هناك يناوىء قريشاً ويدعو إلى دينه الجديد فدخلت القبائل العربية فى دينه واعترفت بالإسلام فزاد قوة على قوته وارتفع رصيد رجاله من المؤمنين الأشداء وكانت له جولات وغزوات ونجح فى أن يعود إلى مكة معززاً مكرماً .

ولولا ثقة الرسول بنفسه ما خرج على رأس جيوشه يعزز دين الله فى أرض العروبة ويحارب المشركين فى كل مكان ليهدم دينهم وليقوض دعائم دياناتهم وليقيم على أنقاضها دينه الجديد ورسالته الكريمة ودعواه بأنه لا إله إلا الله وأنه هو رسول الله .

حارب المشركين من أهل مكة تحت تأثير ثقته بنفسه ، وكذلك حارب اليهود من أهل المدينة وحنين والطائف وكان له بفضل هذه الثقة النصر المبين على أعداء الدين وتحقق له النصر الكريم الذى وعده به ربه وانتشر الإسلام فى ربوع الجزيرة يوم صدر الأمر الكريم

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً » .

وكانت ثقته بنفسه هى الدافع لقبوله صلح الحديبية . حينما خرج مع رجاله قاصداً مكة للزيارة ، فقد كان المسلمون المهاجرون يتحرقون شوقاً إلى زيارة المسجد الحرام ، وأنبأهم الرسول يوماً أنهم سيدخلون المسجد آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ، وأذن الرسول فى الناس بالحج وخرج ومعه المسلمون من المهاجرين والأنصار ومعه أيضاً بعض العرب وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا . . . ولما علمت قريش امتلأت نفسها خوفاً وظنوا أنه يحتال بفكرة زيارة المسجد على دخول مكة فقررت أن تقابله بالقوة . . . ودارت بين الفريقين مباحثات ... فهذا مبعوث قريش الحليس سيد الأحابيش وهذا عروة بن مسعود كلاهما ينبىء قريشا بأن محمداً جاء زائراً وليس بمحارب وهذه بعثة محمد إلى قريش ممثلة فى عثمان بن عفان تنقل إليهم رغبة المسلمين فى الزيارة ثم العودة إلى المدينة .

وانتهت المباحثات بمباحثات سهيل بن عمرو مبعوث قريش إلى محمد فقد اتفق معه على أن يعود عامه هذا على أن يأتى فى العام القادم ، وتم بين الجانبين صلح الحديبية الذى تهادن فيه الطرفان عشر سنين ، والذى اتفقا فيه على أن

من يأتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب من العرب أن يحالف محمداً فلا جناح عليه ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه .

ولولا ثقة الرسول بنفسه ما نال هذا النصر الكبير والفتح المبين بصلح الحديبية ، فقد أثبتت الأيام أن هذا الصلح كان حكمة سياسية وبعد نظر لها أثر كبير فى مستقبل الإسلام بل وفى مستقبل العرب جميعاً ، لأن قريشا بهذا الصلح قد اعترفت :

أولا — بقيام الدولة الإسلامية .

ثانياً — بحق المسلمين فى زيارة البيت .

ثالثاً — بحق المسلمين فى إقامة شعائر الحج .

كما أنها جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية مكة ولا يخشون غارة قريش كما أنها أعطتهم الفرصة لمعالجة الأمر مع القبائل العربية الأخرى فبعث الرسول بالرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدين الجديد . هذا فوق معالجة شئون اليهود وكسر شوكتهم .

وتبلغ ثقة محمد بنفسه منتهاها عند ما دعا المسلمين جميعاً إلى الاستعداد لغزو مكة : ولقد بلغت ثقته بنفسه حداً كبيراً حتى أنه قرر عند ما تم استعداده لغزو مكة أن يكون الغزو سلمياً دون إراقة دماء ودون أى اشتباكات ، وكانت أوامره صريحة إلى قادته وإلى جنده فقد نصت على عدم الاشتباك إلا إذا اضطروا إلى ذلك اضطراراً لا مفر معه من استخدام القوة .

ولا شك فى أن الرسول عند تحركه مع قواته من المدينة إلى مكة كان يثق بهذه الخطوة ثقة كاملة ، وكان يعترف بينه وبين نفسه أنه متجه إلى أعظم الخطوات فى تاريخ دعوته ، وأنه إذا تم له فتح مكة فقد تم له أداء رسالته وتحقيق دعوته . . . وتجمعت قوات محمد أمام مكة وتمكن من دخولها كما حدثته نفسه تماماً دون قتال إلا فى جبهة خالد ، ودون سفك الدماء إلا ما سفك فى جبهة خالد .

وانتقلت هذه الثقة بالنفس من الرسول إلى رجاله فأصبحوا جميعاً لا يقلون ثقة بأنفسهم عن نبيهم وقائدهم محمد بن عبد الله . . .

ومواقف أبطال الإسلام وجنوده مليئة بمظاهر البطولة والفداء ، هذه المظاهر التى ظهرت ووضحت نتيجة لثقة هؤلاء الأبطال والجنود بأنفسهم ثقة دفعت بهم إلى مكان الصدارة فى مجال الحرب والنزال ، وجعلتهم يأخذون مكانهم فى التاريخ العسكرى بين القادة والجنود ، مكاناً يليق بما أدوه فى تاريخ البشرية من دور هام كبير وخطير .

الرسول القائد

(٢)

الصفات الشخصية للرسول كقائد

- سعة الاطلاع
- قوة الارادة
- التدين
- سأنجح
- الشجاعة والمثابرة
- الاهتمام بالجند
- مواجهة الحقائق
- المقدرة البلاغية
- السياسة
- صفات أخرى

ذكر السير هاملي الصفات الشخصية اللازمة للقائد فقال إنها «الشجاعة والنشاط والحزم والمثابرة وقوة التحمل وإنكار الذات والنظام والطاعة»

وذكر مؤرخ عسكرى آخر هذه الصفات فقال عن القائد إنه يجب أن يكون ممن يعتمد عليه كل الاعتماد ، وأن يكون ذا كفاية ، وعلى استقامة لا تشوبها شائبة ، منصفاً كل الإنصاف ، واسع الصدر ، كريماً قادراً على أن يقدر كل شيء .

هذه الصفات وبجانبها صفات أخرى قليلة لو توافرت فى فرد واحد ، خلقت منه قائداً يحتل مكاناً ممتازاً بين جميع القادة باختلاف عصورهم وأزمانهم .

ولن أكون مجافياً الواقع إذا قلت إن الرسول الكريم جمع هذه الصفات كلها ، ولهذا فلا عجب إذا قلنا إن الرسول هو أعظم قائد عسكرى ظهر إلى اليوم .

***

١ — سعة الاطلاع

سعة الاطلاع تأتى من السفر والارتحال .. والتاريخ يحدثنا أن الرسول الكريم اشتغل بالتجارة فى أول حياته ، لقد أراد أبو طالب أن يخرج للتجارة إلى الشام حين كان محمد فى الثانية عشرة من عمره ، ولم يفكر أبو طالب فى استصحابه خوفاً عليه من وعثاء السفر واجتياز الصحراء ، ولكن محمداً أبدى رغبة صادقة فى مصاحبة عمه ، ووافق أبو طالب وصحبه معه ، وفى هذه الرحلة وقعت عينا محمد على فسحة الصحراء وتعلقتا بالنجوم ، وجعل يمر بمدين ووادى القرى وديار ثمود ، واستمعت أذناه إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المناطق وأخبارها وماضيها .. وعرف أيضاً فى الشام أخبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الوقيعة بينهم .

وكان الرسول يخرج مع أهله إلى الأسواق المجاورة بعكاظ ومجنة وذى المجاز يستمع لإنشاد أصحاب المذهبات والمعلقات وتلتهم أذناه بلاغتهم فى الغزل والمدح والفخر والوصف ، ويستمع إلى الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يتحدثون عن كتب عيسى وموسى يدعون العرب إلى دياناتهم .

وعند ما خرج الرسول بتجارة خديجة إلى الشام اتصل بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأخبارها وتحدث إليه راهب نسطورى وسمع منه ، كما حدثت مجادلات كثيرة بينه صلى الله عليه وسلم وبين الرهبان فى دين عيسى .

بدأ الرسول أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الله اصطفاه من بين الخلق جميعاً ليكل إليه مهمة من أخطر المهام ، ورسالة من أعظم الرسالات ، ودعوة غيرت من تاريخ البشرية وقلبت نظم الحياة .

وخطا الرسول أول خطواته فى ميدان العلم حين بدأ يفكر فيما غرق الناس فيه إلى الأذقان من ضلال وشرك . . .

فقد رأى قومه يعبدون الأصنام ، ويقدمون لهـا القرابين والهدايا ويستأذنونها فى رحلاتهم وأعمالهم

وهاله أن يتسابق الناس إلى الأصنام يطلبون الرحمة ويلتمسون العون ، فبدأ يفكر ، وكان كثير التفكير , طويل التأمل ، قبل التحدث إلى غيره بما يجيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله . . .

وخطا الرسول أول خطواته نحو معرفة أسرار الكون ونحو البحث عن خالق الكون ومبتدعه ومنظمه ، فلجأ إلى غار حراء يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد ، وكان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى كان ينسى نفسه وينسى كل ما فى الحياة . . .

كان يبحث عن الحقيقة الكبرى للكون ، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سره . .

كان لا يؤمن بالأصنام التى يعبدها أهله وقومه فهو يراها أصناماً لا تنفع ولا تضر ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه .

أدب الله رسوله فأحسن تأديبه ، واتجه الرسول بقلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة .. اتجه إلى الله بكل قلبه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيه الضلال .

وبينما الرسول يوما نائما فى الغار جاءه ملك وفى يده صحيفة فقال له « اقرأ » فأجابه مأخوذاً « ما أقرأ » فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له « اقرأ » وبعد مرات يقول له الملك :

«اقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذى عَلَّمَ بِالْقلمِ ، عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1]

***

٢ — قوة الإرادة

كان الرسول قوى الإرادة . .

وحياة الرسول كلها أدلة واضحة لقوة إرادته .

وقصة النبوة تحمل بين سطورها الكثير من آيات الإرادة القوية والعزيمة الأكيدة .

ألا تعد هذه المدة التى كان الرسول يقضيها فى حراء كل عام ومداومته على قضاء هذه المدة فى الغار من باب قوة الإرادة . . . يذهب إلى الغار يفكر ويتأمل حتى ينسى فى غمرة تفكيره وتأمله نفسه والحياة من حوله .

وتمسكه بدعوته عندما ثارت عليه قريش وحاربه رجالها وسادتها ألا يعد دليلا على قوة الإرادة ؟ . كم آذته قريش وعذبته وحاربته وقاومت

---

(١) سورة العلق ١/٥

دعوته، واشتدت فى تعذيبها لرجاله واضطهدت فى عنف أصحابه، ثم عقدت الصحيفة لتقضى بها عليه وعلى المؤمنين بدعوته حتى اضطرته إلى أن يأمر رجاله بالهجرة تاركين أوطانهم وأولادهم وقبائلهم، ألم تبذل جهوداً ضخمة جبارة لمحاربته وللقضاء عليه لخروجه — من وجهة نظرها — عليها وعلى دينها ودين آبائها؟ ألم تهدده وتهدد أهله وأعمامه؟ ألم تتهكم به وبدعوته وتسخر منه وممن اتبعه؟ ألم تترك شعراءها يهجونه ويهاجمونه ويسفهون آراءه؟ ألم تنله بالأذى والسوء والعذاب؟ ألم تشرده وأصحابه بعيداً عن أوطانهم وأنذرتهم بالشر والويل يوم اتجهت إلى الحرب كوسيلة للقضاء عليه؟ ألم تصبه فى تجارته وتجارة أصحابه وأرزاقهم؟ ألم تحاول أكثر من مرة أن تقتله؟[1].

ترى ماذا كان موقف محمد إزاء هذا كله؟.

هل ضعف تمسكه بدعوته؟

هل خاف على نفسه فوهنت إرادته وضعفت عنده الرغبة فى الدعوة؟

لا شك فى أن صموده أمام هذه التيارات أكبر دليل على قوة إرادته وتصميمه على أن يحقق رسالته، وليذهب كل ما يتعرض له أدراج الرياح.

وعندما نذكر موقف قريش من دعوته نذكر أيضاً موقف اليهود منه.

ألم يفكر اليهود مرات فى الانقضاض عليه بقصد تعطيل دعوته وإزالته من الوجود؟ ألم يسعوا للوقيعة بين المسلمين يوم أرسل شاس بن قيس فتى من اليهود وأمره أن يجلس بين الأوس والخزرج، ثم يذكر يوم بُعاث وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج وذهب الغلام وتكلم، فذكر القوم هذا اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض «إن شئتم عدنا إلى مثلها» وبلغ الأمر الرسول فخرج إليهم وذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم

---

(١) كان الرسول يصلى مرة فى حجر الكعبة فأقبل عقبة بن أبى معيط ووضع ثوبه فى عنق الرسول فخنقه خنقاً شديداً وأسرع أبو بكر فدفعه بعيداً عنه وهو يقول «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»

إخواناً متحابين ، وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً .

ألم يحاول اليهود التفرقة بين المهاجرين والأنصار ؟ .

ألم يحاولوا فتنة الرسول يوم ذهب أحبارهم وأشرافهم إلى الرسول وقالوا له « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك » ونزل يومها قوله تعالى :

« وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ »(١).

ألم يسعوا لجلاء الرسول عن المدينة كما أجلته قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الأنبياء ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس ، وكان به مُقامهم وأنه إن كان حقاً رسولا ، فجدير أن يصنع صنيعهم وأن يذهب إلى هناك ، وفى ذلك قال تعالى :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »(٢).

ألمْ يعملوا على تغيير قبلته ليترك المسجد الحرام وليرجع إلى قبلته الأولى فنزل قوله تعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَكَذَلِكَ

---

(١) سورة المائدة ٤٩

(٢) سورة البقرة ١٤٤

جَعلنا كُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيكونَ الرسولُ عَليكُمْ شهيداً ، وماَ جَعلنا الْقِبْلَةَ الَّتى كُنْتَ عَليها إلَّا لنَعْلَمَ مَنْ يتَّبع الرَّسولَ مِمَّنْ يَنقلبُ عَلَى عقبيهِ وَإنْ كانَتْ لَكَبِيرةً إلَّا عَلَى الَّذين هَدَى اللهُ وماَ كَانَ اللهُ لِيُضيعَ إيمانَكُمْ إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرءوفٌ رَحِيمٌ »[1].

ألم يفكر اليهود فى قتل محمد يوم أرفدوا من يلقى فوقه حجراً ، فأوحى إليه أن يترك مكانه ، وأن يبتعد عن موطن الخطر ؟.

هذه كلها محاولات اليهود . .

وسبقتها محاولات قريش .

والرسول صامد لهذه ولتلك .

وكان صموده مثلا أعلى لقوة الإرادة التى لمسها فيه جنوده فأخذوها عنه واتصفوا بها . . فقد صمدوا أيضاً كما صمد نبيهم أمام قريش وتحملوا العذاب والقسوة . . وكيف ننسى ما قاساه آل ياسر الذين سقطت منهم أول شهيدة فى الإسلام ؟ . وكيف ننسى ما صنعه أمية بن خلف مع عبده بلال إذ ألقاه على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لأنه رفض أن يرجع عن الإسلام ؟

لقد ساعدت قوة الإرادة آل ياسر وبلالا على تحملهم فى صبر وجلد هذا العذاب الشديد القاسى وكانوا يرددون فى قوة وإيمان وعزم وتصميم « أحد . . أحد » .

***

(١) سورة البقرة ١٤٢ — ١٤٣

٣ — التدين

مما لا شك فيه أن الدين يقوم بدور كبير فى تكوين القائد ، وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان .

ويقول باسليك — وهو ضابط محارب — فى كتابه «أحاديث القيادة» : «الواقع أن تاريخنا العسكرى يقول إن كل قوادنا العظام فى الميدان كانوا أتقى الرجال وأسماهم تديناً .»

والمحارب المطبوع على التدين الذى يتقى الله ، يجلب إلى عمله شيئاً لا يملكه الآخرون . . إنه يجلب الإيمان ، وهذه الصفة بمفردها لا حد لأثرها وقيمتها ، لأن الإيمان وحده ينجز المستحيل ، والإيمان يقول دائماً إنه يستطيع وكان الإيمان صادقا ، فقد تسلقت القوة العسكرية صخرة مهلكة فى صمت تام فى حلكة الظلام فأزال الإيمان جبلا آخر »

وماذا عسانا نقول عن الرسول والتدين ، وهو صاحب رسالة دينية ، بل هو صاحب دعوة هى أعظم الدعوات فى تاريخ البشرية ، وصاحب ثورة دينية ظهرت فى جزيرة العرب حيث عبد الناس الأصنام ، وعاشوا فى الظلام فقلب أوضاعهم ، وهدم أصنامهم ، وقادهم إلى النور ، ونبههم إلى ما هم فيه من ضلالة وغى ، وحارب فيهم الوثنية والشرك والضلال والفساد والأهواء الضالة والأوهام الضارة والشهوات الجامحة والخرافات الكاذبة والتقاليد البالية ، ودعا إلى التوحيد المطلق ، وقرر مبادىء العدالة والحرية والمساواة والاتحاد ، وأثار فى قومه يقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، والتقدير للعهود والحرمات ، وارتفع بهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، وحارب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، ودعا الى الأخوة الإنسانية والزمالة البشرية ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله ، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله .

وماذا عسانا نقول عن الرسول والتدين ، وقد خرج وهو فى الأربعين إلى غار حراء يتحنث ويتعبد ويفكر فى الكون وأسراره ، ولا يقبل حديث

قومه عن الأصنام وينفر من عبادتهم لها ، ولا يميل إلى أحاديث اليهود ، بل كان يتجه إلى الله وكان فى توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ويطيل الصوم . . لقد كان الله يهيىء — فى فترة العبادة هذه — الرسول لليوم العظيم يوم نزول الوحى ، ويعده للبعث وللرسالة .

وماذا عسانا نقول عن الرسول والتدين ، وقد ذهبت زوجه خديجه إلى ورقة بن نوفل تحدثه عن محمد ، وتقص عليه ما حدث له وهو فى تعبده ، فقال لها « قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولى له فليثبت » .

والتقى ورقة يوماً بالرسول فى أثناء طوافه بالكعبة فقال له « والذى نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

ومما لا شك فيه أن الجنود يثقون فى القائد المتدين ، ويأخذون عنه تمسكه بالدين ، ويتمسكون هم بدورهم بالناحية الدينية ويكون لهم منها نصيب كبير .

وجنود الرسول بدءوا قلة تعد على الأصابع ، هم على وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير ابن العوام وأبو عبيدة بن الجراح .

هؤلاء هم جنود محمد الأوائل ، آمنوا به وبالرسالة التى جاء بها فأعلنوا إسلامهم وأصبحوا أول جنوده .

هؤلاء دخلوا الإسلام عن فهم وإدراك وإيمان ، وتمكن الدين الجديد منهم فجعل منهم نواة طيبة لجيش العروبة الذى غزا بلاد العرب ، ثم امتدت غزواته من بعد إلى بلاد الفرس وبلاد الروم .

ما كان هؤلاء لينجحوا لولا تدينهم العميق وإدراكهم الكامل لأصول دينهم ومعرفتهم الواثقة بكل وقائعه وأسراره، وإيمانهم الأكيد بالله الواحد القهار وبرسوله وبكتابه . . إن هذا التدين غذاؤهم الروحى فى حياتهم وفى جهادهم وفى حروبهم، فكانوا خير جند يعملون تحت إمرة خير قائد .

ولقد كان تدين هؤلاء القوم هو سبيلهم لتحمل العذاب الذى تعرضوا له، وللصمود أمام سب قريش لهم وائتمارها بهم، وبقبولهم الهجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، تاركين مصالحهم وأموالهم فى سبيل ما يعتقدونه ويؤمنون به .

ولقد كان تدين هؤلاء القوم هو الدافع لهم ليقفوا فى وجه قريش للدفاع عن دينهم الذى آمنوا به فيصدوها ويقهروها، ثم يهزموها ويجعلوها تسعى بنفسها إلى الإسلام تدخل فيه عن اقتناع وإيمان، وبذلك تصبح الجزيرة العربية كلها مقراً للدين الجديد .

ولقد سعى هؤلاء بفضل تدينهم إلى مشارف الشام، ثم تخطوا الحدود إلى بلاد الروم فساد فيها الإسلام، ثم إلى بلاد فارس فدخل أهلها فى الدين الجديد، ثم إلى مصر وشمالى أفريقيا وعبروا البحر الأبيض إلى بلاد الأندلس حيث رفعوا فى كل هذه البقاع علم الإسلام .

بفضل تدينهم هذا وسعت رقعة الدولة الإسلامية .

وإن أية قوة ما كانت تستطيع أن تحقق هذا كله لولا أنها مدعمة بعامل التدين العميق .

ولقد كان الرســـول يغرس فى نفوس جنوده حب الدين والرغبة فى التقرب إلى الله بتنفيذ تعاليم الدين والتمسك بأهدابه والاعتراف بفضله وكان يدعوهم إلى أن يكونوا جميعاً قوة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

* * *

٤ — سأنجح

سأنجح ، مبدأ هام يضعه دائماً أمامه كل رجل ناجح .

والقائد الذى لا يستسلم للهزيمة ويقول سأنجح ، هو القائد العظيم الناجح .

والقائد الممتاز هو الذى يكابد المشقة ويلقى الصعوبات وتصدمه العقبات فلا تضعف قوته ولا يضيع عزمه ولا ينحرف عن طريقه المرسوم ، بل يهزأ بهذا كله ، ويتطلع إلى الأمام يداعبه أمل واحد ، هو أنه سينجح ، ويخاطب نفسه فى ثقة واطمئنان وأمل ويقول فى عزم وإصرار ، سأنجح .

والرسول الكريم عند ما تلقى الأمر السماوى :

« يا أيها المدثِّرُ ، قُمْ فأنْذِرْ »(1)، « وأنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرِبِين واخْفضْ جناَحَكَ لمَنْ اتبعكَ مِنَ المؤْمنينَ فإنْ عَصَوْكَ فقُلْ إنِّى برىء مِمَّا تَعْملونَ »(2)

شعر بالعبء الملقى على عاتقه ، وصرح لخديجة بعظم المهمة وخطورتها وإدراكه لهذه الخطورة « انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب إلى ؟ »

واصطدم محمد فى أول الدعوة بغضب قريش ، وعلى رأسها عمه أبو لهب وزوجه أم جميل فماذا فعل ؟

لقد تحمل كل ما أقدمت عليه قريش فى سبيل رده عن دعوته ، ولسنا فى سبيل إعادة ما أقدمت عليه قريش ، وما قامت به ضده ، ولكننا يهمنا أن نعيد موقف محمد من هذا السيل الجارف من المعاملة الشاذة والتهديد المستمر والسب الواضح . . .

---

(1) سورة المدثر ١/٢

(2) سورة الشعراء ٢١٤/٢١٦ .

لقد صبر الرسول ودعا أصحابه إلى الصبر ، وكان يردد عليهم أنهم فائزون وأنهم ناجحون ، وكان يعدهم بالفوز والنصر ، كلما اشتد بهم الكرب ، أو زاد العذاب ، أو بلغت المعاملة القرشية مبلغاً كبيراً من الشدة والعنف .

قال الرسول لأصحابه إنه سينجح فى دعوته ، وأيد قوله بالقرآن ، وكان يقول لهم :

« ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتمُ الأَعْلوْنَ إنْ كُنتمْ مُؤْمِنِينَ »[1] ،

« أُذِنَ للَّذِينَ يُقَاتلُونَ بِأنَّهمْ ظُلموا وأنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقديرٌ »[2] ،

« وأُولَئكَ هُمُ الفَائزونَ ، يُبَشِّرُهُمْ ربُّهمْ برحْمَةٍ مِنهُ ورِضْوانٍ وجنَّاتٍ لَهُمْ فيها نعيمٌ مقيمٌ خَالدينَ فيها أبداً ، إنَّ اللهَ عِندهُ أجرٌ عَظيمٌ »[3] ،

« فَاسْتبشروا ببَيعكمُ الَّذى بايعْتمْ بهِ ، وذَلكَ هُوَ الفَوْزُ العظيمُ »[4] ،

« إنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ فلا غالِبَ لكمْ وإنْ يخذُلْكمْ فَمَنْ ذا الَّذى يَنصركمْ مِنْ بَعْدِهِ وعَلَى اللهِ فلْيتوَكلِ المؤْمِنُونَ »[5] .

فى يوم بدر قال الرسول لأصحابه إنه سينجح . . . وأخذ بيده حفنة من الحصباء واستقبل بها قريشا وقال « شاهت الوجوه » ثم أمر أصحابه قائلا « شدوا » وشد المسلمون وكانوا قلة ونفذوا أمر النبى فنجحوا وهزمت قريش بكثرتها وعددها وعدتها .

وعندما دارت الدائرة على المسلمين فى أحد كان النبى يثق من النجاح ووقف

(١) سورة آل عمران ١٣٩
(٢) سورة الحج ٣٩
(٣) سورة التوبة ٢٠/٢٢
(٤) سورة التوبة ١١١
(٥) سورة آل عمران ١٦٠

الرسول يصد هجمات قريش وبجانبه سعد بن أبي وقاص وكان الرسول يمده بالنبل ويحثه على الرمى ويقول له « ارم فداك أبي وأمى . » وذلك بعد أن رمى بنفسه عن قوسه حتى اندقت سيتها ، فى حين كان عمر بن الخطاب يواجه جيش خالد حتى رده .

وعندما هاجم مالك بن عوف قوة المسلمين فى واد من أودية تهامة كان الرسول واثقاً من النجاح ولهذا استطاع بمهارته وبما أبداه من ضروب الشجاعة أن يجمع الناس حوله وهو يناديهم « أين أيها الناس ؟ أين ؟ » وأن يقودهم إلى نصر عزيز فر على أثره جيش عدوه من أمامه ، ولجأ إلى حصون الطائف .

قال الرسول لأصحابه يوم أن كانوا قلة إنهم سينجحون وسينتصرون . . . وتمر الأيام ويخرج الرسول وأصحابه فارين من قريش إلى الحبشة وإلى المدينة . . ثم تمر السنون ويعود الرسول مع أصحابه المهاجرين إلى مكة فيدخلونها أعزة منتصرين ، ويأتى سادة قريش وأشرافها يطلبون منه الصفح والعفو ويدخلون فى دين الله الذى حاربوه وقاوموه وصدوه .

وهكذا أثبتت الأيام بل أكدت أن الرسول كان صادقاً عندما وعد رجاله بالنصر والنجاح ، وأنه كان على حق حينما آمن بالمبدأ الكبير « سأنجح » .

***

٥ — الشجاعة والمثابرة

إن من واجب كل قائد أن يغرس فى أذهان مرءوسيه روح الشجاعة التى لا تقهر والتى هى من صفات الطبيعة البشرية المعجزة .

وإن القيادة الرديئة تقضى بما لا يدع مجالا للشك على الشجاعة الفطرية .

والجندى فى الميدان يعرض نفسه للموت ، وهو أمر غير مرغوب فيه . ولكنه يستهين به ولا يخشاه إذا كان مسلحاً بالشجاعة ورباطة الجأش .

والإنسان لا يقهر أبدا إلا إذا سيطر عليه شعور بالهزيمة ، وكم من هزيمة تحولت بفضل الشجاعة والمثابرة التى يبديها القائد ويأخذها عنه الجنود إلى نصر حاسم كريم .

ولقد ضرب الأبطال والشهداء ، للناس أمثلة فى الشجاعة ، هى النور فى تاريخ الحياة ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وقد امتحنت شجاعة معلم الأبطال صلى الله عليه وسلم ورباطة جأشه طول حياته فما تطرق إليها وهن ، وإن صور المثابرة التى يسجلها التاريخ لتصغر أمام تلك الصورة الكريمة لمثابرة الرسول عليه السلام .

وهاتان الصفتان واضحتان فى حياة الرسول وفى حروبه ، فما من موقعة اشترك فيها إلا وأبدى من ضروب الشجاعة والمثابرة ما دفع به إلى النصر .

استحلف الرسول مرة وهو صبي باللات والعزى ، فقال « لا تسألنى بهما شيئاً ، فوالله ما بغضت شيئاً بغضى لهما » . . هذا الصبي إذن يتحدث بهذه الجرأة عن آلهة القوم ، لا يخشى بطشاً . . .

وخرج مرة إلى اليمن فى قافلة مع عميه ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، فرأوا فحلا من الإبل ، قد توحش وجمح ، فتعرض له وحده وكبح جماحه . . .

واعترض القافلة واد ملىء ماء ، فهابته الجماعة ، فتقدم وقال « اتبعونى ، اتبعونى » .

هذه أمثلة الشجاعة فى فترة الصبا ، ولكن الأمثلة التى نريدها ، والتى ينحنى لها العالم اكباراً واجلالا ، هى تلك التى ضربها بعد الرسالة ، وبعد أن جهر بالدعوة .

وشجاعته تبدو حين خرج على قومه مفاجئاً بالدعوة التى كرهوها ، وشجاعته تبدو وهو يصابر ويثابر على الأذى والسخرية .

وشجاعته تبدو وقد تعاهدت قريش فى صحيفة علقت بالكعبة على مقاطعة عمه ومن تبعه من بيت هاشم والمطلب ، تبدو والحادثات تمر عليه كأنها الأعاصير تعصف وهو ثابت صابر مثابر كالطود الشامخ .

وشجاعته تبدو وهو يترك بيته وولده ويهاجر إلى يثرب ليبدأ منها جهاده .

وشجاعته تبدو يوم واجه قريشاً فى بدر بعدد قليل وعدة قليلة فانتصر عليها .

وشجاعته تبدو فى جهاده الطويل لقريش واليهود وأعداء دعوته حتى تم له الانتصار الأخير وعم الإسلام الجزيرة كلها .

ولا بد لنا أن نشير إلى تلك الشجاعة النفسية والأدبية التى لا نظير لها فى تاريخ البشر والتى لا تهن للسخرية ، ولا تذل للوعيد ، ولا تطيش للوعد والتى تميز بها الخلق المحمدى فكانت سنده الذى لا يتزلزل .

وأمثلة الشجاعة أوردنا منها الكثير خلال الحديث عن موقعة بدر وأحد وبدر الآخرة وحنين .

وروى عن على بن أبى طالب أنه قال « كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

ويقال : إن أهل المدينة سمعوا مرة جلبة فركب الرسول فرساً غير مسرج وسبق الناس إلى مصدر الصوت وبينما هو عائد لقيه الناس فزعين وهم فى طريقهم إلى مكان الصوت فقال لهم « لن تراعوا » فعجبوا من سبقه وشجاعته .

ويوم حنين وقف الرسول على بغلته البيضاء ، والناس يفرون عنه ، وهو يصيح :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فما رئى أحد يومئذ كان أثبت منه ولا أقرب للعدو .

ولقد اشتهر من جنود محمد بالشجاعة والمثابرة كثيرون ، مثل على وعمرو وخالد وأبو عبيدة ، وأمثلة شجاعة هؤلاء كثيرة ملأت كتب التاريخ التى بحثت حياتهم وحروبهم وأرخت جهودهم وقتالهم .

***

٦ — الاهتمام بالجند

يقول الدكتور لنك فى حديث له عن الشخصية « هى المدى الذى يذهب إليه الفرد فى تحويل كفاياته وضروب نشاطه إلى عادات وأعمال من شأنها التأثير بنجاح فى الغير » .

ويقولون فى وصف القائد الناجح إنه القائد الذى يفكر فى جنده ويهتم بهم .

ومن الصفات الشخصية للقائد أن يفكر فى غيره ، وأن يهتم بجنده وأن يحل نكران الذات مكان حبها .

والقائد الذى لا يهتم بجنده هو الذى يصادف أكبر العقبات فى حياته ، ثم هو الذى يسبب للآخرين أكبر المضار .

إذن فذو الشخصية هو الذى يهتم برفاقه .

فكلما اهتم القائد بجنده زاد نجاحه كقائد .

ونعرض فيما يلى بعضاً من صور اهتمام الرسول بجنده كقائد :

(ا) فى سرية عبد الله بن جحش خرج سعد بن أبى وقاص ومعه عتبة ابن غزوان يبحثان عن بعير لهما ضل فأسرتهما قريش ، وكان عبد الله قد أسر اثنين من قريش أحدهما الحكم بن كيسان ، ورغبت قريش فى افتدائهما ، وبعثت بذلك إلى الرسول ، فتذكر سعداً وعتبة وهما جنديان من جنوده ، فأبى عرض قريش وقال لهما « لا نفديكما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم» .

ولم يفرج عن الأسيرين حتى عاد صاحباه .

(ب) عندما أصيب سعد بن معاذ ، أمر الرسول أن يضرب له فسطاط فى المسجد ليكون قريباً منه ، وكان يعوده كل يوم مع أبى بكر وعمر وسائر المسلمين ، ولما حكم فى بنى قريظة انفجر جرحه وسال دمه على الرسول ومات وسمع الرسول أمه تندبه فقال « كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد » .

(ج) فى غزوة أحد ، خرج الرسول بعد انتهاء المعركة ، يلتمس عمه حمزة ، فلما رآه ، وقد بقربطنه ومثل به ، حزن من أجله حزناً شديداً وقال « لن أصاب بمثلك أبداً ، وما وقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا . » ولم ينصرف الرسول من أرض المعركة إلا بعد أن وارى جميع القتلى المسلمين التراب بعد أن صلى عليهم بنفسه .

(د) أغار عيينة بن حصن على أطراف المدينة ، فقتل رجلا وأسر الإبل التى كان يرعاها واحتمل امرأة الرجل المقتول ، وصاح سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى يطلب نجدة محمد بقوله « واصباحاه » . واهتم الرسول بهذا الطلب ، فصاح فى قومه صيحة الفزع ، واجتمع حوله القوم وانطلقوا معه حتى بلغ الجبل من ذى قرد ، واستخلص الإبل وأعاد المرأة المؤمنة .

(هـ) عندما جهز الرسول جيش المسلمين إلى غزوة مؤتة ، سار مع الجيش حتى ظاهر المدينة يحثهم على القتال ، ثم دعا للجيش قائلا « صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين » .

وعندما علم الرسول بقتل زيد وجعفر وابن رواحة حز الأسى فى نفسه وقيل ذرفت عيناه بالدمع ، وخرج إلى أصحابه يقول لهم « لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم »

وبكى الرسول زيداً عندما التقى بابنته . ودهش الناس لبكائه ، فقال لهم « إنما هى عبرات الصديق يفقد صديقه » .

(و) عندما بعث الرسول بمدد إلى عمرو فى غزوة ذات السلاسل خاف

أن يختلف عمرو وأبو عبيدة قائد المدد ، فأوصى الرسول أبا عبيدة وقال له « لا تختلفا » .

وحلت هذه الكلمة التى قالها الرسول أزمة عنيفة هددت قوة المسلمين عندما اختلف عمرو وأبو عبيدة على تولى القيادة إذ تذكر أبو عبيدة قول الرسول و نفذه وتولى عمرو القيادة وعمل أبو عبيدة كجندى تحت إمرته .

(ز) يبلغ من اهتمام الرسول بأحد جنده وهو زيد بن حارثة الذى استشهد فى مؤتة . أن عين ابنه اسامة وهو فى العشرين من عمره قائداً لجيش المسلمين لغزو الروم ، وجعل ضمن الجيش آبا بكر وعمر .

وأثار هذا التعيين دهشة الكثيرين لولا أنهم أدركوا المغزى الكبير الذى يهدف إليه الرسول من وراء ذلك ، فقد عرفوا أن الرسول إنما أراد بذلك أن يقيم أسامة مقام أبيه الذى استشهد فى مؤتة ، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد ، وما يبعث فى نفس الشاب الهمة والحمية ويعود شباب المسلمين الاضطلاع بأعباء أجسم التبعات .

(ح) ولقد عمد الرسول — اهتماماً منه بجنده فى أثناء غزواته — إلى تعيين بعضهم قادة ، وإلى أن يسلم الآخرين الألوية ، وأن يولى البعض إمارة الجيوش والفرق ، ومنح هؤلاء جميعاً حظاً وافراً من المكانة ، فبذل كل منهم جهده وكل ما فى وسعه .

وبعث الرسول بسراياه ، وعين على كل سرية أحد رجاله ، فهذه سرية حمزة بن عبد المطلب ، وهذه سرية عبيدة بن الحارث ، وهذه سرية عبد الله ابن جحش ، وهذه سرية أبى سلمة بن عبد الأسد ، وهذه سرية عبد الله ابن أنيس .

وفى غزوة أحد . عين الرسول خمسين من الرماة ، وجعلهم فوق الجبل يحمون ظهره ، وعين علهم عبد الله بن جبير أميراً .

وفى غزوة الفتح قسم النبي جيشه أربع فرق ، وعين على كل فرقة أحد

رجاله ، فمين على إحداها خالد ، وعلى الأخرى الزبير ، وعلى الثالثة سعد ابن عبادة ، وعلى الرابعة أبا عبيدة بن الجراح .

وإن القائد الناجح هو الذى يصل ما بينه وبين جنده برباط التعاطف والانسجام ، ولكى يكون على صلة تعاطف مع جنده ينبغى أن يكون قوى الشخصية وعلى خلق عظيم . . . ويقال إن العطف والكرم وحفظ الحقوق ومراعاة الشعور تملأ قلوب الجند محبة فى قائدهم ، وتدفع بهم إلى التفانى فى أداء الواجب .

وكانت هذه كلها رائد محمد وكانت أساس علاقته بجنده . وهاهو ذا عبد الله ابن عبد الله بن أبىّ يأتى الرسول ويطلب الإذن ليقتل بنفسه أباه حتى لا تحدث فتنة بين المسلمين إذا اضطر إلى الثأر لأبيه من قاتله فقال له الرسول « إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى فينا » .

ونسوق حادثة أخرى تبين عطف الرسول على أحد رجاله وهو صديقه أبو بكر ، فقد جاء أبو بكر بأبيه فلما رآه الرسول قال « هلا تركت الشيخ مكانه حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ » فقال أبو بكر « يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت ؟ فأجلس النبى الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له « أسلم » فأسلم وحسن إسلامه .

ويحسن بنا أن نذكر حين نذكر معاملة الأفراد والاهتمام بالجند أن هناك طريقة واحدة لتنمية الفضائل فى الجنود ، وهذه الطريقة هى التشجيع . ولم يوجد قط قائد من القادة البارزين إلا وكانت هذه الحقيقة نصب عينيه ، وقال فى ذلك أحد مشاهير علم النفس « إن حب الثناء والتطلع إلى سماع الاستحسان من أعمق المبادئ المتأصلة فى نفوس البشر . إن التقدير يدفع الانسان إلى أن يبذل جهده ويبدى خير ما عنده .

وينبغى للقائد ألا يدع فرصة تمر دون أن يعبر عن تقديره لأى عمل بارز يقوم به جنده . . . ونسوق فيما يلى أمثلة على مدى ما كان يلقاه جند

الرسول وأصحابه من تشجيعه الذى لم ينقطع لحظة واحدة منذ بدأ فى الدعوة إلى دينه الجديد :

(ا) كان الرسول يمر على آل ياسر وهم صابرون على تعذيب قريش لهم وكان يقول مواسياً لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ».

وكان هذا القول كالبلسم الشافى لآل ياسر فينسون عند سماعه آلامهم ومتاعبهم ويصمدون ويتحملون ما يلاقونه من التعذيب الشديد والمعاملة السيئة .

(ب) فى غزوة أحد أراد الرسول أن يثير أصحابه ويحضهم على القتال ويشجعهم وهو على وشك الاشتباك مع العدو فمد يده بسيف وقال « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم وكان منهم أبو بكر وعمر وعلى والزبير ، ثم سأل أبو دجانة بن خرشة الرسول « وماحقه يا رسول الله ؟ » فقال « أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى » فقال أبو دجانة « أنا آخذه يا رسول الله » فقال له الرسول « لعلك إن أعطيته تقاتل فى الكبول » فقال « لا يا رسول الله » واعتصب أبو دجانة بعصابة حمراء وحمل السيف وسار مختالا ، فقال الرسول « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن . »

(ج) فى غزوة خيبر بات الجيش الإسلامى معداً للمعركة فقال الرسول لأصحابه « سأعطى الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه » فراح كل يمنى نفسه بأن يكون هذا الرجل ، وفى الصباح التف أصحاب الرسول حوله فسأل عن على بن أبى طالب فقيل إنه يشكو وجعاً فى عينيه ، فدعا به فجاء واضعاً على عينيه عصابة فدعا له الرسول بالشفاء من وجعه ثم أعطاه — بعد أن رفع العصابة عن عينيه فإذا به معافى وسليم — الراية فسار على رأس الجيش .

وكان لتشجيع الرسول لعلى وهو مريض أثر كبير فى نفسه فسجل صفحة رائعة من صفحات البطولة الخالدة خلال مبارزته فارس اليهود الأول وقائدها مرحباً .

وقول الرسول لخالد بن الوليد إنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين قول فيه تشجيع لخالد وكان له أثره حتى أن خالداً أحرز للإسلام فى عهد الرسول وبعد عهده انتصارات سجلها له التاريخ بالمجد والفخر .

* * *

٧ — مواجهة الحقائق

من أهم الصفات الواجب توافرها لدى القائد صفة القدرة على مواجهة الحقائق وعدم التهرب منها . . .

(ا) فى غزوة بدر واجه الرسول الموقف على حقيقته ، لم يحاول ان يتجاهل هذه الحقيقة التى تراءت له ، بل أقبل عليها وجعلها أساس خطته . . . نزل الرسول بأدنى ماء ، وكان الحباب بن المنذر عليما بالمكان فجاء إلى الرسول وقال له « يا رسول الله ، أرأيت المنزل أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » ولما علم من الرسول أنه الرأى والحرب والمكيدة قال للرسول « إن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نعور ما وراءه من القُلُب ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا . »

وواجه الرسول هذه الحقيقة البارزة فى حديث الحباب ورأى صواب مايدعو إليه فقام ومن معه واتبع رأى صاحبه .

(ب) وفى أحد كان من رأى الرسول اتخاذ خطة الدفاع ، ولكنه ووجه بدعاة الخروج ، ولمس حقيقة واقعة وهى أن أصحابه يريدون مقابلة قريش ومقاتلتها وجهاً لوجه ، فإما انتصروا عليها وإما استشهدوا وكانت لهم الجنة ، وهزت هذه الحقيقة التى تبدو فيها الصراحة والشجاعة وحديث الاستشهاد نفس الرسول فوافق على الخروج برغم أنه يتعارض ورأيه . . .

ولما حاول القائلون بالخروج العدول عن رأيهم خوفاً من أن يكونوا بذلك قد خالفوا رغبة الرسول قال لهم « ما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . . انظروا ما آمركم به فاتبعوه . »

(ج) وعندما تحركت قريش تبغى مرة أخرى الوقوف فى وجه محمد أخذ الرسول يقدر موقفه ، وواجهته حقيقة مرة . . إن قريشاً أكثر منه عدداً وعدة .

وعندما عرض عليه سلمان الفارسى حفر الخندق حول المدينة ، ولمس الرسول فى هذا العرض وجاهة الرأى ، ووجد أنه خطة سليمة تناسب الموقف ويجب أن تنفذ ، أمر عليه الصلاة والسلام بحفر الخندق واشترك بنفسه فى حفره .

(ى) واستفاد الرسول مرة أخرى من سلمان الفارسى حينما نقل إليه أنه لا سبيل إلى فتح حصون حنين إلا باستخدام المنجنيق والدبابات ، ووافقه الرسول على استخدامها حينما وضحت له هذه الحقيقة .

(هـ) وعندما خرج الرسول مع أصحابه قاصدين مكة للزيارة ، وقفت قريش أمام رغبته وعارضت دخوله مكة فى عامه هذا ، وأدرك الرسول حقيقة هامة وهى أن دخوله مكة برغم إرادة قريش — فى هذا الوقت الذى لم يكن فيه قد استكمل عدته لمواجهتها فى داخل مكة — سيكون صعباً وسيكلفه الكثير . ولم يشأ الرسول أن يتجاهل هذه الحقيقة الواضحة فبعث الرسل إلى مكة ، وبعثت إليه مكة بالرسل ، واتفقوا على أن يعود إلى المدينة فى عامه هذا على أن يأتى للزيارة فى العام المقبل ، وكان هذا هو النص الأول فى صلح الحديبية .

***

٨ — القدرة البلاغية

ليس فى مقدور الإنسان أن يصبح قائداً ممتازاً إلا إذا كانت لديه القدرة البلاغية ، لأن الرجل لا يعرب عن شخصيته إلا بالحديث ، والحديث البليغ يستطيع به القائد أن يوضح ما يريد أن يقوله وبه يمكنه أن ينقل حماسته وحميته إلى سامعيه .

والقيادة هي فن التأثير في جماعة من الناس بالحث أو بالقدرة ، لانتهاج سبيل معين .

والجند تشعلهم وتؤثر فيهم ككل الناس الخطابة والبلاغة ، وإذا كانت الخطابة لازمة للرجل السياسي لاكتساب مجموع من الأصوات يحرز بها نصراً سياسياً ، فإن الخطابة لازمة للرجل العسكري لاكتساب نصر حربي يفوق في غالبية الأحيان النصر السياسي .

كان الرسول بشراً يوحى إليه ، وما أوتي عن طريق الوحي قد فصلت آياته في الكتاب ، أما ما عدا ذلك من الأقوال فهي ثمرة رأي راجح ، ولسان فصيح ، وعقل مدبر .

قال له أصحابه يوماً « ما رأينا الذي هو أفصح منك ! » فقال : « وما يمنعني ، وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين » .

وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم فصاحته بنشأته في بني سعد ، ومولده في قريش ، ويريد أنه جمع قوة عارضة البادية وجزالتها ، ورونق الحضارة وزخرف صناعتها وروعتها .

سأل أبو بكر يوماً الرسول : « لقد طفت في العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ؟ فمن أدبك ؟ » فأجاب : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

قال الجاحظ يصف كلام الرسول : « ألقى الله على كلامه المحبة وغشّاه بالقول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزناً من كلامه صلى الله عليه وسلم » .

والرسول الكريم صاحب أسلوب بلاغي حكيم له تأثيره على قارئيه أو سامعيه .

ولننظر مثلا إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة ، فقد جاء في مختار

مسلم: «كان رسول الله إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.» . . .

و «إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله» . . .

و «إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن انزلهم على حكمك فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا.» . . .

وكان للرسول أسلوب خاص فى توجيه الدعوة للإسلام إلى الملوك والأمراء ففى رسالته إلى النجاشى: «إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت عيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله».

وكان للرسول فى المعاهدات والمواثيق أسلوب خاص نورد مثلا له ما جاء فى كتابه بين المهاجرين والأنصار واليهود: «. . . المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط بين المؤمنين ..»

هذه الأمثلة من كلام الرسول توضح أن كلامه صلى الله عليه وسلم يتصف ببلاغة لا كلفة فيه ولا غموض ولا إغراب ، بل كلام واضح سهل صريح ، ولا عجب فى ذلك فالرسول عربى قرشى النشأة كان يهدف عندما يتحدث أو يكتب إلى الوصول إلى سامعه أو قارىء كتبه فلا يقيم بينه وبينهما حاجزاً من اللفظ الغريب أو المعنى البعيد .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال « إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »

وكان كلام الرسول لا فضول فيه ، ولا تقصير ، يحفظه من يجلس إليه ، تقول عائشة رضى الله عنها « ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه . »

وروى أنه كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه .

ومما عرف عن النبي واشتهر به أنه كان قليل الكلام ، معرضاً عن اللغو ، لا يقول إلا الحق ، ولهذا يخلو حديثه وكلامه من الحشو والتكرار والزيادة والزخرف والحيلة ابتغاء التأثير .

وكان الرسول يكره سجع الكهان ، ولو أنه لم يكن يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية مثل « ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست فى كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله أحق وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق . » . .

ومثل « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال . »

كان أبو سفيان قد كتب إلى الرسول يقول له « نريد منك نصف نخل

المدينة فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا فابشر بخراب الديار وقلع الآثار » ، فرد عليه الرسول فى كتاب يقول « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والشقاق وفهمت مقالتكم . فوالله مالكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وخلع الآثار . »

ومن المعروف أن الرسول لم يقل الشعر ، ولو أنه كان له رأى فى الشعر الذى كان يقال فى عصره ، والذى قيل قبل عصره ، وكان عليه السلام يعدل فيه بما يتفق مع مبادئه ورسالته ، ومن ذلك أنه سمع قول سحيم عبد بنى الحسحاس « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً » فقال الرسول « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً » مقدما الإسلام .

واستحسن الرسول الشعر الذى قيل فى تأييد دعوته والذود عنها ، وكان الرسول يقيس كلام الشعراء بمقاييس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة ، ومن ذلك قوله عليه السلام « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ، ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

وأهم نواحى البلاغة فى حياة الرسول اجتماع المعانى الكبار فى كلمات قصار ، وشمول الكلمات القليلة علوم وافية قد يبسطها الشارحون فى مجلدات ، فقد جمع علم السلوك فى الدين والدنيا فى سطرين فى قوله « احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وجمع الرسول علم السياسة فى قوله « كما تكونوا يول عليكم » . وفى هذا التعبير القصير أكثر من معنى ، ففيه أن الأمم مسئولة عن حكوماتها ، وأن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

واشتهر الرسول بأنه كان فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء بليغاً وله أحاديث كثيرة[1] فى السياسة والأخلاق والاجتماع .

* * *

٩ — السياسة

يقال إنه إذا فقدت السياسة فى المعاملات الشخصية فى المحيط العسكرى فإن محور الحركة لابد أن يعتريه الخلل وأن دولاب العمل لابد أن يقف .

والسياسة صفة من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى مثل لرجال السياسة والدولة والقادة ، فى جميع ميادين الإصلاح ، وفى هذه الناحية يبدو الرسول مثلا عالياً لرجل الدولة .

والرسول الكريم كان يلجأ إلى السياسة كوسيلة يضمن بها استقرار حياة دعوته .

اتخذ الرسول السياسة وسيلة فى حياته الخاصة وفى حياته العامة ، فهو فى حياته الخاصة قد ربط بينه وبين سيدات من المسلمات برباط الزواج لغرض عميق ، وسبب بعيد ، ودافع لا يحتمل شيئاً سوى الخير والصلاح .

فالرسول بعد وفاة خديجة تزوج سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو ابن عبد شمس ، ولم تكن سودة على جانب من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرا فى زواجه بها ، إنما كانت زوجا لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا فى سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة ، وقد أسلمت سودة وهاجرت مع زوجها وعانت من المشاق ما عانى ، ولقيت من الأذى ما لقى ، فلما مات زوجها تزوجها الرسول ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين .

ورأى الرسول من حسن السياسة أن يرتبط بوزيريه أبى بكر وعمر[2] فقرر

(١) جمع الأستاذ محمد قراعة أحاديث الرسول فى كتاب بهذا الاسم من أربعة أجزاء

(٢) علم عمر أن ابنته حفصة ترد النبى حتى يظل يومه غضبان ، فذهب اليها وسألها فأجابته بالإيجاب ، فثار عليها وغضب وقال لها « والله لقد علمت أن رسول الله لايحبك ولولاى لطلقك »

أن يتزوج عائشة ابنة أبي بكر ، وحفصة ابنة عمر ، ليرتبط وإياهما برباط المصاهرة وكذلك كان الحال حينما قرر أن يرتبط برباط المصاهرة أيضاً مع على وعثمان فزوجهما من ابنتيه .

لقد تزوج الرسول من ابنتى وزيريه ليقوى أواصر الجماعة الإسلامية الناشئة فى شخص وزيريه ، كما تزوج من سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم عيلة .

ولهذا السبب تزوج الرسول من زينب بنت خزيمة ، ومن أم سلمه ، فقد كانت الأولى زوجة لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذى استشهد يوم بدر ، وكانت الثانية زوجة أبى سلمة الذى جرح فى أحد ومات نتيجة الجرح ، فتزوجها الرسول وأخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها من أبى سلمة .

واتخذ الرسول السياسة وسيلة فى حياته العامة ، ففى غزوة الخندق اتصل حيي بن أخطب ببنى قريظة ، وكانوا حلفاء الرسول لينقضوا عهدهم معه ، ولينقلبوا عليه ، وهنا أدرك محمد قيمة السياسة فى معاملاته ، فأرسل إلى بنى قريظة نعيم بن مسعود فتمكن من كسب بنى قريظة إلى جانب المسلمين ، وكان من نتيجة ذلك أن عادت قريش بخفى حنين دون أن تصيب محمدا بسوء .

والعمل السياسى الجليل حقاً هو ذلك العمل الذى توصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظام سياسى لها بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتآلف إذ تقرب إلى رؤسائهم ، وتحدث معهم وربط بينهم وبينه برباط المودة حتى قيل إنه كان يصوم يوم صومهم ، وأنه اتخذ القبلة فى الصلاة بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً .

وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى ، كما أن سيرته ، وعظيم تواضعه ، وجميل عطفه ، وحسن وفائه ، وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم ، كل ذلك وصل الأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة

وتحالف وتقدير لحرية الاعتقاد ، وتعد هذه المعاهدة من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب . . جاء فيها :

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم [1] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار) . . . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً [2] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوقع [3] إلا نفسه وأهل بيته . . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . . وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها . »

هذه هى بعض فقرات وثيقة سياسية كبيرة مطولة وضعها الرسول منذ ألف وثلثمائة وخمسين سنة ، تقررت فيها مبادئ حرية العقيدة ، وحرية الرأى وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة .

ومؤاخاة المسلمين فى المدينة عمل سياسى جليل له أثره فى حياة الدعوة الإسلامية ، فقد دعا الرسول المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان هو وعلى أخوين ، وكان عمر وزيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين ، وتآخى كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب ، وبهذه المؤاخاة تأكدت وحدة المسلمين وازدادت .

---

(١) على استقامتهم .
(٢) المثقل بالدين والعيال
(٣) يهلك ويفسد .

وكانت السياسة هى طريق الرسول عند ما سار برجاله يريدون زيارة المسجد الحرام ، فقد وقفت قريش فى طريقه تود أن تمنعه ، ولو أدى هذا المنع إلى استخدام القوة ، وكانت رغبته أن تتم الزيارة فى جو سلمى لا حرب فيه ولا نزال ، ولهذا فعندما بانت مظاهر الشر من ناحية قريش لجأ إلى السياسة فبعث إليهم عثمان بن عفان يقول لهم « إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظم حرمته ولنؤدى فرض العبادة عنده ، وقد جئناً بالهدى معنا ، فإذا نحرناها رجعنا بسلام » .

وردت عليه قريش أنها أقسمت أنه لن يدخل مكة وصحبه هذا العام ، وأرسلت سهيل بن عمرو وقالت له « ائت محمداً فصالحه ولا يكن من صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فو الله لا تحدث العرب عنا انه دخلها عنوة أبداً » .

وجرت محادثات بين الرسول وسهيل وطالت المحادثات وتعثرت فى الطريق ، وكان المسلمون يسمعون نبأ المحادثات بشىء من الضيق حتى أن عمر ذهب إلى أبى بكر ودار بينهما هذا الحديث :

عمر : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟

أبو بكر : بلى !

عمر : أولسنا مسلمين ؟

أبو بكر : بلى ! .

عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

أبو بكر : يا عمر الزم غرزك [1] فإنى أشهد أنه رسول الله .

عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

وترك عمر أبا بكر واتجه إلى الرسول يتحدث إليه وهو محنق كان يرى أن توقف المحادثات ، وأن يدخل المسلمون مكة بالقوة ، فإما دخلوها وإما استشهدوا .

(١) الغرز = الرحل

وتدخلت السياسة الحكيمة فى هذا الموقف بين النبي وعمر إذ استمع إليه الرسول وفتح صدره لكل ما يقوله حتى إذا ما انتهى من عرض وجهة نظره قال له « أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

ووقع عهد الحديبية بين المسلمين وقريش وجاءت فى هذا للعهد النصوص الآتية :

١ - مدة العهد بين الطرفين عشر سنين .

٢ - من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً من رجال محمد لا يردوه عليه .

٣ - من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه .

٤ - أن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ، ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا سلاح غيرها .

وآخر عمل سياسى قام به الرسول قبل وفاته هو إيصاؤه المهاجرين بالأنصار فقد وقف خطيباً بالمسجد وقال « يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون ، والأنصار على هيئتها لا تزيد ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » .

* * *

١٠ - صفات أخرى

(ا) يقولون إن العدالة والاستقامة وعدم المحاباة من ألزم الضرورات للفرد الذى قدر له أن يكون قائداً حكما بين الناس ، وإن الاحترام والإعجاب والثقة والمحبة تتوقف على ما يتحلى به القائد من هذه الصفات ، وإن أبسط المخالفات لأحكام العدالة لها أسوأ الأثر فى نفوس الناس .

كانت المساواة من أهم الأسس التى قام عليها الإسلام . . . المساواة بين الناس جميعاً وإقرار العدالة وعدم المحاباة . لا فرق بين أحد وآخر إلا بالعمل

الصالح ويقول السير وليم موير فى وصف أخلاق الرسول « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخصه ، وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرو ، عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ، ولا هدية مهما صغرت ، وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه بإقباله وإن كان صغيراً ، وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره ، وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة ، وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهناءتهم » .

وأبرز مظهر لتوافر هذه الصفات فى شخصية الرسول موقفه يوم نشأ الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، بعد أن أتم الله نصره بفتح مكة ، فقد قال الأنصار « لقى والله رسول الله قومه » .

وأبلغ سعد بن عبادة النبي ما يقوله الأنصار فقال له النبى « اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة » فجمعهم سعد وجاءهم النبي ودار الحوار التالى :

محمد — يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار — بلى ! الله ورسوله أمنُّ وأفضل .

محمد — ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

الأنصار — بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

محمد — أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم « أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلا فآسيناك » ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة[1] من الدنيا

---

(١) الشىء اليسير .

تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار .

وشعر الأنصار من قول الرسول عدله ، وأدركوا عدم محاباته المهاجرين وأحسوا بحبه لهم وتقديره لنصرتهم إياه واعتزازه بهم فقالوا « رضينا برسول الله قسما وحظاً » .

بهذه الألفاظ الرقيقة وبهذه العدالة المثالية حكم الرسول بين المهاجرين والأنصار .

* * *

(ب) ولد الرسول كامل الخلق والمروءة ، وعاش ولم يكن للبيئة سلطان على نفسه ، بل كان طلب الحق والثبات عليه أبين صفاته الحميدة ، التى لا ينكرها عليه عدو ولا صديق ، فالحق فى ذاته هو الغاية التى دأب وراءها ، سعى لها وابتلى وهاجر وجاهد وقاتل فيها .

ولقد كان الرسول غيوراً على الحق ، ويروى أن الصحابة حين عجبوا من غيرة سعد بن عبادة على محارم الله ، قال لهم « تعجبون من غيرة سعد ، لأنا أغير منه ، والله أغير منى » .

وقيل إنه لما أخره الأعداء فى غزوة الخندق عن أداء الصلاة ، غضب ودعا عليهم بقوله « اللهم املأ بيوتهم ناراً » .

* * *

(ج) كان النبي رجلا فى الرخاء والشدة ، لم تعرف رجولته الشطط والتهور ، يعفو ويصفح ما دامت الإساءة إلى شخصه الكريم .

يحكى أن أعرابياً جاء يسأله صلى الله عليه وسلم ويقول له — وهو يجذبه

من ردائه حتى أثر الجذب فى صفحة عنقه ـ « احملنى فإنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك » .

وحاول بعض الصحابة تأديب الرجل ، ولكن الرسول منعهم وصفح عنه ولم يمنع عنه بل أعطاه حتى رضى .

وعرف عن النبى أنه لم يكن يزدهيه الزهو عند الانتصار أو يدفعه الفوز إلى القسوة والانتقام . بل كان يقف عند الحد الذى تزول معه الفتنة ويقوم به أمر الدين ، ثم يعفو ويصفح ، والدليل على صدق ذلك أنه خلال محادثات الحديبية ، خرج بعض من سفهاء قريش ليلا يريدون معسكر الرسول يرمونه بالحجارة ، وكان عددهم أربعين أو خمسين ، فأخذهم رجال النبى إليه ، فما كان منه إلا أن عفا عنهم ، دون أن يزدهيه الزهو عند الانتصار ، وخلى سبيلهم .

***

(ى) وعفوه وصفحه صلى الله عليه وسلم عمن أسرفوا فى إيذائه ، هو الخلق الكريم الذى أدبه به القرآن ، قال تعالى :

« خُذِ الْعفو وأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهلِينَ »

ومما أثر عن الرسول قوله :

« ... أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .

والعفو عند المقدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس ، يتجلى فيها سمو القصد ، وبعد الغاية ، والترفع عن الشهوات ، ولن نجد فى تاريخ البشر مثل الرسول مظفراً ناجحاً مؤيداً يعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه .

لم يدخل الرسول عجبٌ ، ولا زهو ، ذهب بسياسة اللين إلى منتهى حكمته ، ولجأ إلى القتال دفاعاً عن النفس والعقيدة ، وتم له النصر الذى

وعده ربه ، ودخل مكة فاتحاً ، فوضع رأسه وطأطأه على ناقته وهو يسير . وأعداؤه على الهوان والعجز ، يخشى أن تحدثه نفسه من العجب أو الغرور .

ومن الصفات البارزة فى الرسول الكريم وفاؤه ، والرسول عليه الصلاة والسلام كان وفياً بعهده لعدوه وبوعده لصديقه .

والوفاء هو القوام لمكارم الأخلاق ، به تستقيم الحياة ، وهو ميزان المروءة ، ومقياس الفضل فى الأفراد والأمم ، ولو دان به الناس لوجدوا السعادة كاملة ، ولو أن العهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما هبط العالم إلى حياة الدس والكيد والذمم المخفورة والجوار المنتهك ، ولاستقرت العلاقات الدولية على أثبت القواعد التى تكفل السلم وتضمن الإنصاف وتستبقى الكرامة للناس جميعاً .

وقيل إن رجلا قال للرسول ، وهو يقسم بعض الغنائم فى يوم خيبر « يا رسول الله اعدل » فقال له الرسول « ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ، خبت وخسرت إن لم أعدل » وكان عمر حاضراً ، فقال للرسول « دعنى أضرب عنقه فإنه خائن » فقال له الرسول « معاذ لله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » .

وأخرج أبو داود عن صفوان بن سليم ، أن الرسول قال « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

ويقول عبد الله بن أبى الحماء « بايعت محمداً ، ووعدته أن آتيه فى مكانه ، فنسيت ، فذكرته بعد ثلاثة أيام ، فإذا هو فى مكانه ، فلما رآنى لم يزد على أن قال « لقد شققتَ علىّ ، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك » .

وروت عائشة أن عجوزاً جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها من أنت ؟ » فقالت « جُثامة المُـزَنية » فقال « أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ » قالت « بخير بأبى أنت وأمى » فلما خرجت

قلت « يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! ! » قال « إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان » .

ومن أعظم أمثال الوفاء التى نحن فى أشد الحاجة إليها قوله صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، حين أمر بدفن القتلى « انظروا إلى عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كانا متضامنين فى الدنيا ، فاجعلوهما فى قبر واحد » .

***

هذه كلها صفات من المجد والعظمة والرجولة ، لم يبلغها قبل الرسول عظيم ، ولم تجتمع كلها فى رجل واحد ، وحسبه ما وصفه الله به فى قوله « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولقد كان لهذه الصفات التى امتاز بها الرسول فى قيادته ، أثرها فى تربية أصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فصنعتهم أبطالا ، وجعلتهم قادة ميامين ، سجلوا فى تاريخ العسكرية مبادىء القيادة الصحيحة السليمة ، وأصول العسكرية الجيدة ، وكانوا جميعاً صورة مصغرة للقائد الأول والعسكرى الأمثل محمد بن عبد الله .

ختــام

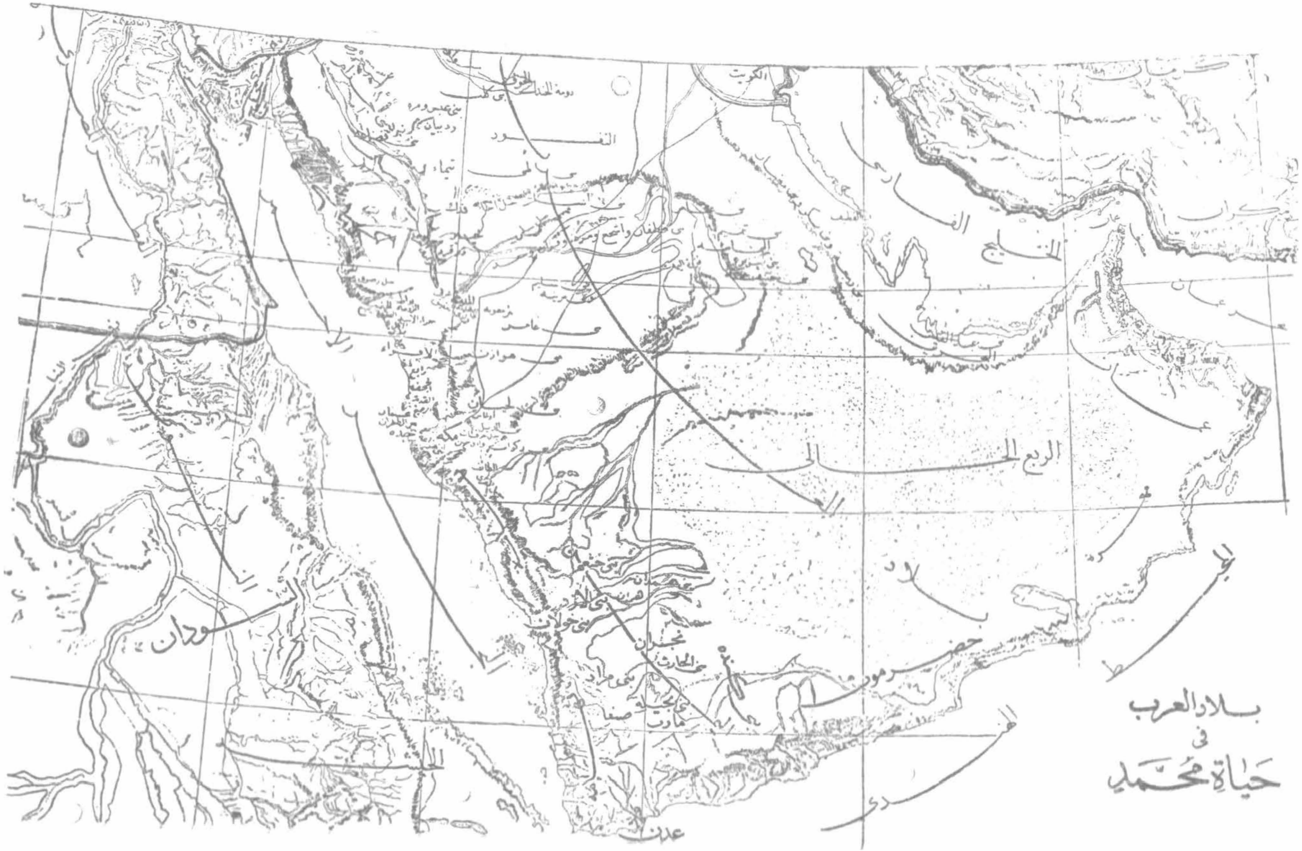
أما بعد

فإن غاية ما أرجوه ، أن أكون قد وفقت ، لما قصدت إليه من هذا البحث ، وأن أكون قد مهدت به السبيل ، إلى مباحث فى موضوع الكتاب ، أكثر استفاضة وعمقاً .

ولقد بذلت من الجهد فى ذلك ما وسعته طاقتى ، وأشهد أنى لم أبلغ من تجلية الجانب العسكرى من السيرة ما يكافىء عظمتها ، ولا ما قصدت إليه ...

أدعو الله أن يهىء لنا من أمرنا رشدا وأن يهدينا للتى هى أقوم ، بالاقتداء بسيرة سيد البشر ، وخاتم الأنبياء ، محمد ابن عبد الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد فرج


بلاد العرب
في
حياة محمد
السودان
النفود
الكويت
الخليج الفارسي
الربع الخالي
مكة
نجران
صنعا
حضرموت
عدن

سجل المراجع

المراجع العربية

القرآن الكريم	
الدستور القرآني في شئون الحياة	محمد عزة دروزه
جامع البيان في تفسير القرآن	الطبري
تفسير سورة الأنفال	مصطفى زيد
نور اليقين في سيرة سيد المرسلين	الشيخ محمد الخضري
عين اليقين في سيرة سيد المرسلين	محمد سيد الكيلاني
خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله	محمد خالد
سيرة الرسول	محمد غزه دروزه
حياة محمد	محمد حسين هيكل
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
محمد	توفيق الحكيم
الوحي المحمدي	محمد رشيد رضا
الفكر الخوالد في حياة محمد	محمد علي
قيام الدولة العربية الاسلامية	محمد جمال الدين سرور
السياسة الإسلامية في عهد النبوة	عبد المتعال الصعيدي
دراسات إسلامية	عبد المتعال الصعيدي
القضايا الكبرى في الاسلام	عبد المتعال الصعيدي
القتال في القرآن	محمود شلتوت
زعماء الاسلام	حسن ابراهيم حسن
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار
الأبطال	كارليل
روح الاسلام	السيد أمير علي
السلام في الاسلام	حسن البنا
فجر الاسلام	أحمد أمين
الحياة العربية من الشعر الجاهلي	أحمد محمد الحوفي
أيام العرب في الجاهلية	محمد جاد المولى

الإسلام والنصرانية ... ... محمد عبده

التاريخ الجغرافى للقرآن .. .. سيد مظفر الدين نارق

العرب قبل الإسلام .. .. جورجى زيدان

تاريخ اليهود فى بلاد العرب .. .. إسرائيل ويلفنسون

فقه السيرة .. .. محمد الغزالى

بطل الأبطال .. .. عبد الرحمن عزام

تاريخ الرسل والملوك .. .. الطبرى

فتح العرب لمصر .. .. الفرد بتلر

سيرة ابن هشام .. .. أبو محمد عبد الله بن هشام

المغازى .. .. أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدى

السيرة الحلبية .. ..

تاريخ اليعقوبى .. ..

رسالة التوحيد .. .. محمد عبده

الطبقات الكبرى .. .. ابن سعد (طبعة بيروت)

ابن الأثير .. ..

العقد الفريد .. .. ابن عبد ربه

الأغانى .. .. الأصفهانى

ابن قتيبة .. ..

المراجع الأجنبية

Life of Mohamed — By Sir William Muir

The Preaching of Islam — By Arnold

History of the Arabs — By Philp Hitti

فهرس

صحيفة

الباب الأول

دراسة تمهيدية للحرب

الباب الثانى

غزوات الرسول

(١)

(٢)

صحيفة

(٣)

صحيفة

الباب الثالث

(١)

مبادىء الحرب

صحيفة

(٢)

القوى المعنوية

الباب الرابع

الرسول القائد

(١)

صحيفة

استدراك

ص ١٧١ الباب الثالث بدلا من الباب الخامس

مطابع الدار القومية

١٥٢ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤